حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb

قصص الحيوان
في الأدب العربي

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

تأليف
عبد الرزاق حميدة

www.ibtesamh.com/vb

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر مارس 2016 **

www.ibtesamh.com

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

www.ibtesamh.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

قصص الحيوان
في الأدب العربي

تأليف
عبد الرزاق حميدة
الأستاذ بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية

www.ibtesamh.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سمعت فى الصغر كثيرا من قصص الحيوان وغيرها ، وأعجبت بها إعجابا كبيرا ، وكنت أصغى إلى محدثى بهذه القصص مشتاقا ، حتى ينتهى من حديثه . فأستزيده أو أستعيده ، ولا ينتهى مجلسنا إلا وقد وعيت عنه أكثر ما قال . وصورت لنفسى صورا من أبطال القصص وشخصياتها . تنبض بالحياة والعواطف والانفعالات ، يشترك فى تكوينها محدثى بما يظهره من حركاته وإشاراته ، وارتفاع صوته وانخفاضه ، وطلاقة وجهه أو عبوسه . وبما يخلعه على هذه الشخصيات من أوصاف الشجاعة أو الجمال أو الخداع أو النبل أو غيرها .

ثم تعلمت القراءة ، وحفظت أكثر ما كانت تمدنا به كتب المطالعة من هذه القصص ، وكان مختصراً منمقا ، ووعيت ما كانت تنتهى به القصص من مغزى . واستقرت فى النفس عباراتها شعراً أو نثراً ، ومازالت صفحاتها بادية لعينى ، وصورها ماثلة فى خاطرى ، وذكرياتها حاضرة فى نفسى . تعيد ما كنت أشعر به من سرور . ومازالت صور المدرسين أمامى وهم يشرحون هذه القصص ، أو يمثلون حوادثها ، أو يترنمون بمغزاها : والأطفال فى غفلة عن العظات والعـــبر التى تتضمنها ، لاشتغالهم بذات القصة ، واهتمامهم بطرافة الموضوع .

ودارت الأيام دورتها ، ووقفت موقف المعلم ، وعنيت بهذه القصص ،

www.ibtesamh.com/vb

ورأيت كتبها قد كثرت ، وأنواعها قد تعددت ، وأطوالها قد اختلفت ، وأصولها قد تشعبت فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث ؛ ورأيت رجال التربية قد أثروا فيها بنظرياتهم وآرائهم ؛ فتنوعت أساليبها ، وتدرجت عباراتها ، وصارت سهلة موجزة فى السنوات الأولى من حياة التلاميذ . ثم أخذت فى الطول والعمق كلما نما عقل التلميذ ؛ ولكنها ظلت محبوبة إليهم . يقرءونها لذاتها ، ويلتهمون مايصل إلى أيديهم منها ، ولا يفرقون بين الخيالى والواقعى مادام مستكملا عناصر التشويق والإمتاع .

وسنحت لى فرصة الدراسة الأدبية ، والبحث العلمى لما شغلت بتدريس الأدب ؛ وعنيت بقصص الحيوان فى الأدب عامة ، وفى الأدب العربى خاصة فرأيت بعض القصص العربى أصيلا ، وبعضه دخيلا تبناه العرب حتى صار جزءاً من أدبهم .

ورأيت أن تطور القصص قد ماشى العصور التاريخية إلى حد بعيد . فقصص الحيوان فى الجاهلية قليلة ، وبغلب أن يكون من الأساطير الأجنبية ، وأكثر ماعندهم تفسير لظواهر طبيعية تتعلق بخلق الحيوان أو خلقته ، كطوق الحمامة وذنب الضب .

ورأيت أن غاية قصص الحيوان فى القرآن دينية ، وكذلك كانت غاية المفسرين فى تفسيرها مع ميل هؤلاء إلى التوسع فى الإجابة على ماينشأ من أسئلة تستوضح ما أجمله القرآن ، معتمدين على أسباب النزول أحيانا ، وعلى النقل عن اليهود والنصارى أحيانا .

وطفت موجة من التأثير الأجنبى فى قصص الحيوان الأخلاقية ، وكانت شديدة قوية جاءت من الفرس فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فى أول عهدنا بالترجمة من اللغات الأجنبية ، وأعنى بذلك كله ، كتاب كليلة ودمنة ، الذى كان فتحا جديداً فى الكتابة العربية ، وظل مثلا عاليا فى الأسلوب

www.ibtesamh.com/vb

الكتابى ، ونموذجا لأكثر الذين كتبوا فى الخرافات من أدباء الشرق والغرب. وتبعه كثيراً من الأدباء ساروا على نهجه فى التأليف شعراً ونثراً ، ولا نجد فى كتاب القصص الحيوانية فى الأدب العربى من خالف ابن المقفع فى الطريقة أو الغاية التى أرادها من كتابه — إلا قليلا — وإن اختلف الأسلوب والقصص ؛ فقد نظم هذا الكتاب وقلده المقلدون مع احتفاظهم بطريقته فى إيراد القصص ، والعناية بالحكمة والموعظة ، والمغزى العام الذى يلزم القصة دائماً .

ومن هذا القليل الذى أشرت اليه ما أريد به إبداء آراء ومعتقدات فى مسائل فلسفية كرسالة إخوان الصفا التى تسمى «تداعى الحيوانات على الإنسان». ثم انتقلت القصة الحيوانية إلى معين آخر تستقى منه فى أواخر القرن التاسع عشر وهو الخرافات الغربية ، وطابعها قصر القصص واستقلالها . ثم اتجه الأدباء إلى العناية بالأطفال . فكثر أدب الطفولة قصصاً وغير قصص ، وتنوعت القصص وغاياتها ، وطولها ، ومصادرها التى أخذت منها ، حتى أصبح أدب الأطفال غنيا بقصص الحيوان غنى لم تشهده اللغة العربية من قبل .

إن هذا القصص الحيوانى خفيف لطيف ، يستهوى القارىء ويثير إعجابه ! فمن الغريب حقا أن يكون الحمار واعظا ، أو الثور ناصحا ، أو أن يضرب الحصان الأمثال ، أو أن ينطق الفيل بالحكمة ، أو أن يرشد الثعلب إلى حسن السياسة ، أو أن يهدى الكلب إلى الوفاء ، أو أن يكون الذئب محذرا من الغدر والحيلة ، أو أن يتعلم الإنسان عن هذا الحيوان أو ذلك الطائر فضيلة من الفضائل ، أو أن ينأى بفضل موعظة الحيوان عن الرذائل ! ولكنها أمثال تساق للموعظة . وقصص تروى للهداية ، وحكايات تنير لعقول الناس سواء الصراط .

والقارىء يجد فى هذا النوع من القصص جمالا ، ويستمتع به استمتاعا ، وقد لا يرضى أن نصرفه عما يجده من جمال واستمتاع ، بأحكام نقررها ، أو

www.ibtesamh.com/vb

بنقد توجهه ، أو مقارنة بين هذه القصص ، أو ثناء على مؤلفيها ، أو دراسة لأخلاق الحيوان فيها ، أو بيان مايرمى إليه كاتبوها من غايات خلقية أو سياسية أو ماشابه ذلك .

ولكن الدراسة العلمية لهذه القصص تستلزم الحكم والنقد والمقارنات ، والثناء والبيان ، وقد حاولت ذلك كله فى هذا الكتاب ، وجعلت الأمثال أساسا ، ولم أعرض أحكاما من غير أن تستند إليها ، فكثرت فى الكتاب قصص الحيوان ، نصا أو اختصارا وتلخيصا ، وقد كانت عنايتى بالنصوص واستخلاص الحقائق منها أساسا فيما كتبت ، وسيجد القارىء فى أحكامى عليها اعتدالا وإنصافا ومحاولة للوصول إلى الحق بقدر ما استطعت ، وأرجو أن يكون فى ذلك كله مايرضى ويفيد .

وكنت أود أن يشمل البحث ما كتبه مؤلفو القرن العشرين من قصص موضوعة ومقتبسه . ومارمى اليه من غاية فى تربية العقل أو الخيال ، وأن أتتبع هذه القصص ومناسبتها لأعمار التلاميذ أسلوبا وغاية . ولكن هذا يحتاج وحده إلى كتاب ، فلم أقدم عنه إلا فقرات قليلة تجمل ما تركت تفصيله .

وأقدم للأستاذ الدكتور ابراهيم سلامة - أستاذ النقد والبلاغة بدار العلوم - عظيم شكرى ، لإرشاده وحسن توجيهه ، وما كان له من فضل عظيم فى البحث والترتيب والأحكام التى تطبع هذا الكتاب بطابعها .

كما أسجل اعترافى بالجميل لشخص كريم له فضل فى إعداد كتبى ومراجعتها وتحقيق نصوصها ، وله كبير الفضل فى تشجيعى عليها ، ومعاونتى فى كتابتها ، وتصحيحها ، فله منى عاطر الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

القاهرة | ربيع الأول سنة ١٣٧٠
يناير سنة ١٩٥١ | عبد الرزاق حميدة

www.ibtesamh.com/vb

فهرس

صفحة

٩ - ١٩ الفصل الأول : صلة الإنسان بالحيوان ، الصلة الروحية ، عبادة الحيوان . الحلول . التناسخ . الطوطمية واللامساس . الصلة المادية . ما تعلمه الناس من الحيوان .

٢٠ - ٣٢ الفصل الثانى : الأساطير . الخرافات . المواعظ . التلميح

٣٣ - ٣٨ الفصل الثالث : الموطن الأول لقصص الحيوان . وتنقلها .

٣٩ - ٤٣ الفصل الرابع : غاية القصة الحيوانية .

٤٤ - ٦٧ الفصل الخامس : صلة العرب بالحيوان ، وعقيدتهم فيه . قصص من أساطير الحيوان عربية ومنقولة .

٦٨ - ٨٨ الفصل السادس : قصص الحيوان فى القرآن الكريم وفى التفسير : بقرة بنى اسرائيل . ناقة صالح . الفيل والطير الأبابيل . النملة والهدهد . غراب ابنى آدم . حية آدم .

٨٩-١٠٩ الفصل السابع : قصص الحيوان فى الأمثال : الضبع والثعلب والضب . الحية ذات الصفا . الذئب والشاة . بجير أم عامر . الثعلب والعنقود . أمثال لقمان . قصص جديدة أو منقولة .

١١٠-١١٨ الفصل الثامن : الفرس بين العرب والهند . عدم النقل إلى آخر عهد الأمويين . البانجا تانترا وفصولها .

١١٩-١٤٢ الفصل التاسع : كليلة ودمنة لابن المقفع ، كليلة ودمنة والبانجا تانترا . أبواب كليلة . . مميزات ابن المقفع فى كتابته . مقلدوه فى القرن الثانى . سهل بن هرون . أبان بن عبد الحميد

www.ibtesamh.com/vb

صفحة

١٤٣-١٤٩ الفصل العاشر : تداعى الحيوانات ، لاخوان الصفا . خلاصته . مميزاته .

١٥٠-١٦٨ الفصل الحادى عشر : نتائج الفطنة والصادح والباغم لابن الهبارية . موازنة بينه وبين ابن المقفع . خلاصة الصادح والباغم . ما أثر فيه وصفاته .

١٦٩-١٧٥ الفصل الثانى عشر : سلوان المطاع لابن ظفر . إهداء الكتب للعظماء .

١٧٦-١٩١ الفصل الثالث عشر : فاكهة الخلفاء ومرزبان نامه لابن عربشاه . موازنة بين فاكهة الخلفاء وكليلة . أظهر صفات فاكهة الخلفاء . مرزبان نامه ، موازنة بينه وبين فاكهة الخلفاء .

١٩٢-١٩٧ الفصل الرابع عشر : قصص الحيوان فى ألف ليلة وليلة

١٩٨-٢١٤ الفصل الخامس عشر : الخرافات الحديثه : لافنتين . العيون اليوافظ وصفاتها . آداب العرب لابراهيم بك العرب ، شوقى وقصص الحيوان . قصص الحيوان الحديثة . الخيالة وقصص الحيوان

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الأول

صلة الانسان بالحيوان

ترجع صلة الإنسان بالحيوان إلى أقدم العصور التى عاشا فيها معا على ظهر الأرض ، وقد شغل الإنسان بالحيوان منذ ذلك الزمن البعيد .

ونشأت بينهما صلة روحيه أنشأها الخيال الانسانى . وأعانه على إنشائها الحيوان نفسه بما فيه من غرائز لاتتخلف ، ومن صمت يحيطه بالغموض والأسرار، ومن قوة تقذف الرعب منه فى القلوب، ومن منفعة عامة ترتفع به إلى درجة عظيمة فى الفضل .

ونشأت بينهما صلة مادية أيضا ، فتنازعا البقاء حينا . وتعاونا أحيانا ؛ وتلقى الانسان عن الحيوان دروسا ساعدته على أن يرتقى فى مدارج الحضارة، وأن ينتقل من أطوار البداوة إلى حياة المدنية .

١ — الصلة الروحية

تجلت هذه الصلة فى اكبار الانسان للحيوان وتقديسه تقديسا بلغ به مرتبة الآلهة

وسبب ذلك أن عقل الانسان الأول كان أقل مقدرة على التعليل الصحيح وأضعف من أن يفهم أسباب الأشياء الحقيقية، فاعتقد فى الحيوان اعتقادات متعددة ، منها أن للحيوان روحا مثل روحه ، وأنها تبقى بعد موته ، وتكون قادرة فى الحالتين على الخير والشر ؛ فكان من الطبيعى أن يتقرب إلى قوة الخير ، وأن يسترضى قوة الشر ، وأن تكون وسيلته إلى ذلك القرابين

www.ibtesamh.com/vb

والتقديس ، وعبادة الحيوان لذاته، أو لأن روحا مقدسا يحل فيه .

وربما رأى فى الحيوان رمزاً أو صورة لاله، أو لقوة أعلى منه لايراها فعبد الحيوان على أنه مظهر أو رمز لها (١)

واعتقدت بعض الأمم البدائية أن روح الحيوان قد حلت من قبل فى إنسان، إذ رأوا فى بعض الحيوان شبها بصديق مات أو قريب هلك ، فأجلوا ذلك الحيوان إجلالا قريبا من العبادة . (٢)

وحسب بعض القبائل أن روح الآباء تحل فى أجسام الحيوان ، فعبدوه لهذا الحلول . وكانت هذه العبادة حلقة بين عبادة أرواح الماضين الخيرة المسماة « Manes-Worship » ، وعبادة الحيوان الذاتية . (٣)

واعتقد بعض الناس فى انتقال الأرواح بعد الموت من جسم إلى آخر سواء أكان جسم إنسان أم حيوان وهو الذى يسمى « Metempsychosis »(٤) أو التناسخ .

وهذا الاعتقاد الغريب فى التناسخ قد بلغ حد الايمان بمقدرة الانسان على أن يتحول ذئبا مثلا ، ويسمى هذا الاعتقاد « Lycanthropy » .

وقد قال المصريون القدماء بالتناسخ ، ونقلها عنهم الفيلسوف اليونانى فيثاغورس . وقال بها البوذيون من الهنود أيضا وربطوا هذا الانتقال ـ انتقال الأرواح بين الأجسام ـ بفكرة الثواب والعقاب . ويقال أن كل تناسخ متأثر بهذه الفكرة عند غيرهم من الناس ، قد بدأ من عندهم ، وتأثر بالبوذية أو الهندوسية .

---

(١) Animal, The Worship of., Chamber,s Ency. P. 287. vol.1

(٢) المصدر نفسه

(٣) المجلد الأول ص ٢٨٨ من : Chamber,s Ency. .

(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة Metempsychosis

www.ibtesamh.com/vb

ويقول درنك ووتر [١] فى تفسير التناسخ أو انتقـــال الأرواح « Transmigration of souls » بأنه « بعد كثير من التجارب فى عدد من الأجسام تتحرر الروح أخيرا من الشخصية الذاتية « Individuality » وتتصل بيراهما الروح العام ، ويتعين عدد هذه الأجسام بالأفعال الحسنة والسيئة التى تفعلها الروح وهى فى الجسم » .

وقد كتب الأستاذ أحمد بك أمين عن هذه النظرية فقرة فى « ضحى الاسلام » [٢] ويقول فى ختامها : « ان الهنود قد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فقالوا إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل ، فالأرواح الشريرة تتردد فى النبات وخشاش الطير ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى.

وكان فيثاغورس يرى تناسخ الارواح بين الإنسان والحيوان ، وأن تحرير النفس يكون بترقيها فى دورة الحياة ، وذلك بالشعائر الدينية وبالفكر والتأمل والفلسفة .

ويظهر أن فكرة التناسخ أقدم وأعم من هذه المذاهب . فهى مرتبطة بفكرة النفس المادية .. وخلاصتها [٣] أن النفس مستقلة عن البدن وأنها مادية، ويمكن أن تخرج من الجسم وتدخله عن طريق الفم والأنف ... وأكثر من آمن بهذه الفكرة يعتقد أن الروح المادية حشرة أو فراشة أو طائر أو ما أشبه ذلك . وأنها تستطيع أن تترك جسدها الأول إلى جسد آخر مادامت قادرة على التنقل، وقد تختار لنفسها حيوانا أو نباتا كما تختار إنسانا .

وقد ظهرت هذه النظرية فى اليونان فى القرن السادس ق . م . ونشر

---

(١) Drinkwater, The Outline of Literature P. 134

(٢) ج ١ ص ٢٣٨ وفى قصة الادب فى العالم ج ١ ص ٦٣ تفسير لها أيضا .

(٣) Metempsychosis, Eney. Brit. P.336. vol 15

www.ibtesamh.com/vb

حولها أدب كثير . . . واختلف فى نشأتها هنـاك فقيل إنها محلية وقيل إنها مصرية أو هندية ، والراجح أنها جاءت إليهم من مصر . وهذه العقيدة تلزم معتنقيها أن يحرموا لحم الحيوان كما يحرم الواحد منهم لحم أخيه الإنسان ، وهذه من مبادىء الدين البراهمى والفلسفة الفيثاغورية .

ويقول بنفى [١] Theodor Benfey ، إن فكرة التناسخ قد جاءت من المصريين، لأنه ليس لها وجود عند أحد من الأجناس الهندية الأوربية إلا عند الهنود . ومما لا شك فيه أن بعض الصلات قد نشأ فى القديم بين النيل ونهر السند، وربما كان الفنيقيون الناقلين لهذه العقيدة من مصر إلى هناك [٢].

أما عبادة الحيوان فى مصر فقد ظهرت هناك من أقدم العصور وكانت أقدم من الحضارة المصرية - ويقول سبنس عنها [٣] - مما لا شك فيه أن الباعث على عبادة الحيوان أولا كان الخوف الممزوج بالإعجاب والرهبة من قوة المخلوق العجيبة، ثم تطورت الفكرة فى الحيوان فصار يمثل الإله، وأنه الصورة المادية للصفات المقدسة العلوية ، فكان من ذلك أن صار الثور والخروف - بما لهما من مقدرة عظيمة على الإنتاج - يمثلان بعض آلهة الطبيعة وعودة الحياة فى كل عام .، ويقول « لم يكن فى طوق الآلهة أن تحتفظ بالحياة الدائمة إلا بانتقال الأرواح من جسد إلى جسد» .

وقد عُبد الحيوان فى مصر فى عصورها القديمة فعبد العجل والبقرة والخروف والنمساح والقط والجعل والثعبان والسبع والضبع والصقر وغيرها .

---

(١) عالم المانى شهير ترجم البنج تانترا عن السنسكريتيه سنة ١٨٥٩

(٢) المجلد الأول ص ٢٨١ من : Chamber,s Ency.

(٣) Myths & Legends of Ancient Egypt by Lewis Spence P. 282-294.

www.ibtesamh.com/vb

ويقول برجسون [١] (١٨٥٩ - ١٩٤٠ عن عبادة الحيوان :

« فى مصر القديمة مثلا ظلت هذه العبادة شائعة حتى النهاية ، فالاله الذى نبت من صورة حيوانية أبى أن يتخلى عن هذه الصورة تخليا تاما ، فتوج جسمه الانسانى برأس حيوان » .

« ونحن ندهش اليوم لهذا ، لاسيما وللانسان فى نظرنا قيمة سامية ، فنحن نخصه بالعقل ونعلم ألا تفوق إلا ونبلغه بالعقل ، ولا نقص إلا ويستطيع العقل أن يسده ، بيد أن الأمر لم يكن كذلك قبل أن يثبت العقل كفاءته ، أى حين كانت ابتكاراته نادرة ، فما تظهر قدرته اللانهائية على الابتكار ، وحين كانت الأسلحة والأدوات التى يزود بها الانسان لاتصمد لأسلحة الحيوان وأدواته الطبيعية . بل ان التفكير نفسه ، وهو سر قوته ، كان يبدو له عنصر ضعف ، لأنه منبع التردد ، على حين أن الحيوان إذ يستسلم لغريزته يستجيب استجابة مباشرة موثوقة ، حتى أن عجز الحيوان عن الكلام كان يحاط بهالة من الأسرار ، فصمته ترفع وتوفير لوقته أن يضيع معنا فى حديث ، هذا كله يفسر لنا لِمَ لمْ تنفر الانسانية من عبادة الحيوان . فترى لم قصدت اليها ؟ انما عبد الحيوان لخاصة ممزة فيه ، لقد كان الثور فى مصر القديمة يمثل قوة الطغيان ، وكانت اللبؤة رمز التهديم وكان النسر لعنايته بصغاره ، شعار الأمومة » .

وما زالت عبادة الحيوان موجودة إلى الآن فى الشعوب المتأخرة ، بل إن فى الشعوب المتحضرة من لايزال يعبد الحيوان . فهنود أمريكا الشمالية يعبدون « المانيتو Manitou » وهو حيوان فى أكثر الأحوال ويحمل الانسان جلده كأنه تميمة ، وينقش رسمه على الجسد أو يحفره على السلاح [٢]

---

(١) منبعا الأخلاق و الدين ص١٦٦ تعريب سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم

(٢) Chambers,s Ency. ج ١ مادة Animal, Worship of

www.ibtesamh.com/vb

والهند من أهم الأمم الحديثة التى ماتزال عبادة الحيوان باقية فيها عند البراهمة ، والبقرة المقدسة لايحافظ عليها الهندوسى فقط ولكنه ، يعبدها ويسجد لها يوميا وهو يقدم لها الحشيش والأزهار [١]

« وما زالت لها الحرية المطلقة فى السير فى الشوارع والوقوف فى الميادين وتعطيل حركة المرور من غير أن يزعجها أحد أو يبعدها إلى مكان خاص [٢] »

ومازال الخلاف بين المسلمين والهندوس بسبب البقر حديث الدنيا وكم أزهقت بسببه أرواح وثارت ثورات وفتن ، فالمسلمون يذبحون البقر والهندوس يقتلهم ويبخع نفوسهم أن تُذبح آلهتهم .

ومازال تقديس الحيوان لمعنى من المعانى ، والتفاؤل به ، أو التشاؤم منه ، فى أماكن أو فى مناسبات ، موجودا فى أرقى أمم الأرض حضارة . ومازال بعضه شارة لبعض الأمم كالسبع على العلم الانجليزى ، والنسر على العلم الألمانى ، وهكذا .

هذه مظاهر من التقديس القديم الذى كان يتمتع به بعض هذه الحيوانات فى تلك الأمم . ولعل بعض الأمم الراقية ترى فيه ماكان يراه الأقدمون من أسرار وبركة وحماية وفأل حسن . ولكن يمنعهم من عبادته تقدم العقول أو تعاليم الأديان . فيكتفون بالتبرك به .

الطوطمية واللامساس :

ومما يتصل بعبادة الحيوان وتقديسه ما يسمى « الطوطمية واللامساس » ، واولى الكلمتين جديدة فى اللغات المتحضرة ولكنها قديمة المدلول فى كثير من الأمم والقبائل ، وقد دخلت اللغة الانجليزية سنة ١٧٩١ من قبيلة Objway

---

(١) قصة الحضارة ص ٥١٠ The Story of Civilization

(٢) ص ٥١٠ The Story of Civilization

www.ibtesamh.com/vb

من هنود أمريكا الشمالية . وقد أطلقت كلمة «Totem» عندهم على الحيوان المقدس ، والقبيلة التى تعبد هذا الحيوان وأفراد هـذه القبيلة وسمى كل من هذه « طوطما » (١)

أما « الطوطم الأصلى» فهو كائن من الطبيعة تجله بعض القبائل المتوحشة. وقد يكون جمادا أو نباتا أو حيوانا . والطوطم الحيوانى أكثر شيوعا ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة «الطوطمية» أن بينه و بين «طوطمه» علاقة نسب . وهو يحمى صاحبه ويساعده، ويبعث إليه الأحلام اللذيذة . وصاحبه يجله ويقـدسه . ويقابل هذه المساعدة بالامتناع عن قتل الطوطم إذا كان حيوانا . وكثيرا ما يتفانى فيه ، يلبس جلده ، أو ينقش صورته على جسده أو ما أشبه ذلك . (٢)

أما علاقة النسب التى بين الإنسـان والطوطم فتختلف باختـلاف الأماكن : ففى بعضها يعتقد أعضـاء العشيرة أنهم منحدرون من الطوطم نفسه ، وفى بعض الجهات الأخرى يظن أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من شخص له علاقة من بعض الوجوه بالطوطم، «كالمانيتو » فى أمريكا الشمالية.

وأهم مظاهر الطوطمية هى : ـ

١ ـ أعتقاد أعضاء العشيرة أنهم يمتون بعلاقة الدم إلى ذلك الطوطم .

٢ ـ تعظيم الطوطم وتقديسه ورفعه إلى مقام العبادة واتخاذه إلها للعشيرة

٣ ـ تسمية العشيرة باسم الطوطم .

٤ ـ تحريم أكله ولمسه والنظر اليه، ومن يتعرض لذلك يصاب باذى .

٥ ـ توهم أصحابه أنه ينذر بالخطر قبل وقوعه .

٦ ـ الاحتفال بدفن الطوطم والحزن على وفاته .

---

(١) أساطير العرب فى الجاهلية ص ٥٤ عبد المعيد خان، وقصة الحضارة ص ٦٠

(٢) Chamber,s Ency جـ ١ ص ٢٨٨

www.ibtesamh.com/vb

وقد ساعدت الطوطمية على توحيد القبيلة التى تعتقد فى طوطم واحد وفرضت عليهم كثيرا من الواجبات من أهمها ما يسمى « التابو Taboo » أو اللامساس . . . . وهو نظام مبنى على قيود دينية تحرم بعض الأشياء المقدسة واستخدامها والنظر اليها والقرب منها بسبب القداسة التى لهـــذا الحيوان أو النجاسة التى هو عليها (١)

وكان الخروج على هذه النواهى واستباحة هذه المحرمات سببا فى حلول العقاب بفاعلها . وكان الموت هو العقاب فى المخالفات الكبيرة وبعض الأمراض فى المخالفات الصغيرة .

على أن بعض الحيوان المقدس كان يؤكل فى حالات معينة على أنه رسم دينى كما أكل « الجالاز Gallas » ـ بعض قبائل الأحباش ـ السمك الذى عبدوه ؛ أو كان يتخلص منه لسبب ما ، كما أغرق المصريون القدماء عجلهم « أبيس » إذا بلغ سنا معينة (٢) .

وفى الطوطمية كلام كثير ولكننا عرضنا لها بايجاز مبينين أهم مظاهرها لأنها نوع من عبادة الحيوان وتقديسه (٣) .

٢ ـ الصلة المادية

وتجلت هذه الصلة قديما وحديثا فى فضل الحيوان على الحضارة والناس :

وقد أرجع كثير من الباحثين الفضل فى نشأة الحضارة وتقدمها إلى ما تعلمه الانسان عن الحيوان من مقدمات الحضارة فى الأزمنة القديمة :

---

(١) الدكتور على عبد الواحد « المسئولية والجزاء » ص ٨٧

(٢) ص ٦٠ The Story of Civilization

(٣) أنظر كتاب « النظم الإجتماعية والسياسية عند السامين » للمرحوم محمود جمعة من ص ٩٩ - ١٤٢ ، وهو ينفى معرفة العرب وممارستهم للطوطمية

www.ibtesamh.com/vb

فالحيوان هو الذى أرغمه على التجمع، إذ كان ضعف الانسان أمام قوة بعض الحيوان سببا من أسباب تجمع الناس وتعارفهم ليدفعوا عن أنفسهم مايتعرضون له من خطر هذا الحيوان القوى (١)

وقد تعلم منه كيفية الادخار فساعده ذلك على الاستقرار فى مكان وعلى الانصراف الى أعمال أخرى كجمع القوت ... « فالكلب الذى يدفن العظم والسنجاب الذى يجمع الجوز كى يستمتع به فى مستقبل الأيام، والنحل الذى يملأ الأقراص بالشهد والنمل الذى يخزن الطعام لليوم المطير، كانت من بين مبتدعى الحضارة وكانت هذه وغيرها من المخلوقات الحاذقة الماهرة مما علم آباءنا الأولين فن الادخار للغد من الزائد عن اليوم، أو الاستعداد للشتاء بما يكثر من خيرات الصيف . (٢) »

وكان من فضله أن علم الإنسان المقدرة على البحث عن الطعام فى الأرض فقد كان الانسان الأول يبحث عن الطعام بيد عارية قد تدمى أو تكل عن الحفر فى الأرض الصلبة، فلما رأى الحيوان يستخدم مخالبه وأنيابه أعجب بها ولما سنحت الفرصة استعارها للبحث، أو صنع مثلها من أغصان الأشجار (٣)

ولما انتقل الانسان من حياة الصيد غير الآمنة، إلى حياة الرعى الأكثر أمنا وطمأنينة، كان للحيوان فضل عليه أيضا، فانه ألف الحيوان وربى الأنعام وانتفع بها فى أعمال الزراعة، واستخدم ألبانها ولحومها فى الطعام (٤)

ولا يعرف بالدقة متى كان ذلك، ويظن أنه بدأ عندما استحيا الانسان صغار الحيوان الذى قتله فى الصيد، وجاء بها إلى خيمته ليتلهى بها الأطفال ثم كبر الحيوان الصغير، وأنس بالناس، وعاش بينهم صديقا وخادما، يحمل

---

(١) ص ٣٠ The Story of Civilization لمؤلفه Durant

(٢) المرجع نفسه ص ٦ (٣) المرجع نفسه ص ٦ (٤) ص ٨

www.ibtesamh.com/vb

الأثقال ويثير الأرض ويسقى الحرث ، وأجره على ذلك مايقدم إليه من الطعام والمأوى .

ثم تكاثر الحيوان ، وكان منه ما يجود باللبن ، فاستراحت المرأة من طول الرضاع ، ووجد الأطفال طعاما جديدا يمكن الاعتماد عليه ، فقويت صحتهم وقلت الوفيات بينهم .

وقد عقد «ديورانت» فصلا عنوانه « أسس الصناعة » يقول فيه [١] : —

يظهر أن الانسان كان راضيا فى أول الأمر بما تمده به الطبيعة من ثمرات الأرض طعاما ، ومن جلود الحيوان وأوباره كساء ... ثم حاكى الحيوان فى آلاته وصناعته ، إذ رأى القرد يقذف أعداءه بالحجارة والثمار ، ويكسر الجوز والاصداف بالاحجار ، ورأى كلب البحر يبنى السدود ، والطيور تبنى الأعشاش ، والشمبانزى تقيم الاكواخ ، فحسد الحيوان على قوة مخالبه وأسنانه وقرونه وخراطيمه وجلوده ؛ فصنع آلات وأسلحة تشبه هذه وتنافسها .

وأخذ من الحيوان كثيرا من أدواته : فصنع المغارف والملاعق والآنية والصحاف والأكواب والمواسى من أصداف الشواطىء ، والآلات الصلبة والرقيقة من القرون والعاج ، ومن الاسنان والعظام ، ومن الشعر والجلد ؛ واتخذ لهذه الآلات الايادى من الخشب ، وشدها بشرائح من الشجر ، أو بخيوط من جلود الحيوان وعضلاته ، وربما دهنها بدمه .

وفى صناعة النسيج اهتدى الانسان بالحيوان ، فبيت العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الأوراق والأغصان فى الغابات ، تضرب مثلا واضحا جدا على أن النسج يحتمل أن يكون من أقدم الفنون التى عرفها الانسان ؛ وفضل الحيوان ظاهر فى تعليم الانسان هذا الفن . [٢]

---

(١) The Story of Civilization ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٣

www.ibtesamh.com/vb

وهذا قليل من كثير من فضل الحيوان على الانسان وهدايته الى طريق الحضارة . أما مظاهر هذه الصلة فى العصور الحديثة فهى أكثر من أن تذكر.

وفضل هاتين الصلتين على الانتاج الأدبى قديم وعظيم .

أما الصلة الروحية فقد كان لها مظاهر أدبية متعددة منها ماجاء على شكل أساطير قصصية تسمى «الميثولوجى» ومنها خرافات تسمى ال Fables بمعناها العام ، ومنها قصص لها مغزى خلقى ، وربما كانت جزءا من الخرافات وهى المعروفة باسم « Apologue » أو الموعظة .

وعندنا نوع من القصص الدينية كان الحيوان موطن إعجاز فيه ، وهى قصص وقعت حوادثها فعلا . وأعنى بها قصص المعجزات التى كان الحيوان فيها مظهر الاعجاز كالبقرة والناقة والنملة والهدهد .

وكانت الصلة المادية مصدر أدب قوى يصف الحيوان وصفا خارجيا فى الغالب أو يتحدث عن منافعه ويذكر بعض خصال الخير فيه ، أو يصف جمال منظره ، أو يقص بعض المغامرات فى صيده ، أو مايشبه ذلك . وعندنا فى الادب العربى شىء كثير من هذا كوصف امرىء القيس للفرس ، والنابغة لكلب الصيد ، وطرفه للناقة .

وننتقل الآن الى الكلام عن هذه الاثار الادبية التى تنشأ من العلاقة الروحية .

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثانى

الأساطير ـ الخرافات ـ المواعظ

١ ـ الأساطير :

الأسطورة أو « Myth » قصة من القصص الخرافية ، أو حكاية من الحكايات الخيالية، وبخاصة تلك التى توجد عند الأمم فى حالاتها الأولى ...

وتشتمل على أشخاص أو حوادث أو أعمال فوق طاقة البشر ،وفيها فكرة عامة تدور حول ظواهر طبيعية أو تاريخية . (١)

أما الميثولوجى Mythology أو الأساطير فيقصد بها مجموعة هذه الحكايات ، كما يقصد بها أيضا دراسة هذه الأساطير دراسة علمية ، كالبحث فى أصلها، ومواطنها، وعلاقاتها بالدين، ودلالتها على أخلاق الأمة ومعتقداتها وهكذا . وقد شغل الانسان من قديم الزمن بمظاهر الطبيعة التى كانت تواجهه صباح مساء ولم يستطع لها تفسيرا ، وأبى أن يتركها بلا تفسير فشغل بها وأنشأ هذه الاساطير حولها .

وقد سأل الإنسان منذ ذلك الحين عن أصل العالم والإنسان والحيوان. وكيف نشأت النجوم، وعلى أى نظام تسبح فى أفلاكها ،وكيف تتحرك الشمس والقمر ، وكيف كانت هذه الشجرة حمراء الزهر ، وكان على ذيل هذا الطائر

---

(١) مادة Myth: The Shorter Oxford Enghish Dictionary

www.ibtesamh.com/vb

علامة سوداء وغير ذلك من الأسئلة (١)

وقد أجاب عن ذلك متأثرا باحساسه بالمساواة بينه وبين بقية المخلوقات، إذ اعتقد عندئذ أن فى كل حيوان روحا كروحه ، وأن لكل شيء شخصية كشخصيته . وحاول حل مشاكل الطبيعة متأثرا بهذه المعتقدات، وأجاب عن تلك الأسئلة فى قصص سميت الأساطير . وكان من هذه الأساطير عدد كبير يدور حول الحيوان ، وكان يسمو فيها إلى درجة الألوهية أحيانا .

ومما يثير العجب أن يكون هناك تشابه عظيم بين أساطير الأمم ؛ أما تعليل هذا التشابه فقيل فيه إنه نتيجة الصُّدْفة فقط ؛ لكنه تعليل غير مقبول فالصدفة لا تؤدى إلى الاتفاق الكثير الدقيق الموجود بين هذه الأساطير. وقيل إن هذا التشابه عند الهنود والفرس واليونان والرومان والجرمان والروس والكلتيين وأهل اسكنديناوه راجع إلى وحدة الأصل ، لأنهم ورثوها عن آبائهم الأولين الذين كانوا يعيشون فى مرتفعات آسيا الوسطى، وهاجرت معهم لما هاجروا إلى آسيا الصغرى وأوروبا .

ولكن هذا التعليل على وجاهته يضعف إذا عرفنا أن مثل هذه الأساطير قد عرف عند الشعوب غير الآرية كالصينيين وهنود أمريكا (٢)

ولعل أرجح الاقوال فى عموم الأساطير وتشابهها أنها نتيجة تجارب عامة، وعقليات متقاربة، وعواطف متجانسة يشترك فيها الناس جميعا قبل أن تطغى عليهم المؤثرات الخاصة كالبيئة والثقافة والحضارة وعوامل الزمن ، المؤثرة فى تطور الاساطير .

فقصة ديانا واندميون Diana and Endymion ، اليونانية قد عرف مثلها

---

(١) The Outline of Literature P. 17

(٢) أورد درنكوتر بعض هذه الأساطير المتشابهة فى ص ٣٠ من كتابه السابق وانظر قصة الأدب ص ١١٥ ج ١

www.ibtesamh.com/vb

الأستراليون المتأخرون والسنغاليون وبعض قبائل أفريقية ؛ وخلاصتها عند اليونان كما يأتى : (١)

كانت ديانا إلهة القمر تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء فلمحت أنديميون ، الراعى الجميل الفاتن ، نائما على سفح جبل ، فانحنت عليه وقبلته وكانت تقف بعربتها كل ليلة فى ذلك المكان لتستمتع بلحظة سعيدة ، لكنها بعد قليل من الزمن لم تحتمل التفكير فى أن يفلت منها جمال انديميون ، فأغرقته فى نعاس دائم ، وأخفته فى كهف لا يدنسه إنسان .

« هذه القصة تمثل أسطورة من اساطير النجوم وانديميون فيها رمز للشمس الغاربة التى يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته ليلا » .

ولا تختلف عند الجماعات الأخرى التى أشرنا اليها إلا فى التفاصيل أما الفكرة العامة فواحدة .

وبعض المفسرين للاسطورة يجعلها رمزا للقوى النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة ، كأسطورة إيزيس وأوزيريس ، لكن هناك خطرا فى الالتجاء الى مثل هذا التفسير فى كل الحالات . إذ أن بعضها لا يمكن تعليله على هذا النحو ، فضلا عن ان مرحلة الرمز فى تاريخ التطور الإنسانى متأخرة .

وخذ مثلا لذلك القصة الهندية التى تحدثنا عن السبب فى ارتفاع قاع مضيق « بلك Palk » الذى بين الهند وجزيرة سيلان ، وهى جزء من قصة « رامايانا (٢) Ramayana » فان « راما » فقد زوجته الجميلة « سيتا » بحيلة دبرها له « رافانا Ravana » ملك سرنديب ، ولما علم بحقيقة الأمر قصد مسرعا الى مكان « رافانا » فى مدينة « لانكا » بجزيرة سيلان . وفى طريقه الى الساحل

---

(١) The Outline of Lit. P. 30 وقصة الأدب ج ١ ص ١١٦

(٢) قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٥١

www.ibtesamh.com/vb

الجنوبي مر باقليم تسكنه قبيلة متوحشة فى هيئة القرود، فحاولت أن تعوقه، لكنه شق طريقه بينها فى غير خوف . فأعجبت القرود ببسالته وحالفته وتطوع جيش جرار منها بصحبته ليعاونه على عدوه .

بلغ « راما » - على رأس جيش القرود - الشاطىء الجنوبي . ولما عاقه البحر عادت القرود إلى جبال همليا وحملت منها أثقالا لاحصر لها من الصخر، فقذفت بها فى الماء فشيدت جسرا يصل مابين الأرضين ، وعطف إله البحر على « راما » أيضا - فرفع له قاع البحر حتى يهون على القردة ما كانوا يصنعون ؛ وما دامت السماء سماء والأرض أرضا فسيظل هذا الجسر ناطقا باسم « راما » (١) .

وعبر جيش القردة الى مدينة « لانكا » وحاصروها ودامت الحرب بين المغيرين والمدافعين قوية عنيفة حتى هزم (رافانا) وقتل ، وتخلصت « سيتا » وعادت الى زوجها .

فليس فى هذه القصة رمز ما، وان كانت تفسيرا ساذجا لبعض مظاهر الطبيعة .

ومهما يكن من شىء فإن الباحثين فى الأساطير لم يتركوها بلا تفسير، ومن الذين قالوا بأنها رمزية فلاسفة « إيونيا » وأخذ عنهم أفلوطين وغيره من فلاسفة الاسكندرية وهذا التفسير يقبل عندما يكون المؤلفون من الفلاسفة أو العلماء أو القساوسة الذين يمكن أن يقصدوا إلى الرمز وأن يجعلوا الاسطورة

---

(١) ولا تزال الجزر الصغيرة المنتشرة بين الهند وسيلان تسمى عند الأهالى « جسر راما » . وهى التى تسمى فى كتب الجغرافيا جسر آدم « وراماياتا » ملحمة هندية قديمة « كالماهابهاراتا » تحتوى كثيرا من أساطير الهند فى أصل العالم والخلق وفيها أساطير تاريخية وفلكية واجتماعية . « قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٤٨ »

www.ibtesamh.com/vb

شاملة للمغزى الدينى أو الفكرة الفلسفية التى يريدون توضيحها فى هذا الثوب من الأدب؛ لكن هذا النوع غير موجود فى عهود الأساطير الأولى .

وهناك مذهب ظهر فى القرن الرابع ق . م يعرف باليوهيميرية Euhemerism نسبة إلى الفليسوف اليونانى يوهيميرس Euhemerus وخلاصته أن الأساطير نشأت من التاريخ الحقيقى . وأن الآلهة وكبار الأشخاص فيها كانوا ملوكا وأبطالا وأصبحوا آلهة بعد موتهم . ولكن هذا التفسير لا يمكن أن يشمل نشأة كل الأساطير التى ملأت العالم ولا علاقة لها بالتاريخ .

وقد قيل فى الأساطير إنها قصص موضوعة لتفسير الشعائر الدينية التى يتوارثها البدائيون ولا يفهمون لقيامها معنى . وأقوال أخرى [١]

ومما يلحق بهذه الأساطير قصص المسخ، أو تحول بعض الناس حيوانا بقوة سحرية مثلا ، روى لنا منها فى الأساطير الأغريقية قصة « باخوس » إله الخمر [٢] وخلاصة القصة أن باخوس قد أجر سفينة من قرصان « تيرينيا » لتنقله من مكانه إلى مكان، ولكنهم بدلا من أن يذهبوا به إلى غايته اتجهوا به إلى آسيا كى يبيعوه رقيقا . فحول الإله الشراع والمجاديف ثعابين، وصار أسدا وأنبت الليلاب حول السفينة، وانطلقت أصوات الصفارات من كل جانب ، وجن جنون الملاحين جميعا ، ووثبوا إلى البحر ، ومسخوا دلافين .

وهذه تبين عقيدة الناس فيما يستطيع الآلهة أن ينزلوه من عقاب إذا أراد أحد بهم سوءا .

هذه الأساطير كانت عرضة للتغير بالزيادة والنقص الخ فى عصر الرواية

---

(١) قصة الأدب ص ١٢٣

(٢) Comus andLycidas by Milton P. 56

www.ibtesamh.com/vb

ولما عرف الناس الكتابة ودونوها أصبحت أقدر على الاحتفاظ بشكلها والبعد عن التغير إلا إذا كان قصدا .

والأساطير تنشأ من الادنى إلى الاعلى ، و تظل خاضعة للتحوير والتبديل [١] حتى تدون كما سبق . وعندئذ تدور دورة أخرى فتعود من الشعراء والأدباء إلى العامة .

٣ ـ الخرافات الحيوانية « Fables »

وتعرف هذه بأنها قصة يمثل الحيوان فيها دورا انسانيا (٢)

وفى مادة fable فى دائرة المعارف البريطانية (١) نجد دكتور جونسون Dr. Johnson يقول فى تعريفها « يبدو أن الخرافة فى أحسن وأدق حالاتها قصة تخترع فيها شخصيات غير عاقلة من الحيوان أو الجماد ؛ لغاية خلقية ، تمثل وتتكلم ، ولها عواطف ومشاعر كالناس » .

أما دائرة المعارف اليهودية [٤] فتعرف الخرافة «fable» بأنها قصة رمزية خلقية ، يمثل الحيوان أو النبات فيها أحيانا و يتكلم كالانسان » . والفرق بينها و بين قصة الحيوان (Beast-Tale) أن قصة الحيوان ليس لها مغزى، وان قام الحيوان فيها بدور انسانى .

ويقول شارل أوبرتان (Ch. Aubertin) فى كتابه القيم «خرافات لافونتين Fables de Lafontaine [٥] »: إن كلمة خرافة أو Fable يمكن أن يكون لها معنيان : معنى عام، وهو قريب من « قصة خيالية »، ومعنى خاص ضيق ؛ وتدل

---

(١) Chamber's Ency مادة Mythology

(٢) Chamber,s Ency. vol, 1, P. 821 (مادة Beast-fable)

(٣) ج ٩ ص ٢٠ مادة Fable

(٤) ج ٧ ص ٢٣٤ مادة Fable

(٥) ص ١٩

www.ibtesamh.com/vb

الكلمة فى معناها هذا على قصة قصيرة من الشعر أو النثر ذات تمثيل مسرحى، تمثلوه فى أكثر الأحوال من الحيوان ، لكن طبيعة الانسان تبقى ظاهرة دائما ، ويبقى هو ملحوظا أبداً .

إن الخرافة بهذا المعنى ترجع إلى أصل قديم جداً ، إنها شكل من الأشكال الأولى للشعر، ونوع من الأنواع المتعددة للفن الساذج الماهر فى الوصف والقصص؛ ويميزها طابعان خاصان يوضحان مبدأها ويكونان منشأها . —

١) عالم الحيوان الذى أخذت منه شخصياتها ويجب أن يحتفظ بحقيقته وأن يمثل الحياة الحقيقية، أو الطبيعية المادية والخلقية لكل نوع ، ولا يسمح فيها لكائن رمزى أو خيالى محض أن يتدخل .

٢) ومن جهة أخرى هذه الكائنات الحقيقية ، أبطال القصة الخرافية تتصف بالعقل والنطق الانسانى؛ فهى من الحيوان ولكنها أنصاف أناسى .

هذان هما العنصران اللذان يجب أن تجمع بينهما الخرافة ويستطيع المرء بالرجوع اليهما أن يعرف الخرافة أينما وجدت .

ونخرج من هذا بأن كلمة خرافة «Fable» لها معان متعددة(١) أنها قصة حيوانية لا مغزى لها «Beast Fable» (٢) أنها قصة حيوانية لها مغزى وعندئذ تساوى «Apologue» (٣) أنها تساوى قصة خيالية (Fiction) فهى أعم من قصة حيوانية .

ولكن المعنى الأدبى الاصطلاحى الذى يكاد يجمع عليه مؤرخو الأدب والنقاد ودوائر المعارف هو : أنها قصة حيوانية يتكلم الحيوان فيها ويمثل مع احتفاظه بحيوانيته ، ولها مغزى . ولا فرق عندئذ بينها وبين موعظة «Apologue» بالرغم مما ذكرته دائرة المعارف البريطانية من فرق بينهما(١)

أما استعمال كلمة « خرافة » العربية فى هذا المعنى فهو استعمال صحيح

---

(١) ج ٩ ص ٢٠

www.ibtesamh.com/vb

وأرى كلمة خرافة أنسب كلمة عربية لكلمة Fable و Apologue معا

جاء فى القاموس المحيط (١) أن الخرافة « حديث مستملح كذب . وربما كان مأخوذا من اسم رجل من عذرة استهوته الجن ، فكان يحدث بما رأى فكذبوه . »

وفى اللسان (٢) « وذكر ابن الكلبي فى قولهم حديث خرافة ـ أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه ،فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذبوه والراء فيه مخففة .ولا تدخله الألف واللام لأنه معرفة، إلا أن يراد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل ، أجروه على كل مايكذبونه من الأحاديث ، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه » .

وأى حديث يستملح ويتعجب منه أكثر من حيوان ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرمى إلى المعنى البعيد !

انها بهذا المعنى الأخير الذى جاء فى لسان العرب يمكن أن تطلق على كلمة Fable و Apologue, أيضا

وما لنا نحاول أن نثبت صلاحية كلمة خرافة لتدل على قصة الحيوان الحكيم الواعظ وقد استعملت فى هذا المعنى منذ زمن بعيد ؟ لقد استخدمها فى هذا المعنى ابن النديم إذ يقول فى كتابه الفهرست (٣) .

قال محمد بن اسحق : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الاول » .

وبعد أن يتكلم عن ابن عبدوس الجهشيارى وما حاوله من تأليف كتاب

---

(١) ج ٣ ص ١٣٢

(٢) ج ١٠ ص ٤١٢

(٣) ص ٣٠٤

www.ibtesamh.com/vb

فيه أسمار العرب والعجم والروم قال: « وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة ،منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون، وعلى بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم » .

وهذا نص صريح فى استعمال كلمة خرافة . ولا مانع إذن من استعمالها لتدل على هـــذين النوعين . فاذا خيف اللبس - وهو موجود فى اللغات الاجنبية - فلا مانع من إطلاق كلمة الموعظة على كلمة « Apologue » وذلك لانها تلزم المغزى الخاتى فى نهايتها . وقد استعمل صاحب « العيون اليواقظ » هذه الكلمة فى عنوان الكتاب فسماه « فى الحكم والامثال والمواعظ » وأصر عليها صاحب آداب العرب فى رأس كل قصة فسماها « عظة »

٣ - قصة الموعظة (Apologue)

وهذه خرافة قصيرة أو قصة رمزية، يراد بها أن تكون وسيلة لغاية خلقية، أو أن تنقل درسا نافعا . ومن أحسن المعروف من هذا النوع ماجاء عن « يوثام » Jotham فى كتاب القضاة (١) The Book of Judges وقد تحدث فيها يوثام إلى أهل شكيم فقال لهم (٢) « لقد ذهبت الأشجار يوما تختار ملكا عليها، فطلبت من شجرة الزيتون أن تحكمها فأبت. لأنها لا تريد أن تستعلى على الأشجار . وقالت الأشجار مثل ذلك لشجرة التين ، لكنها أبت قائلة : أأترك حلاوتى وثمرتى الجيدة وأذهب لأستعلى على الأشجار ! وقالت الكرمة مثل ذلك . فذهبن جميعا إلى الشوك ودعونه أن يحكمهن، فقال

---

(١) ج ٢ ص ١١٨

(٢) الإصحاح ٩ من آية ٧ — ١٥ ، وذلك لأن أخاه قد ملك البلاد قهرا وقتل كل إخوته إلا يوثام هذا فانه هرب ، وقال تلك الموعظة لأهل شكيم قبل هربه ، يشير إلى عدم صلاحية أخيه للملك ، وأنه يحكم قهرا ، وأن عاقبة الحاكم والمحكوم ستكون وخيمة

www.ibtesamh.com/vb

لهن : اذا أردتن ذلك حقا فتعالين ، وضعن الثقة فى ظلى . فاذا لم تفعلن فلتخرج النار من الشوك ولتلتهم كل أرز لبنان » .

ومنها كذلك فأر الحقل وفأر المدينة (١) وقد جاء الأول منهما زائرا للثانى فنغص القط عليهما الطعام وترك فأر الحقل الأكل .

وقال والقلب يذوب بالغصص لاخير فى اللذة يعلوها النغص .

ومن أمثلته أيضا « المعدة والأعضاء » (٢) وخلاصتها أن الأعضاء ضقن بجمع الطعام للمعدة ، ورأين أن الفائدة من الطعام تعود على المعدة ، فأضربن عن العمل ، فجاع الجسم كله وتألم . وقد ضربت مثلا للحكومة والرعية ، وأن كلا منهما يعمل لخدمة غيره ، وأن التعاون بينهما يؤدى إلى خيرهما معا .

وعلى هذا يكون الفرق بينهما من هذه الناحية غير موجود :

غير أن الخرافة تكون أقل تعقيدا وطولا مما تكون عليه « الموعظة » عادة . ثم إن هناك من الخرافات ما يخلو من المغزى الخلقى .

جاء فى دائرة المعارف البريطانية (٣) مايأتى : ونجد فى قصص الحيوان الاولى ، وهى الأصل المباشر لخرافات إيسوب ، أن القصة تروى لذاتها فقط وأنها خالية من كل مغزى ، وتضرب مثلا لذلك قصة الهنود المسطحى الرءوس فتقول : « وجد الذئب الصغير فى أرض السحاب أسياده العناكب بشعورهم الرمادية ، وأذنابهم الطويلة الملتوية ، وقد نسجوا له كرات من الخيط لينزل عليها إلى الأرض . فلما نزل وجد امرأته البطة المنقطة ، التى أخذها منه الذئب العجوز ، فهربت مضطربة ، وهذا هو السبب فى أنها تعيش فى الماء وتغطس

---

(١) ص ٢٩ العيون اليواقظ

(٢) ص ٨٩ العيون اليواقظ .

(٣) ج ٩ ص ٢٠ مادة Fable

www.ibtesamh.com/vb

منفردة حتى اليوم ، هذه القصة ليس لها مغزى خلقى ، وهى أسطورة أكثر منها خرافة ، لتفسير طبع البطة وهو حبها للماء ونفورها من الذئب .

ويمكن أن نقول هنا شيئا عن الفرق بين الخرافة Fable بمعناها الاصطلاحى ، والأسطورة Myth فالاسطورة تنمو ولا تخترع . وتنشأ نشأة شعبية وهى إنتاج غير مقصود يخترعه الخيال الفطرى لتفسير بعض الحقائق أو الظواهر الكونية مثلا .

ويلاحظ أن كل هذه القصص التى سبقت الإشارة إليها من الأساطير والخرافات Fable وقصص المواعظ Aqologues لا تقتصر على الحيوان وإن كان موضعه فيها أبين من غيره ، والقصص التى وردت فيها عنه أكثر عددا .

وكل هذه القصص نوع من الرمز أو التلميح فما هو الرمز ؟

التلميح أو الرمز

إنه صورة من صور التعبير تحمل معنى حرفيا ظاهرا وآخر مفهوما مستورا . وتكون فى اللغة كما تكون فى غيرها كالنحت والرسم . ومن صور هذا الرمز تلك القصص الحيوانية ، فهى تتضمن قصة ، ووراء هذه القصة غاية ترمى اليها . على أن فى هذا الرمز أو التلميح فرصة لتعدد المغزى الخلقى .

وقد كثرت القصص الحيوانية من هذا النوع الرمزى فى عصور الحضارة أما الإنسان الأول فلم يكن يرى فيها رمزا ، بل كان يرى فيها حقائق ؛ لأنه كان ينسب إلى الحيوان طبيعة وروحا ومنطقا كالإنسان وكان يؤمن بالتناسخ والتحول ، ومثل هذا الإيمان يجعل ما نحسبه نحن رمزا ، حقائق عند الإنسان الأول .

وما زال كثير من القبائل البادية والمتأخرة عن الحضارة تقص القصص

www.ibtesamh.com/vb

الحيوانية التى لا مغزى لها ، كما تقص الخرافة ذات المغزى . والأول كثير والثانى علامة على البدء فى سلم الحضارة .

أما القصص ذات المغزى الخلقى فهى ـ على الرغم من قدمها ـ لم تنشأ إلا فى أمم تركت أطوار البداوة وفكرت تفكيرا مركبا ، لما تحتاج إليه القصة ذات المغزى من خيال يستطيع أن ينتقل من القصة إلى مغزاها .

ويرى « برتون » فى خرافات أيسوب أنها ـ على الرغم من قدمها (١) ـ من عمل عصور متحضرة . ولهذا كان فيها المغزى الخلقى والصورة الرمزية .

ومن الذين تحدثوا عن قدم الخرافة « شارل أو برات » مؤلف « خرافات لافونتين » . فانه بعد أن ميز الخرافة بأنها تحتوى على الحيوان المحتفظ بحقيقته ، والناطق بالحكمة فى الوقت ذاته قال (٢)

« ومن السهل أن نفهم كيف نشأت فكرة الجمع بين هذين فى نفس الشعوب الفطرية ، فان الاتصال بين الانسان والحيوان كان أشد فى بدء تكون الجماعات الانسانية وكان الفرق بينهما أقل مما صار اليه فى عهود الحضارة . وكان الحيوان يقدم للانسان كثيرا من الأعمال الضرورية القيمة وكان ينقذه من كثير من الأخطار ، وفى تلك العهود المظلمة كانت بعض طباع الحيوان ودقة غرائزه تثير خيال الانسان ودهشته ، فنشأ من ذلك التآلف أن أقام الانسان بينه وبين الحيوان نوعا من المساواة والتشابه ، أو ظن ذلك على الأقل . فأى عجب بعد هذا فى أن ينقل الانسان الى عالم الحيوان كل الصفات الاجتماعية والسياسية والدينية الموجودة بين الناس » .

وليس فى هذا ماينقض الرأى الذى تقدم ، وهو أن الخرافة تكون من إنتاج العقل الانسانى بعد أن يتدرج فى التطور زمنا طويلا . فان عصر

---

(١) Chamber's Ency. vol. 1, P. 821.

(٢) ص ١٩

www.ibtesamh.com/vb

الجماعات الانسانية عصر قد بلغ فيه العقل مرحلة لا بأس بها من التطور ، على أن « أوبرتان » لم يعين لنا الوقت الذى تنشىء فيه تلك الشعوب الفطرية هذا النوع من الأدب وهو الخرافات . ولنا أن نتصور هذا العصر متأخرا جدا عن بدء اجتماعها؛ وذلك عند استقرارها، وملاحظتها لطباع الحيوان ، وأخذها من عالمه قصصا تشبه بعض ظروف الناس وتنطبق على أحوالهم . أما إلحاق المغزى بالقصة فهو عمل متأخر جدا وبخاصة فى القصص الاجتماعية والسياسية إذ أن تجارب الحياة وملاحظة الاخـــلاق العامة ، وسير الامور العادية من الاشياء التى يحتاج اليها قبل إنشاء تلك القصص ، وتتلو ذلك مرحلة التأليف والغاية الخلقية . ولاشك أن هذا متأخر، عن بدء الاجتماع الانسانى .

أما القصص التى لامغزى لها ، والاساطير المتعلقة بتغير ظواهر الكون السماوية والارضيـة فهى أسبق من هذه بلا شك لأن ضرورة رؤية هذه الاشياء تدعو إلى التساؤل والاجابة عن الاسئلة بشكل من الأشكال .

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثالث

موطنها الاول وتنقلها

ليس من السهل تحديد الموطن الاول لهذه القصص الحيوانية بمعناها العام إذ أنها فطرية — فهى إذا نوع من الادب قديم العهد بالوجود ، بل إنه من أقدم أنواع الأدب . وربما كان بعضه للتسلية وبعضه لتفسير مظاهر الطبيعة .

أما القصص ذات المغزى فهى التى تتنازعها مصر والهند واليونان وربما ضم إليها بلاد آشور وبابل .

ويمكن أن نستبعد اليونان أولا ، بسبب ظهور الحضارة فيها متأخرة عن بلاد الشرق . وأن أكثر من كتبوا عن منشأ الخرافات يقولون انها شرقية النشأة .(١)

يقول « ماكس مولر » Max Nuller أن خرافات أيسوب قد وجدت طريقها إلى اليونان فى زمن هيرودوت أو قبله . ويقول « رولنسون Rawlinson بأن هجرة الخرافات أولا كانت من الشرق الى الغرب لا العكس ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التى تقوم بالادوار المهمة فى الخرافات ، حيوانات هندية فى الأغلب ، كالاسد والفيل والطاوس وابن آوى (وقد صار ثعلباً فى التراجم الاوروبية) والصلة بينه وبين الاسد شىء طبيعى فيقال انه يسعى على الاسد بطعامه أو يرشده الى مواضع الصيد ولكنها ليست كذلك بين الاسد والثعلب) ولا يستطيع الانسان أن يقرأ الادب

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة folk-tale

(٢) عالم لغوى انجليزى من اصل ألمانى (١٨٢٣ — ١٩٠٠)

www.ibtesamh.com/vb

الهندى بدون أن يحس إحساسا مستمرا بجو الغابات . (١)

ومما يجدر ذكره أن الخرافات كثيرة فى الادب الهندى القومى ، والعقل الهندوسى قدير عليها ، وعبقرية اختراعها لا تنفد عندهم ، بينما تجد أيسوب وحده عند اليونان . ومن أشهر القصص عندهم ، المملوءة بالفكاهة والحكمة العملية والشواهد المنتزعة من الحياة الشعبية فى صميمها ، تلك القصص التى جاءت عن مولد « بوذا » فى كتاب « جاتاكا Jataka » . وفيها عدد كبير من القصص الحيوانية . وفى كتاب الهند القديمة وحضارتها (٢)

« كثر البحث فى أصل الخرافات وقال بعض العلماء انه يونانى وقال بعضهم — ولعل حجته أقوى — إن أصلها هندى . وقد كان هناك تبادل وتأثير من كلا الجانبين . ويظهر أن الهند أعطت أكثر مما أخذت . »

وقد جاء فى الكتاب بعد ذلك « أن البحث الآن فى هذه المسألة عبث . فليس هناك من يبحث عن مولد القصص والخرافات فى بلد واحد » : ثم يرد على نفسه فيقول — لكن هناك فقط شعوب لها مقدرة على الاختراع أكثر من غيرها ، وأخرى لها امتياز فى الأدب . والخيال الهندى النشيط ، تغذيه الحياة الخاملة ، والجو الذى يساعد على الراحة والتأمل ، وجماعات الحجاج والشحاذين الذين كانوا يقصون القصص العجيبة السارة ، والاعتقاد الراسخ فى الهند أن الحيوان ليس شيئا مختلفا عن الناس ، وإن كان عاديا فى غيرها — كل هذه هيأت الأرض الصالحة لنمو الخرافات والقصص بكثرة . وجاء فى كتاب « حكمة الهند . (٣) » الهند مهد القصص الحيوانية التى ترتبط دائما بايسوب العبد الأغريقى . وقليل ممن يشيرون إلى قصص

---

(١) The Wisdom of Inbdia P. 245

(٢) Ancient India and Indian Civilisation P. 323-478

(٣) The Wisdom ot India (ص ٢٤٥)

www.ibtesamh.com/vb

« إيسوب » يدركون أنه يمكن تتبع هذه القصص وإرجاعها إلى أصول بعيدة جدا فى الهند وذلك فى شكلها الخاص ونظامها وموضوعها » .

وفى هذا الكتاب أيضا كلام منقول عن ايرنست رايس «Ernest Rhys» فى مقدمة ترجمته لايسوب ؛ يقول .

« علينا أن نسلم بأن قصص الحيوان لم تبدأ بايسوب ولا فى بلاد الأغريق ابدا . وعلينا فى الحقيقة أن نذهب إلى الشرق ، وأن ننظر إلى الهند لنقف على مبلغ قدم هذه القصص .

وترجع دائرة المعارف اليهودية (١) كثيرا من « خرافات ايسوب » إلى جاتاكا « Jataka » أو قصص ميلاد بوذا ـ التى سجلت كثيرا من تجاربه المختلفة فى حالات وجوده الأولى لما كان فى أشكال الحيوان والطيور والشجر . وجاء بعد ذلك « ومثل هذه القصص يحتمل جدا أن تكون المعين الطبيعى لحكايات أيسوب التى تظهر الحيوان بعواطف الناس وأفكارهم » .

ولكن دائرة معارف تشمبرز تروى « أنه كان لقصص الحيوان » مكانة مهمة فى مصر القديمة التى كانت فى درجة متقدمة من الحضارة ؛ جاء فيها : « ومن المحتمل أنها ظهرت هنا لأول مرة ، وأن إلف الناس لها كان ناشئا من الاحترام العميق الذى كان يكنه المصرى القديم للغريزة الحيوانية التى لاتخطىء . وقد مشى هذا الاحترام جنبا إلى جنب مع عبادة المصرى للحيوان ، التى طبعت دينه بطابع واضح » .

« ونحن نجد قصص بالسبع والفأر على ورقة بردى يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث (١٢٠٠ — ١١٦٦ ق . م) لا كمحاولة أولية ، بل فى درجة نهائية تدل على أنها تجاوزت هذه المراحل الأولى . » (٢)

---

(١) The Jewish Ency. vol. 1, P. 221

(٢) Chamber,s Ency. Beast Fables, v. 1, P. 821

www.ibtesamh.com/vb

ويرى « سير رتشرد برتون (Sir Richard Burton) أن القصص الوعظية Apologues خرجت من بلاد النيل أو الأرض ـ السوداء Black Land إلى فينيقيا وجوديا وفريجيا وآسيا الصغرى ثم اجتازت البحر فى سفينة إلى بلاد اليونان . وهنا وجدت طريقها إلى من عرف الناس بها وهو « أيسوب Aesop » الذى يعتبر إسمه خرافة ترتبط بالأثيوبيين (١) وربما كان زمنه هو زمن المشروع صولون (٥٧٠ ق . م) ويشير إلى هجرة أخرى لهذه القصص إلى الشرق حتى وجدت مستقرا فى حوض الدجلة والفرات . وقد كان الاتصال بين مصر وبين كل تلك البلاد قائما ، فتارة تغزو مصر هذه البلاد وتستولى عليها ، وتارة تغزوها هـذه البلاد وتحكمها . فقد غزاها الهكسوس وأقاموا بها من (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق . م) ثم طردتهم وغزت الشام ، ووصلت سيطرة تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق . م) إلى وادى الفرات ، وأعلن الحيثيون والآشوريون والبابليون ولاءهم له . وهذا زمن متأخر جدا فى تاريخ مصر القديمة . فمصر ذات الحضارة التى تسبق اليونان بآلاف السنين ، قد سبقت إلى هذا النوع من الأدب ويكفى فى الدلالة على ذلك ماقدمناه من دليل مادى ، فى درجة عالية من التقدم وهو قصة السبع والفأر فضلا عن الاتصال المستمر بينها وبين البلاد التى تجاورها ، ووصول حضارتها إلى بلاد اليونان ، ومجىء اليونانيين إلى مصر للاستفادة منها فى كثير من النواحى ؛ ولقد قدم « صولون » إلى مصر فى أيام أحمس الثانى ويقال إنه اقتبس شيئا من قوانينها » . وقد كان أيسوب معاصرا له . وكانت شهرة مصر عامة . فما الذى يمنع من انتقال مثل هذا الأدب المدون على الأقل : أن لم ينقل معه شىء من الأساطير والخرافات الشعبية إلى بلاد اليونان . ؟

---

(١) يظن أن اسمه مشتق من كلمة Ethiopia ومعناها الحبشة وأن هذا وصف لا اسم .

www.ibtesamh.com/vb

إذا كان أكثر العلماء قد تحدث عن الخرافات الهندية على أنها أصل للخرافات اليونانية وتركوا مصر ، فالسبب فى هذا واضح جدا ؛ إذ أن الذين أكثروا القول فى هذا هم علماء أوربا ولهم عذرهم . فقد عرفوا أدب الهند منذ الاسكندر ، وعرفوه عن طريق تراجم كليلة ودمنة . وعرفوه عن طريق اتصالهم بالهند اتصالا مباشرا منذ القرون الوسطى ؛ وشغلوا أنفسهم بدراسة الادب الهندى واللغات الهندية ، وعقدوا مقارنات بين الخرافات الهندية وبين قصص أيسوب ومن تبعه من أدباء الخرافات فى اليونان والرومان . ولم يكن عندهم أى خبر عن حضارة مصر القديمة التى كانت تخفيها حنايا القبور وجدران المعابد . وربما أدت الكشوف والابحاث فى مخلفات القدماء المصريين إلى تأييد الأقوال التى سبقت بجانب البرهان المادى وهو قصة السبع والفأر المشار اليها سابقا .

وقد وجد أيضا فى الكتابات المسمارية القديمة قصص حيوانية (١) وجد منها أربعة أمثلة فى مكتبة آشور بانيبال (٢) — أول قصة منها عن أعمال النسر والثعبان ، والثانية عن الثعلب والضبع ، والثالثة عن محاورة بين حصان وثور ، والرابعة تشتمل على عجل يتكلم — ولكن هذه متأخرة أيضا عن قصة السبع والفأر بحوالى ستمائة عام .

---

(١) Chamber,s Ency. vol. 1, P. 821

(٢) أشور بانيبال من ملوك أشور حوالى منتصف القرن السابع ق . م وقد غزا مصر واستولى عليها . ومن آثاره مكتبة عظيمة فى المتحف البريطانى منها الآن حوالى ٢٢ ألف لوح وموضوعاتها دينية وعلمية وأدبية (ص ٦٣ كتاب التاريخ القديم — شفيق بك غربال وآخر)

(٣) The Wisdom of India طبعة ١٩٤٨ ص ٢٤٥

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الرابع

غاية القصة الحيوانية

قدمنا أن من القصص الحيوانية أساطير وخرافات أو قصص ذات مغزى

أما الأساطير فمنها ما يكون تفسيرا لخلقة بعض الحيوان أو أخلاقه مثلا ، أو تفسير البعض الظواهر الكونية وذلك كأسطورة الضب والضفدع عند العرب ، وخوف الغراب ، المنقول اليهم من اليهود ، واشتراك القرود مع « راما » فى حربه ضد ملك سرنديب والقائها الأحجار فى المضيق الذى بين الهند وسرنديب؛ لتفسير نشأة الجزر فى ذلك المكان . والموضوع الذى يهمنا الآن أكثر من غيره هو القصص ذات المغزى فى شكليها الخرافة Fable والموعظة Apologue وإذا رجعنا الى تعريفهما فيما تقدم وجدنا الغاية الخلقية التى يتضمنها المغزى جزء من التعريف .

وبعض الباحثين يحلو لهم أن يحيطوا نشأة هذه القصص بظروف خاصة ، وأنها انما تنشأ فى عهود الظلم والاستبداد ، عندما يكون التصريح بالحقيقة جالبا لغضب الملوك والرؤساء . وقد يستدلون على ذلك بأن من أشهر كتاب هذه الخرافات قوم من الارقاء والعبيد والموالى ، وينتقلون من مركز هؤلاء المؤلفين فى المجتمع الى نتيجة يرونها منطقية ، وهى أن هؤلاء المؤلفين ، بصفتهم هذه ، لم يستطيعوا أن ينصحوا لسادتهم خوفا من بطشهم ، فآثروا الرمز لما فيه من بعد عن جفاف الحقيقة ، وإثارة غضب الرؤساء .

يقولون ان « ايسوب » كان عبدا ، وكان « فيدر » الرومانى عبدا أيضا ، وكان « لقمان » الحكيم عبدا حبشيا ، وكان ابن المقفع مولى فارسيا . وهؤلاء

www.ibtesamh.com/vb

أشهر من نسبت اليهم الخرافات .

وتقول دائرة المعارف البريطانية [١] « ان منشأ الموعظة قديم جدا فى الشرق، فقد كانت الحقيقة المقنعة شيئا ضروريا هناك وخصوصا عند الارقاء الذين لم يجرءوا على اظهار ما فى نفوسهم بصراحة . ومن الملاحظ أن أول من تبنى الموعظة فى الغرب اثنان من الارقاء هما ايسوب وفيدر « Phédre »

ويرى « بيرتون » [٢] أن بعض القصص ذات المعنى الرمزى تنشأ فى عصور يكون الحاكم فيها طاغية غيورا أو مستبدا قويا ، يضع الصعوبات والأخطار فى طريق الحديث بالحق الصريح . وننقل عنه قوله فى أسباب اختراع حكاية الحيوان: « والخطر فى توجيه اهانة صريحة الى حاكم اسيوى مستبد ربما كان من أسباب اختراع حكاية الحيوان التى يقصد فيها أن يكون الدرس الخلقى مستورا فى ثناياها » .

وقد جاء فى الوسيط [٣] عن الأمثال الفرضية أنها تكثر « فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين ، فيضطرون اليها للوصول الى أغراضهم ، مع الأمن على حياتهم ؛ على مافيها من ترويح الخاطر . ولطف المدخل وجمال الفكاهة المنطوية فى تضاعيفها النصيحة وذلك أعمل فى النفس وأدعى الى الاتعاظ » .

ويقول أحمد بك أمين فى ضحى الاسلام [٣] « وتبينت الحاجة الشديدة الى هذا النوع فى عصور الاستبداد ، يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم ، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم ولا واعظ أن يومىء

---

(١) Chamber's Ency. مادة Fable

(٢) ص ١٧

(٣) ج ١ ص ٢٢٣

www.ibtesamh.com/vb

بالموعظة الحسنة اليهم ففشا هذا الضرب من القول والقصص ، يقصدون فيه الى نصح الحكام بالعدل، وكأنهم يقولون: إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الانسان . واذا كان الولاة والزعماء تأخذهم العزة بالاثم ويستعظمون أن يصرّح لهم بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم . واذا كان فى التصريح تعريض الحياة للخطر ، ففى التلميح نجاة من الضرر » .

وفى دائرة معارف تشمبرز[1] قصة اقتبسها مستر كلاوستون Clouston من مؤرخ شرقى فى عهد حاكم ظالم أصلحته مثل هذه الوسيلة والقصة هى : « يحكى أن وزيرا عاقلا لبقا قص على مولاه - قال - إن بومة كانت فى البصرة وأخرى فى الموصل ، ورغبت الأولى منهما أن تزوج ابنها من بنت الثانية فأجابتها بومة الموصل بالموافقة، وشرطت أن يكون المهر مائة قرية خراب . فأجابتها بومة البصرة : لاأستطيع أن أفعل ذلك الآن . فاذا أبقى الله السلطان عاما آخر قدمت لك هذا المهر » .

فلما سمع السلطان هذه القصة تأثر بها أشد التأثر ، وأمر فى الحال أن تعمر كل القرى والمدن الخراب، ودرس حالة بلاده ليرفع مستوى الحياة عند الشعب ، وليجعل حكمه سهلا مرضيا .

ونرى من كل ما تقدم من الأقوال أن هؤلاء ينسبون نشأة القصص الحيوانية ذات المغزى ، أو شيوعها ، الى ظلم الطغاة واخفاء الحقيقة عنهم فى صورة الرمز وتقديم النصيحة اليهم مقنعة . وأن أهم من تنسب اليهم الخرافات كانوا من العبيد . فهم أولى الناس بالخوف من سادتهم وليس لهم من يحميهم . لهذا آثروا هذا الشكل من الموعظة .

والحق أن رق هؤلاء المؤلفين محض صدفة . وأن أولئك الطغاة الذين

---

(١) مادة Fable .

www.ibtesamh.com/vb

يراد إخفاء الحقيقة عنهم إما أن يكونوا من الأذكياء — وجدير بهم أن يكونوا كذلك — فلا تخفى عليهم أغراض المؤلفين . وإما أن يكونوا على درجة من السذاجة والغفلة والغباوة تمنعهم من فهم ما يريده أولئك المؤلفون، وحينئذ لا تتحقق الفائدة التى يريدها الحكماء ، رمزا أو تصريحا .

ثم ان هناك من القصص الحيوانية ما لا صلة له بالملوك ولا بسياسة الحكم ولا بنقد ذوى السلطان . وهذه لا تحتاج إلى عصور ظلم تنشأ فيها .

ولكن يظهر أيضا من تاريخ هذه القصص ومن مؤلفيها ومن أنواعها عامة انها توضع اما للتسلية، وذلك فى بعض القصص والأساطير التى لا مغزى لها، واما أن تكون شكلا جميلا من أشكال الأدب يراد به التنويع فى تقديم الدروس الأخلاقية، ويقصد به البعد عن جفاف الموعظة الصريحة، وتقديمها فى ثوب لطيف تراح إليه النفس ، وتتقبله بقبول حسن .

وقد قال «أوبرتان» فى ذلك: «ومن يدعى أن الخرافة قد أنشأها مؤلفون من العبيد يكرهون سادتهم، أو من المحكومين الخاضعين الذين يرغبون فى وعظ الطغاة بما يثقل على نفوسهم ؛ انما يضيق ميدانها الفسيح ، ويحصر عمل الخيال الانسانى فى دائرة ضيقة » وهذا أيضا يتعارض مع نشأتها وتنوعها .

ولو صح ماجاء فى مقدمة كليلة ودمنة منسوبا الى دبشليم ملك الهند لكان حجة على من يقولون إن الرمز يراد به نصح المستبدين خوفا من بطشهم . فقد جاء فى هذه المقدمة [1] أن دبشليم قال لبيدبا : « وقد أحببت أن تضع لى كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته [2] .

ثم قال له عن الكتاب « وليكن مشتملا على الجد والهزل ، واللهو والحكمة والفلسفة » .

---

(١) طبعة سنة ١٩٣١ — ص ٣٦ كليلة ودمنه (٢) ص ٣٧

www.ibtesamh.com/vb

وقال ابن المقفع فى باب عرض الكتاب كلاما فى اختيار هذا النوع من التأليف ختمه بقوله: (١) .

« ينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ماقصدالى وضعه على السنة البهائم غير الناطقة؛ ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبان فتستمال به قلوبهم . لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان. والثانى اظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون انسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة فى تلك الصورة . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل ، فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

وهذه النصوص من « أوبرتان » ومن ابن المقفع صريحة فى أن قصص الحيوان الخلقية لم تنشأ فى عهود الظلم والاستبداد فقط، وأنها لاترتبط بالعبيد إلا بمحض الصدفة ، وان دبشليم ـ الطاغية المستبد أولا ـ هو الذى طلب من بيدبا قصصا ، يكون ظاهرها سياسة العامة وتأديبها الخ . وأن ابن المقفع حينما أشار الى الغرض من الكتاب لخصه فى أربعة أشياء . أولها يتعلق باستمالة قلوب أهل الهزل من الشبان ، والثانى تسلية الملوك لكونه على هذه الصورة، والثالث يتعلق بالكتاب نفسه ، وهو التوصل بهذه الوسيلة إلى ذيوعه وخلوده . والغرض الرابع ، الذى يستدل به بعض القائلين بذلك الرأى ، ليس صريحا فى الدلالة على رأيهم؛ فهو غامض ، وقد فهموا منه أن الفيلسوف يفعل ذلك لينجو من الشر بهذه الطريقة الرمزية . وقد أشرت الى ضعف هذا الرأى . اذا أخذ على عمومه (٢) .

---

(١) ص ٧٣

(٢) أشار إلى مرماه ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٩ مع شىء من الشك والحذر

www.ibtesamh.com/vb

لكن هناك بعض الحق فى هذا الرأى، فان القصص الرمزية قد تكون احتيالا على قانون العقوبات مثلا ، وقد تكون وسيلة لطيفة لاستمالة قلوب الملوك ؛ أو لعلها، بما فيها من سخرية وتهكم ، وبما فيها من معنى المقارنة بين الإنسان والحيوان ، قد تخيف أولئك الملوك من هذه السخرية ، وتحملهم على الترفع عن الظلم كى لايكونوا أقل من الحيوان .

وننتقل الى الكلام عن قصص الحيوان عند العرب مبتدئين بخلاصة لبيان صلتهم به وعقائدهم فيه .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الخامس

صلة العرب بالحيوان وعقيدتهم فيه

رأينا فيما تقدم أن بعض الناس عبدوا الحيوان لذاته ،أو لأن روح الاله حلت فيه ، أو لأنه أبوهم الذى ولدهم . ورأيناهم أيضا يعتقدون أن الأرواح تنتقل بين الناس والحيوان ، وأن هذه الارواح قد تكون فى شكل حيوان أيضا .

واذا أردنا أن نطبق هذه العقائد السابقة على العرب فى جزيرتهم لم نجد هناك دليلا على عبادتهم للحيوان ، ولاأنهم آمنوا بالتناسخ أو قالوا بالطوطمية . وأظهر ماجاءنا عن معتقداتهم انهم قدسوا الحيوان فى ظروف معينة، وأكبروه لبعض الصفات ، وظهرت آثار هذا الاكبار والتقديس فى تحريمه فى هذه الظروف وفى تقديمه قربانا لبعض الآلهة .

إنهم حرموا ركوب الناقة وحلبها إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر وشقوا أذنها ، وسموها البحيرة

وكان الرجل منهم يقول — ان شفيت فناقتى سائبة، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها .

واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ،وأن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم،وإن ولدتهما معا قالوا وصلت أخاها فلا يذبح ، وتلك هى الوصيلة .

وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى ، وقالوا قد حمى ظهره ، وسموه الحامى (١)

---

(١) تفسير البيضاوى . سورة المائدة آية ١٠٣ فى تفسير : « ماجعل الله من بحيرة ... الخ »

www.ibtesamh.com/vb

فقال تعالى يبطل هذه الأعمال وينفى نسبتها إليه .

« ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » .

وقد جاء فى كتب التفسير الأخرى شروح متعددة لهذه الكلمات ، ولكنها لاتخرج فى غايتها عن أن تكون تحريما لبعض الحيوان لصفات خاصة فيه وفى ظروف معينة . وروى الألوسى صاحب بلوغ الأرب بعض هذه الشروح وقال[1] . « وقد نسبت هذه المذاهب إلى رجل من العرب يسمى عمرو بن لحى الخزاعى ، وأنه حمل العرب على التدين بها فى جملة ما أحدث من المنكرات التى لم يكونوا يعلمونها من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وقد أبطلت الشريعة الإسلامية هذه المذاهب » .

ونسبة هذا كله إلى رجل واحد فى تلك البلاد المتباعدة الأطراف الصعبة الطرق ، نسبة مشكوك فيها ، وربما كان ابن لحى هذا صاحب عمل من هذه الأعمال ، ثم نشأ غيره يشبهه بعد زمن ، أو فى مكان غير المكان ، ثم نسبت كلها اليه .

وعدم اتفاق المفسرين على مدلول هذه الكلمات يدل على أنها ظهرت بأشكال مختلفة ، فى أماكن مختلفة ، أو أزمنة مختلفة . والقرآن قد حرم مدلول الكلمات بأى شكل من أشكاله ، وجاء المفسرون فاستقوا معانى هذه الكلمات من مصادر مختلفة فتعددت الشروح من أجل ذلك .

وقد ورد فى سورة الانعام أنهم كانوا يجعلون لله نصيبا ، ولآلهتهم نصيبا فينفقون الأول على الاضياف والمساكين والثانى ينفقونه ويذبحونه عند آلهتهم . وقد يكون ماعينوه لله خيرا وأزكى ، فيجعلونه لشركائهم ولا يفعلون العكس . فقال تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا

---

(١) ج ٣ ص ٣٦ بلوغ الأرب

www.ibtesamh.com/vb

فقالوا هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون[1] » ، وأحلوا بعض الانعام والحرث وحرموا بعضها «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء » . يعنون خدم الاوثان والرجال دون النساء « بزعمهم » . من غير حجة . « وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء » . يكون شركة بين الذكور والاناث « سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » ونبه في سورة النحل على أن هذا وغيره من التحليل والتحريم كان من عندهم ، وأنه كذب ، فقال تعالى «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون »[2]

وهناك أشياء أخرى حرموها لم ترد في القرآن صريحة . ومن ذلك الفرع وهو أول نتاج الابل والغنم : كان أهل الجاهلية يذبحونه لاصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر . ومنها العتيرة[3] : وهي ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب ، يتقربون بها لأصنامهم ، وهي الرجبية ، ويصب دمها على رأس الصنم . ومنها ذبح الظبي : وكان الرجل ينذر إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغا ذبح عنها . فاذا بلغت ما أراد ضن بها ، واصطاد ظبيا فذبحه وفاء للنذر . ومنها حبس البلايا : كانوا اذا مات الرجل يشدون ناقته الى قبره ، ويعكسون رأسها بولية وهي البرذعة ، فان أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى .

---

(١) تفسير البيضاوي (٢) تفسير الآية في سورة النحل

(٣) الفرع والعتيرة من بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٠ ، وما بعدها من نهاية الإرب ج ٣ ص ١٢٠ .

www.ibtesamh.com/vb

ويزعمون أنهم انما يفعلون ذلك ليركبها صاحبها فى الميعاد ليحشر عليها . وقال عويمر النهائى لابنه :

أبنىَّ لاتنسَ البلية إنها لابيك يوم نشورِهِ مَرْكوب

وليس فى هذا كله ، مايدل على عبادة الحيوان ، ولا على أنه أصل لقبيلة من القبائل أو أن روح الالهة حلت فيه .

وقد جاء فى القرآن تحريم لبعض الحيوان حيا أو ميتا . فقد حرّم صيد البر على الحرُم «وحُرم عليكم صيد البر مادمتم حُرما »[1] وحرم الاصناف المذكورة فيما يأتى « حُرّمت عليكم الميتة والدمُ ولحمُ الخنزير وماأُهلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والموقوذةُ والمتردية والنطيحةُ وما أكل السبع ، إلاماذكيتم وما ذُبح على النُّصب [2] »

وظاهر أن تحريم هذه الاشياء كان لذاتها ، أو لفساد لحمها ، أو لما فى الظروف الملابسة لذبحها من معنى الاشراك . وليس فى هذا شىء من تناسخ أو حلول أو طوطمية .

ولكن هناك ما يشبه التناسخ .

فقد روى عن الجاحظ [3] « ان الضب حرمه قوم ورأوا أن أمتين مسختا ، إحداهما فى البر وهى الضباب ، والاخرى فى البحر وهى الجرّىُّ[4] »

ورووا عن بعض الفقهاء انه « رأى رجلا أكل لحم ضب فقال : اعلم انك قد أكلت شيخا من مشيخة بنى اسرائيل » وقال بعض من يعافه : الذى « يدل على انه مسخ شبه كفه بكف الانسان »

ثم يقول الجاحظ « ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ

---

(١) آية ٩٦ صورة المائدة و (٢) آية ٣ صورة المائدة .

(٣) الحيوان ج ٦ صفحة ٢٤ طبع الساسى .

(٤) نوع من السمك .

www.ibtesamh.com/vb

إنساناخنزيرا ولا قردا، إلا أنهم أجمعوا على أن الله تعالى قد مسخ امرأة لوط حجرا حين التفتت . وتقول الأعراب أن الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابي خراج وإتاوة، إذا كانا ظالمين . وانه مسخ ماكسين أحدهما ذئبا والآخر ضبعا . وأنشد محمد بن السكن المعلم النحوى للحكم بن عمرو البهرانى فى ذلك وفى غيره شعرا عجيبا وقد ذكر فيه ضروبا كلها ظريف وكلها باطل، والاعراب تؤمن بها أجمع ، وكان الحكم هذا أتى بنى العنبر بالبادية ، على أن العنبر من بهراء ، فنفوه من البادية إلى الحاضرة ، وكان يتفقه ويفتى فتيا الاعراب ، . ثم أورد له الشعر العجيب المشار إليه وأوله :

إن ربى لما يشاء قدير ما لشيء أراده من مفسر
مسخ الماكسين ضبعا وذئبا فلهذا تناجلا أم عمرو

ويقول[1] ، فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار فى البر والبحر ، وفى أسواقهم المكس، وهى ضريبة كانت تؤخذ منهم، وكانوا يضمنونهم فى ذلك،

ثم يعلق على ذلك بقوله ، والأعراب تزعم أن الله تعالى لم يدع ماكسا إلا أنزل به بلية ، وانه مسخ منهم اثنين ضبعا وذئبا فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا ، وإن اختلفا فى سوى ذلك ، ومن ولدهما السمع والعسبار ، وإنما اختلفا لأن الأم ربما كانت ضبعا والأب ذئبا، وربما كانت الأم ذئبة والأب ذيخا ، والذيخ ذكر الضباع .

ومما أورده الحكم البهرانى قوله . —

مسخ الضب فى الجدالة[2] قدما وسهيلٌ السماء عمدا بصقر

فانهم يزعمون أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله أحدهما

---

(١) ج ٦ ص ٤٤
(٢) الجدالة.

www.ibtesamh.com/vb

فى الأرض والآخر فى السماء . ومنهم من يزعم أن سهيلا والزهرة والضب والذئب والضبع [١] كلها مسوخ .

وظاهر أن قول « بعض الفقهاء » السابق تهكم ممن أكل لحم الضب . وظاهر أيضا أنه تهكم بفكرة شائعة عن الضب وهى أنه مسخ إنسان . وقوله للرجل : « اعلم انك أكلت شيخا من مشيخة بنى اسرائيل » فيه إشارة إلى أن الفكرة يهودية .

وقول الجاحظ : « ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ إنسانا خنزيرا ولا قردا » دليل على أن فكرة المسخ هذه منقولة إلى العرب [٢] .

أما مسخ الماكسين ضبعا وذئبا ، فليس عقيدة ، ولكنه نوع من التشهير بجباة الضرائب ، لما يراه الناس فيهم من ظلم أحيانا ، ومن أن عملهم ثقيل على أصحاب الأموال أيضا . وكذلك القول فى نجوم السماء [٣] .

فليست هذه عقيدة عند العرب ولا مذهبا من مذاهبهم كما تراها عند الهنود : فإنها فكرة عامة شائعة فى البوذية تجرى على جميع الخاطئين ، لا على جباة الضرائب فقط .

تشكل الجن بأشكال الحيوان .

ويروى الأعراب قصصا عن تشكل الجن بأشكال الحيوان ، واتخاذ الجن من الحيوان مطايا . ولهم فى صلتهم بالجن أخبار كثيرة ، تروى منها قصة لها علاقة بموضوعنا من الناحية الأدبية وناحية الغاية التى نقصد اليها . تلك هى قصة عبيد بن الأبرص مع الثعبان :

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٦١ — الحيوان ج ٦ ص ٦١

(٢) انظر قول الله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير » من آية ٦٠ سورة المائدة ، وتعليق المفسرين يشير إلى أنه كان هناك مسخ لليهود من أصحاب السبت أو غيرهم

(٣) انظر الحيوان ج ٤ ص ٦٩ تحقيق هارون

www.ibtesamh.com/vb

فقد جاء فى مقدمة جمهرة أشعار العرب عن عبيد[1]، أنه خرج يوما فى ركب، فبينما هم يسيرون إذا بشجاع احترق جنباه من الرمضاء، فقال له بعض أصحابه : دونك الشجاع ياعبيد فاقتله ! قال عبيد - هو إلى غير القتل أحوج. فأخذ إداوة من ماء فصبها عليه ، فانساب الشجاع ودخل فى جحره . وسار القوم فقضوا حوائجهم . ثم أقبلوا حتى صاروا إلى ذلك الموضع الذى فيه الشجاع. قال فتأخر عبيد لقضاء حوائجه، فانفلت بكره فسار القوم وبقى عبيد متحيرا ، فاذا بهاتف من عدوة الوادى يقول : -

يا صاحب البكر المضل مركبه ... دونك هذا البكر منا فاركبه
ما دونه من ذى الرشاد تصحبه ... وبكرك الاخر أيضا تجنبه
حتى إذا الصبح تجلى غيهبه ... فحط عند رحله وسيبه
إذا بدا الصبح ولاح كوكبه ... وقد حمدت عند ذلك مصحبه

قال فالتفت عبيد فاذا هو ببكره وبكر إلى جنبه ، فركبه ، حتى إذا صار إلى دار قومه أرسل البكر ، وأنشأ يقول : -

ياصاحب البكر قد أنقذت من بلد ... يحار فى حافتيها المدلج السارى
هلا أبنت لنا بالحق نعرفه ... من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
ارجع حميدا فقد أبلغت مأمننا ... بوركت من ذى سنام رائح غادى

فأجاب هاتف يقول

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضا ... فى رملة ذات دكداك وأعقاد[2]
فجدت بالماء لما ضن حامله ... جودا على ولم تبخل بانجادى

---

(١) ص ٢٧ .

(٢) دكداك — رمل غليظ فيه تلبد . اعقاد جمع عقد وهو ما تعقد وتراكم من الرمل

www.ibtesamh.com/vb

هذا جزاؤك منى لا أمن به فارجع حميدا رعاك الله من غادى
الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ماأوعيت من زاد.

والقصة أسطورة لا شك فى هذا . وفى آخرها تختلط الأسطورة بالموعظة ، والرجز فيها مضطرب سقيم ، خارج على ماتألفه من قواعد اللغة خروجا واضحا . من أجل هذا شك أبو الفرج الاصفهانى (١) فيها وقال «وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه »

ومن الطبيعى أننا لا نصدق وقوع مثل هذه الحوادث على ماتروى به وتلك الأخبار أدخل فى باب الوهم منها فى باب الحقائق . وإن كنا لانتكر وجود الجن وظهورهم لبعض الناس .

والجاحظ (٢) كعادته ينكر مثل هذا ويقول عن الإعراب : « مما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ، ومد لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم ، وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز مايوجب التكذيب أو التصديق أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الاجناس قط ؛ وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ، فالرواة عندهم كلما كان الاعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر . لذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها » .

وبعد أن تحدث عن مراكب الجن من الحشرات والوحش ، وايثارها لبعض ، ونفورها من بعض ، قال (٣) « وحدثنى أبو نواس قال بكرت الى

---

(١) أغانى جـ ١٩ ص ٨٩ طبعة الساسى ترجمة عبيد .
(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٧٨ طبعة الساسى .
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ٧٤

www.ibtesamh.com/vb

المرند ومعى الوالى أطلب اعرابيا فصيحا ، فاذا فى ظل دار جعفر اعرابيٌّ لم أسمع بشيطان أقبح منه وجها ، ولا بانسان أحسن منه عقلا ، وذلك فى يوم لم أر كبرده بردا ، فقلت له : هلا قعدت فى الشمس ، فقال الخلوة أحب الى فقلت له مازحا : أرأيت القنفذ إذا امتطاه الجنى وعلا به فى الهواء هل القنفذ يحمل الجنى أم الجنى يحمل القنفذ ؟ قال هذا من تكاذيب الاعراب .

إن ماجاء من هذه القصص على ألسنة الرواة والشعراء يمثل الفكرة العامة التى كانت شائعة بين الناس عن قدرة الجن على التشكل بأشكال الحيوان واستخدامها لهذا الحيوان، ولقائها للناس، وخدمتها لهم جزاء معروفهم ، أو أصابتهم بالشر إذا أساء الناس .

ومن عقائدهم أيضا أن القتيل اذا قتل خرجت من رأسه هامة تقول : اسقونى فانى صدية . وتظل كذلك حتى يؤخذ بثأره [1] . وقال بعضهم [2] إنها النفس ، وانها طائر ينبسط فى الجسم. فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدا مستوحش ، ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور . وانها لم تزل عند ولد الميت وخلفه ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره .

وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم . ولهم فى الهامة والصدى أشعار منها قول ذى الاصبع :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى [3]

وقول توبة بن الحميّر صاحب ليلى الاخيلية :

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣١١

(٢) نقلا عن مروج الذهب للمسعودى .

(٣) الامالى ج ١ ص ٢٥٦ .

www.ibtesamh.com/vb

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت على ودونى جندل وصفائح (١)
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وقول المجنون :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الارض سبسب
لظل صدى رمسى وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويطرب (٢)

ومفهوم من أسطورة الهامة أنها نشأت لتفسير تمسكهم بالثأر ، وأخذهم به حتى ترضى هذه الهامات عن أهل الميت ، وحتى يستريح هو فى قبره . وهى تشبه فى تفسير المسعودى لها ما يشيع عند كثير من الأمم من عقائد عن النفس الإنسانية وأنها طائر أو حشرة . وإذا كانت هذه الفكرة قد أدت عند بعض الأمم إلى إنتقال الأرواح من أجسام إلى أجسام ، فانها لم تتجاوز المطالبة بالثأر عند العرب .

وهذه أسطورة تفسر خلقة بعض الحيوان .

قد جاء فى شبه السنور بالأسد (٣) أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بالفأر وشكوا ، سأل ربه الفرج . فأمره أن يأمر الأسد فيعطس . فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والانثى من المنخر الأيسر فكفاهم مؤونة الجرذان .

وقالوا أيضا إن الخنزير يشبه الفيل لمثل هذا السبب (٤) .

وأسطورة السنور تفسر سبب العداوة بينه وبين الجرذ أيضا .

والجاحظ ينكر هذا ويسخر منه كما هى عادته فى مثل هذه الأساطير ، ولكنا نقرر ما كان عند القوم من أساطير عن الحيوان تتعلق بخلقته أو

---

(١) الامالى ج ١ ص ٨٧
(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٢
(٣) حيوان ج ١ ص ١٤٦ هارون
(٤) حيوان ج ٥ ص ١٠٦ طبعة الساسى

www.ibtesamh.com/vb

بأخلاقه وإن أبى العقل الآن هذه الأساطير .

ومن أساطير العداوة بين الناس والهوام ماجاء عن الوزغ وكراهة الناس له .

« قالوا إن أباها لما صنع فى نار ابراهيم وبيت المقدس ماصنع أصمه الله وأبرصه فقيل « سام أبرص » . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أنه كان فى بيتها رمح موضوع فقيل لها ماتصنعين بهذا . فقالت أقتل به الوزغ فإن النبى صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا أطفأت عنه غير الوزغ فإنه كان ينفخ عليه النار . فأمر صلى الله عليه وسلم بقتله . وكذلك رواه الامام أحمد فى مسنده . وكذلك رووا أنه كله لما أحرق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه (١)

ومن آثار اتصال العرب بالحيوان أن ربطوا بين أحداث المستقبل والغائب، وبين ظهور الحيوان أو تعرضه لهم بشكل خاص .

ومن ذلك الزجر (٢)

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام الغيب . وقد ذكر النويرى فى نهاية الأرب (٣) كثيرا مما تدل عليه هذه الحركات والأصوات والأحوال التى تبدو من الحيوان أو الطير وما يتوقع بعدها من الحوادث كقوله :

« فإن خرجت تريد أرضا بعيدة فرأيت غرابا ينتفض فامض لحاجتك فانك تدرك أملك أن شاء الله تعالى .

---

(١) حيوان ج ٤ ص ٦٨ أصل وذيل .

(٢) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٠٧

(٣) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٣٥

www.ibtesamh.com/vb

وقد روى فى ذلك أخبار كثيرة منها مارواه الألوسى فى بلوغ الأرب (١) إذ نقل عن المدائنى « أن اعرابيا أضل ذودا له وخادما ، فخرج فى طلبهما حتى إذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مر برجل يحلب ناقة ، قال : أظنه من بنى أسد فسأله عن ضالته ، قال : أدن فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك قال فشرب ثم قال : ماسمعت حين خرجت ؟ قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديكة وثغاء الشاء . قال : ينهاك عن الغدو ثم مه ؟ قال ثم ارتفع النهار فعرض لى ذئب ، قال : كسوب ذو ظفر ، ثم مه قال ثم عرضت لى نعامة . قال : ذات ريش واسمها حسن ؛ هل تركت فى أهلك مريضا يعاد قال نعم ، قال : إرجع إلى أهلك ؛ فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم .

واستمرت هذه العقيدة عندهم إلى مابعد الإسلام وقد روى (٢) أن كثيرا تعشق امرأة من خزاعة فشبب بها فكرهت أن يفضحها كما فضح عزة فطلبت أن يبتغى لنفسه مالا ويطلبها . فطلب منها أن تحلف له ألا تتزوج حتى يعود ففعلت ، فمدح عبد الرحمن بن الأزدى وخرج اليه فلقى ظباء (٣) سوانح ، ولقى غرابا يفحص التراب بوجهه ، فتطير من ذلك ، حتى قدم على حى من لهب فقال أيكم يزجر ؟ قالوا كلنا ، فمن تريد ؟ قال أعلمكم بذلك . قالوا : ذلك المنحنى الصلب . فأتاه فقص عليه القصة فكره ذلك له ، وقال : قد ماتت أو تزوجت رجلا من بنى عمها . فقال كثير .

تيممت لهبا أبتغى العلم عندهم ... وقد رد علم العائفين إلى لهب
فيممت شيخا منهمو ذا نحالة ... بصيرا بزجر الطير منحنى الصلب

---

(١) ج ٣ ص ٣٠٩

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٤٠ و بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣١١

(٥) ليس هناك اتفاق على معنى السانح والبارح . ومن هذه المعانى : السانح مامر من اليمين إلى اليسار والبارح عكسه .

www.ibtesamh.com/vb

فقلت له : ماذا ترى فى سوانح وصوت غراب يفصص الأرض بالترب
فقال : جرى الطير السنيح بينها ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فإن لا تكن ماتت فقد حال دونها سؤال خليل باطن من بنى كعب

ثم مدح الرجل الأزدى فاصاب منه خيرا ، ثم قدم عليها فوجدها قد تزوجت رجلا من بنى عمها » .

والإسلام قد جاء بابطال مثل هذه الخرافات التى لا تعتمد على أساس من العقل أو الدين . وكان هذا جزءا من محاربته للعقائد التى لا تبنى على أساس صحيح ، فليس هناك ارتباط عقلى بين ذكر كلمة أو مرور طائر أو ظهور حيوان . وبين الحوادث التى تجرى بقدر وتدبير إلهى .

وقد روى لنا عن شعراء الجاهلية والإسلام شعر ينكر هذا الزجر وما يلحق به من الفأل والطيرة . ؟

ولقد غدت وكنت لا أغدو على واق وحاتم (١)
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وقال لبيد :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

وقد أنكر تأثيره ضابئ بن الحارث فقال

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحا ، ولا عن ريثهن يخيب

ولم يعبأ الكميت بالزجر ولا حفل به فى بائيته فقال

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أغضب

ولم تؤد هذه الأوهام عند العرب إلى قصص طويلة متعلقة بها . وما

---

(١) الواق الصرد ، وهو طائر ضخم يصطاد العصافير . الحاتم الغراب الأسود

www.ibtesamh.com/vb

رأيناه منها أبيات من الشعر مفرقة تشير إليها إشارات عابرة ، أو تفسير للكلمة باختصار فى كتب الأدب أو قواميس اللغة .

ويبدو لى أن علة ذلك كامنة فى انصراف الخيال العربى عن الجرى وراء الأوهام ، وحبك القصص التى توضع تفسيرا لها ، مع قلة هذه الأوهام قلة واضحة .

تلك عقائد العرب فى الحيوان وصلتهم الروحية به ، وهى ضعيفة لاتصل فى تقديسه إلى ماوصلت إليه الأمم الأخرى ، ولم يتعمق خيالهم فى احترام الحيون وإكباره . لهذا كانت آثارهم الادبية متجهة إلى ما أوحت به الصلة المادية بينهم وبينه . وكان منها شعر الوصف، وبابه عندهم واسع، وإنتاجهم فيه كثير ، ولكنه بعيد عن أن يكون قصصا حيوانيا بمعناه الذى تقدم .

لكن أدبهم لم يخل من قصص حيوانية كالأساطير والخرافات والمواعظ، أما قصص المعجزات فلها فصل ، وأما الأساطير والخرافات فهذا بيانها :

قصص من أساطير الحيوان عند العرب

الأسطورة كما عرفناها : قصة تفسر علاقة الناس بالآلهة أوتفسر ظاهرة من الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

ولا يهمنا النوع الأول ، أما النوع الثانى الذى يتصل بالتاريخ الطبيعى والسياسة الاجتماعية والخلقية فمنه قصص تفسر خلقة الحيوان أو تفسر أخلاقه ، وبعض ذلك أصلى عند العرب لا أعرف له مصدرا أجنبيا ، وبعضه منقول عن غيرهم .

ا) القصص التى من أصل عربى

وتكاد هذه القصص تكون متصلة كلها بأمثال ، ومن ذلك :

www.ibtesamh.com/vb

١ ـ قصة ذنب الضب .

وهى متصلة بالمثل « أرسح من ضفدع » [١]

جاء فى مجمع الأمثال للميدانى [٢] عند الكلام على هذا المثل :

« قال حمزه فى تفسيره : حديث من أحاديث الأعراب زعمت الأعراب فى خرافاتها أن الضفدع كان ذا ذنب فسلبه الضب ذنبه ، قالوا وكان سبب ذلك أن الضب خاصم الضفدع فى الظمأ . أيهما أصبر ، وكان الضب ممسوح الذنب فخرجا فى الكلأ ، فناداه الضفدع :

ياضب وردآ وردا

فقال الضب

أصبح قلبى صرداً لا يشتهى أن يردا إلا عرادا عردا
وصليانآ بردا وعنكثا ملتبدا [٣]

فلما كان فى اليوم الثانى ناداه

ياضب وردا وردا

فقال الضب « أصبح قلبى صردا » الخ

---

(١) فى الحيوان ج ٥ ص ١٥٣ « أرشح » بالشين المعجمة ، وكذلك فى بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٢١ . والرسح بفتح السين قلة لحم الفخذين . والرشح بسكون الشين العرق ، وهما من صفات الضفدع . وقد وردت هذه القصة فى شرح شواهد الكشاف ص ٤٢ مع اختلاف قليل ، وشرح للكلمات الصعبة .

(٢) ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) صردا بكسر الراء ، قويا على البرد — العراد ، الغليظ العاسى من النبات العرد بكسر الراء ، الصلب المنكث والصليان ، نوعان من النبات ، البرد ، البارد الملتبد ، المجتمع بعضه فوق بعض .

www.ibtesamh.com/vb

فلما كان فى اليوم الثالث نادى الضفدع :

ياضب وردا وردا

فلما لم يجبه بادر إلى الماء ، فتبعه الضب فأخذ ذنبه .

وهذه القصة تفسير لتلاشى ذنب الضفدع ، بعد أن كان له ذنب طويل فى طوره الأول وهو «أبو ذنيبه» ، أما الضب فمشهور بطول ذيله وتعقده ، ومشهور باحتماله الحر والظمأ . وقد أشارت هذه القصة إلى سبب طول ذيله وقدرته على احتمال العطش فقط .

٢) قصة أذن النعامة [١]

تزعم الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فرجعت مقطوعة الأذنين فلذلك يسمون ذكر النعام — الظليم — ويصفونه بذلك . وقد ذكر أبو العيال [٢] الهذلى ذلك فقال . —

وإخال أن أخاكم وعتابه ... إذ جاءكم بتعطف وسكون

يمسى إذا يمسى ببطن جائع ... صفر ووجه ساهم مدهون [٣]

فغدا يمث ولا يرى فى بطنه ... مثقال حبة خردل موزون [٤]

أو كالنعامة إذ غدت من بيتها ... ليصاغ قرناها بغير أذين [٥]

فاجتثت الأذنان منها فانثنت ... صلماء ليست من ذوات قرون [٦]

---

(١) ج ١ ص ٢٢٣ الحيوان للجاحظ

(٢) أبو العيال شاعر مخضرم عاش حتى خلافة معاوية

(٣) ساهم «ضامر مهزول — مدهون دهن وجهه ليرى الناس انه مخضب وليخدعهم عن سهومه وتغيره .

(٤) يمث «يرى على سحنته ووجهه مثل الدهن

(٥) اذين «من غير أن يؤذن لها

(٦) صلماء «مقطوعة الاذن» .

www.ibtesamh.com/vb

وقد روى الميدانى أيضا قصتها عندما أورد المثل « كطالب القرن جدعت أذنه »[1] يقول : « العرب تقول ذهب النعام يطلب قرنا فجدعت أذنه . ولذلك يقال له مصلم الأذنين ، وفيه يقول الشاعر .

مثل النعامة كانت — وهى سائمة — أذناء حتى زهاها الحين والجبن(٢)
جاءت لتشرى قرنا أو تعوضه — والدهر فيه رباح البيع والغبن
فقيل أذناك ظلم ، ثم اصطلمت — الى الصماخ فلا قرن ولا اذن .

ويقال : طالب القرن الحمار ، قال الشاعر .

كمثل حمار كان للقرن طالبا — فآب بلا أذن وليس له قرن

يضرب فى طلب الأمر يؤدى صاحبه إلى تلف النفس .

وقد وردت هذه القصة فى شعر لبشار أيضا . روى الأصفهانى(٣) قال: قال بشار : دعانى عقبة بن سلم ، ودعا بحماد عجرد وأعشى بأهله . فلما اجتمعنا عنده قال لنا : إنه خطر لى البارحة مثل يتمثله الناس « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين » . فأخرجوه من الشعر ، ومن أخرجه فله خمسة آلاف درهم ، وان لم تفعلوا جلدتكم كلكم خمسمائة . فقال حماد : أجلنا — أعز الله الأمير — شهرا . وقال الأعشى أجلنا أسبوعين ، وبشار ساكت لا يتكلم . فقال له عقبة : مالك يا أعمى لا تتكلم ، أعمى الله قلبك ! فقال أصلح الله الأمير قد حضرنى شىء فان أمرت قلته فقال ، قل . فقال :

شط بسلمى عاجل البين — وجاورت أسد بنى القين
ورنت النفس لهـا رنة — كادت لها تنشق نصفين

---

(١) ج ٢ ص ٥٧

(٢) الحين ضخامة البطن

(٣) الاغانى ج ٣ ص ٥ — ٢ طبعة دار الكتب .

www.ibtesamh.com/vb

يابنة من لا أشتهى ذكره أخشى عليه علق الشين
والله لو ألقاك لا أتقى عينا لقبلتك ألفين
طالبتها دينى فراغت به وعلقت قلبى مع الدين
فصرت كالعير غدا طالبا قرنا فلم يرجع بأذنين

قال فانصرف بشار بالجائزة

والمثل كما رواه الميدانى عام ليس فيه تعيين للحيوان وإن عينه الشعر الذى جاء بعد ذلك . وأما المثل كما جاء فى الأغانى على لسان عقبة بن سلم فهو واضح الخطأ ، فالحمار يتمتع بآذان قل أن تطاولها آذان ، حتى صارت كناية عنه ، فقالوا طويل الآذان . وضرب بها المثل فى الطول أيضا . وقد شارك بشارا فى هذا الخطأ فى شعره الذى تقدم قول بعضهم (١)

ذهب الحمار ليستفيد لنفسه قرنا فآب وماله أذنان

وقد روى الاستاذ احمد بك امين بيتى بشار الأخيرين كما يأتى . —

طالبتها قلبى فراغت به وأمسكت قلبى مع الدين
فكنت كالهقل غدا يبتغى قرنا فلم يرجع بأذنين

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظليم (٢) .

ولا أستطيع تحليل هذا الخطأ فى رواية المثل فى بعض أقوال الميدانى ولا فى شعر بشار المنقول عن الأغانى . وقد رأيت لهذا المثل توضيحا يستقيم

---

(١) معاهد التنصيص ج ١ ص ٢ - ١

(٢) فجر الاسلام ص ٧٩ - الهقل - الفتى من النعام . وفى محاضرات الراغب الاصفهانى الهيق . حيوان ج ٤ ص ٣٢٣ تحقيق هارون

www.ibtesamh.com/vb

به المعنى ، على أن الحمار هو صاحب القصـــة . فقد جاء فى كتاب « أنوار سهيلى (١) بالانجليزية ماترجمته :

« أن حمارا بلا ذيل كان دائم الحزن على حظه الذى حرمه الذيل . فخرج ، « يبحث عن ذيل ولم يكل ، لـكنه أخذ طريقه فجأة وبلا تدبير ، إلى حقل قمح ، « ناضج السنابل ، فلمحه الزارع من أحد جوانب الحقل ، فوثب إليه فصلم أذنيه ، « بلا رحمة ، وأصبح هذا الحمار المسكين ، الذى خرج يطلب ذيلا ، بلا أذنين . » ثم يذكر المغزى فيقول . —

« وأولئك الذين يعتدون مثل هذا الاعتداء ، سيـكون جزاءهم مثل هذا الجزاء » .

ولـكن كتاب « أنوار سهيلى » لمؤلفه « حسين واعظ الكاشفى » متأخر عن ذلك بقرون (٢) . ولعله أدرك هذا الخطأ فى إيراد المثل وقصته فعدل القصة ، وإن كان تعديله لا يستقيم مع الغاية التى أشرنا إليها فى أول الأمر : وهى إيراد تفسير لخلقة الحيـــوان على صورة مخصوصة ملازمة . وليست قصة أنوار سهيلى مما نحن بصدده ؛ إذ أنها خرافة لا أسطورة والمغـــزى فى آخرها .

٣) وقنزعة الهدهد

وهى الشعر المجتمع على رأسه ، لها قصة أيضا .

يقولون إنه لما ماتت أمه أراد أن يبرها ، فجعلها على رأسه يطلب لها موضعا فبقيت على رأسه . فالقنزعة هى قبرها وإنما أنتنت ريحها لذلك .

---

(١) ترجمة المستشرق الانجليزى Eastwick من المستشرقين فى القرن الماضى وقد أوردها شعرا ص ١٩٣ ، والكتاب مطبوع فى لندن

(٢) حوالى سنة ٩٠٠ هـ

www.ibtesamh.com/vb

ويقول الجاحظ (١) إن « الهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته ، وينقل عن صاحب المنطق أن نتنه يأتى اليه من أنه يبنى بيته من الزبل ، ويطول مكنه فيه ويفعل ذلك هو وأولاده حتى يصبح النتن طبيعة فيها » ، ولكن الجاحظ لا يرضى هذا الرأى (٢) فيقول :

« وأما الاعراب فيجعلون ذلك النتن شيئا خامره بسبب تلك الجيفة التى كانت مدفونة فى رأسه، وقد قال فى ذلك أمية أوغيره من شعرائهم » ، وجاء بقصيدة له، قال فيها عن الهدهد .

يبغى القرار لأمة ليجنها ... فبنى عليها فى قفاه يمهد
مهدا وطيئا فاستقل بحمله ... فى الطير يحملها ولا يتأود (٣)
فتراه يدلح (٤) ماشى بجنازة ... فيها، وما اختلف الجديد المسند (٥)

ولا أدرى كيف صار ذلك التاج الجميل على رأس الهدهد بهذه الصفة وفسر هذا التفسير ! ولو أنهم جعلوا هذا التاج محفة أو هودجا حملها فيه لكان أولى وأليق بجماله ، لكنهم نظروا إلى القنزعة من ناحية أخرى فاقتربوا منها وشموها ، ثم فسروها هذا التفسير

ويورد الجاحظ زعما آخر فيقول « وأما القول فى الهدهد فان العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التى على رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة »

---

(١) ج ٣ ص ٥١٠ (٢) ج ٣ ص ٥١٤
(٣) يتعطف ويتلو
(٤) يمشى بحمله مثقلا
(٥) الدهر

www.ibtesamh.com/vb

ب ـ القصص المنقولة

أما ما نقلوه من قصص أسطورية فيدور حول تفسير أخلاق الحيوان أوخلقته، وهو يودى الصبغة ، ومنه :

١ ـ قصة الحمامة والغراب فى سفينة نوح :

أما الغراب فيضربون به المثل فى البطء . وهم يقصدون غراب نوح، وجاء فى تفسير ذلك أن نوحا صلى الله عليه وسلم بعثه لينظر هل غرقت البلاد، وتأتيه بالخبر . فوجد جيفه فوقع عليها ، فلذلك لا يألف الناس. ويضرب به المثل فى الإبطاء (١)

ثم بعث الحمامة لتنتظر هل ترى فى الأرض موضعا يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها ، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة ،بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت اليه ومعها من الكرم مامعها ، وفى رجليها من الطين والحمأة ما برجليها ، فعوضت من ذلك الطين خضاب الرجلين ، ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق (٢)

ومن الذين نقلوا بعض هذه الأساطير إلى العربية رجل معروف بعلمه ببعض أساطير اليهود وبعلم شيء من الديانة اليهودية، وهو أميه بن ابى الصلت الثقفى .. وقد نقل الجاحظ عنه (٣) شعرا فى هذه الأسطورة قال : ـ

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى فى الأرض عينا ... وغايته من الماء العباب

---

(١) ج ١ ص ٧٩ أمثال الميدانى

(٢) حيوان ج ٣ ص ١١٥ و ج ٢ ص ٣٢١

(٣) حيوان ج ٢ ص ٣١٢ تحقيق هارون ـ وأصل القصة فى سفر التكوين اصحاح ٨ من آية ٦ — ١٢

www.ibtesamh.com/vb

فجاءت بعد ما ركضت بقطف عليه الثأط والطين الكباب (١)
فلما فرسوا الآيات صاغوا لها طوقا كما عقد السخاب (٢)
إذا ماتت تورثه بنيها وإن تقتل فليس لها استلاب

ويلحق بهذه القصة أسطورة أراها تفسيرا لصوت الحمام «الهديل» . وهو ما تعلمه من رقة يشوبها الحزن ، ورخامة يلونها البكاء . جاء فى تعليله أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام ، فصاده جارح من الطير فليس من حمامة إلا وتبكى عليه إلى يوم القيامة (٣) .

ويقول نصيب :

فقلت أتبكى ذات طوق تذكرت هديلا ، وقد أودى وما كان تبع !

فالأسطورة وضعت لتفسير رقة الصوت ، وحزن نغماته .

٢ حبس الديك

ومن القصص التى نقلوها تفسيرا لمعاملة بعض الحيوان — وهى أسطورة قصصية — ما جاء فى سبب حبس الناس للديك . قال الجاحظ (٤) :

« وفى كثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ، ورهن الديك ، فخاس به ، فبقى محبوسا » .

وظاهر قول الجاحظ أنها عربية « من أحاديث العرب » . ولكنه ينقل بعد ذلك شعرا لأمية بن أبى الصلت فى حبس الديك من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن هذه الأسطورة وعن طوق الحمامة . فقد قال الديك للغراب

---

(١) الثأط الطين الأسود المنتن الكتاب اللازب .
(٢) السخاب القلادة .
(٣) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٦٤
(٤) الحيوان ج ٢ ص ٣٢٠

www.ibtesamh.com/vb

لما يتركه وذهب ليأتى بالثمن :

أمنتكَ لا تلبث من الدهر ساعةً ... ولا نصفها حتى تئوب مآبيا
ولا تدركنكَ الشمس عند طلوعها ... فأغلقَ فيهم أو يطول ثوائيا (١)
فرد الغراب والرداء يجوزه ... فلا تدعونى مرة من ورائيا
فلا تيأسنْ إنى مع الصبح باكر ... أوافى غدا نحو الحجيج الغوادِيا
لحبّ امرىء فاكهته قبلَ حجتى ... وآثرت عمداً شأنه قبل شانيا
هنا لكَ ظنّ الديك إذ زال زوله ... وطال عليه الليل ألا مفاديا
فلما أضاء الصبح طرّب صرخةً ... ألا ياغراب هل سمعت ندائيا

وأمسى الغراب يضرب الأرض كلها ... عتيقا وأضحى الديك فى القدعاتيا (٢)
فذلك مما أسهب الخمر له ... ونادم ندمانا من الطير غاديا

وهذه الأسطورة خرافة أيضا . أما الناحية الأسطورية فيها فظاهرة فى تعليل صياح الديك عند مطلع الفجر . فالأسطورة تقول إنه فعل ذلك مناديا الغراب لما غاب عنه وتأخر عن العودة إليه ، وأنه رهين الحبس فى أكثر حالاته . وأما أنها خرافة فللبيت الأخير الذى يتضمن المغزى .

ويبدو من سياق القصة أنها ملحقة بقصة طوق الحمامة فى شعر أمية . وأمية كان مطلعا على ماعند اليهود والنصارى من كتب دينية وما فيها من عقائد وأساطير وكان يفعل ذلك ليرشح نفسه للنبوة التى كان يدرك قرب زمانها (٣) فهى يهودية .

ويعلق المرحوم مصطفى صادق الرافعى (٤) على هذه القصص « الديك

---

(١) من غلق الرهن إذا لم يفك وآل إلى المرتهن
(٢) السير من الجلد
(٣) حيوان ج ٢ ص ٣٢٠
(٤) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٥٤

www.ibtesamh.com/vb

والغراب وطوق الحمامة » فيقول : ولكن نظم أمية فى هذه المعانى لا يرمى إلى شىء غير معنى القصص، كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلا على علمه وترشحه للأمر الذى يرشح له نفسه كما سبق » . ولكنى بينت أن قصة الديك والغراب قد تكون خرافة لا شتمالها على المغزى الخلق

وقد رأينا فى شعر أمية بن أبى الصلت مغزى خلقيا فى نهاية هذه الأسطورة ، فكانت دليلا على أن الأسطورة يمكن أن تشتمل على المغزى أيضا كما تشتمل عليه الخرافة .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الفصل السادس

قصص الحيوان فى القرآن الكريم وعند المفسرين

جاء فى القرآن الكريم كثير من الآيات عن الحيوان بعضها لبيان منافعه (١) وبعضها لبيان العبرة فيه (٢) وبعضها يضرب به المثل (٣) وبعضها أحكام تتعلق بالحيوان (٤) وبعضها لابطال عقائد وعادات قديمة تتعلق بالحيوان لايقرها الاسلام (٥) وجاء بعضها بيانا لمعجزات بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام (٦) .

وزاد المفسرون عليها أحيانا ، وهذا أهمها :

١ — بقرة بنى إسرائيل .

قصة البقرة وردت فى السورة المسماة باسمها وتلك هى الآيات « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا . قال

---

(١) كقوله تعالى فى سورة النحل « والأنعام خلقها » الى قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » من آية ٤ الى آية ٨ . وكثير غيرها

(٢) كما ورد فى سورة النحل والمؤمنون « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » وآيات أخرى

(٣) كما جاء فى سورة الجمعة « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » وغيرها .

(٤) كآيات المائدة فى تحريم بعضه وإحلال الطيبات منه .

(٥) كآية المائدة : « ما جعل الله من بحيرة » إلى آخرها . وآيات الأنعام .

(٦) ومعجزات الرسل عليهم السلام ونحوها كناقة صالح . وانقلاب العصا حية لموسى وتسخير الطير لسليمان وعلمه بمنطقه وخدمته له . وبقرة بنى إسرائيل

www.ibtesamh.com/vb

أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى . قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ، تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ، إن البقر تشابه علينا . وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها ؛ كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » . آيات (٦٧ — ٧٤) .

والقصة بين موسى وقومه . ولكن البقرة تحتل أظهر مكان فيها ، فقد كانت مثار استنكار اليهود عندما أمرهم بذبحها . وظنوه يهزأ بهم . فلما رأوا الجد فى قوله طلبوا منه ملحين أن يبين لهم حالها وصفتها ، فقال عن ربه : « إنها بقرة لافارض ولا بكر ، وأمرهم أن يفعلوا ما أمروا به ؛ فسألوا عن اللون ، فأخبرهم به . ثم كرروا السؤال الأول وطلبوا أن يبين الله لهم «ماهى» فقال لهم إنها بقرة غير ذلول ، لاتعمل فى إثارة الأرض ولا سقيها ، وأنها خالية من العيوب ، ومن أى علامة فى جلدها ؛ « قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » . والآيتان بعد ذلك (٧٢ و ٧٣) تبينان سبب ذبح البقرة والغاية من هذا الذبح .

وقد تكفل التفسير ببيان ذلك كله جاء فى تفسير البيضاوى بعد الآيات الأولى : أول هذه القصة قوله تعالى « وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها » ، وإنما فكت عنه — أى فكت القصة عن أولها — وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالأمر ، والاستقصاء فى السؤال . وترك المسارعة إلى الامتثال » .

www.ibtesamh.com/vb

وأما القصة فهى : « أنه كان فيهم شيخ موسر ، فقتل ابنه بنو أخيه طمعا فى ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ؛ فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله ؛ فأكثروا من السؤال عن البقرة ، حتى إذا حصلوا على البقرة المنعوتة ذبحوها ، وما كادوا يفعلون ؛ لتطويلهم ، وكثرة مراجعاتهم ، أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها » . : « روى أن شيخا صالحا منهم كان له عجلة ، فأتى بها الغيضة وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر . فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات ، فساوموها من اليتيم وأمه ، حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير . فلما انتهت سؤالاتهم ، وانقطعت تعللاتهم ، ذبحوها وضربوه ببعضها ، أى بعض كان ؛ وقيل بأصغريها ، وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها اليمنى ، وقيل بالأذن ، وقيل بالعجب ، فحيى وأخبرهم بقاتله.

وزاد البيضاوى عند التفسير (١) فقال : « ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء ، وشرط فيه ماشرط ، لما فيه من معنى التقرب وأداء الواجب ، ونفع اليتيم ، والتنبيه على بركة التوكل ، والشفقة على الأولاد ، وإن من حق الطالب أن يقدم قربة . والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالى بثمنه ..... وأن المؤثر فى الحقيقة هو الله تعالى ، والأسباب أمارات لا أثر لها ، وإن من أراد أن يعرف أعدى عدوه ، الساعى فى إماتته الموت الحقيقى ، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه ، التى هى القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ، ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر ، غير مذللة فى طلب الدنيا ، مسلمة عن دنسها ، لاسمة بها من مقابحها ، بحيث يصل أثره إلى نفسه ، فتحيا حياة طيبة وتعرب عما به ينكشف الحال ، ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع » .

---

(١) ج ١ ص ٢٥

www.ibtesamh.com/vb

فاذا اعتبرنا هذه القصة قصة حيوانية فذلك لأهمية الحيوان فيها وأنه صاحب دور واضح فى سياقها وفى عدد آياتها وكان من مواضع العبرة والمعجزة .

٢ ـ ناقة صالح

وهذه معجزة أساسها الحيوان اختارها الله تعالى ليؤيد بها صالحا عليه السلام عندما دعا قومه إلى الله ، وذكرهم بنعمه ، وجاء بمعجزته وقال : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ؛ فعقروها ، فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا به برحمة منا ومن خزى يومئذ ؛ إن ربك هو القوى العزيز » (١)

وفى سورة الشعراء ـ قال هذه ناقة لها شرب يوم معلوم (٢) وفى سورة القمر « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » . (٣)

تلك هى معجزة صالح عليه السلام ، قص الله حديثها فى القرآن مختصرا ، لم يقصد به تفصيلا ولا تسلية ، وانما قصد به موضع العبرة التى تتجلى فى إخبار الرسول عليه السلام بما أصاب المرسلين قبله من تكذيب ، وبصبرهم على ما كذبوا ، وبعاقبة الصابرين والمكذبين . لكن قصة الناقة فى كتب التفسير قصة لطيفة ، هى أظهر جزء فى قصة صالح عليه السلام . فقد أرسل إلى ثمود بالحجر بين الحجاز والشام ، روى أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم ، وكثروا ، وعمروا أعمارا طوالا . لا تفى بها الأبنية ، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى خصب وسعه ، فعتوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأصنام ؛ فبعث الله إليهم صالحا من أشرافهم ، فأنذرهم ، فسألوه آية

---

(١) سورة هود من ٦٤ — ٦٦ (٢) ١٥٥ (٣) ٢٧

www.ibtesamh.com/vb

فقال ندعو فمن استجيب له اتبع . فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها « الكاثبة » ، وقال له : أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة على خلقة الجمل جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك . فأخذ عليهم صالح مواثيقهم . لئن فعلت ذلك لتؤمنن ؟ فقالوا نعم . فصلى ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا . وهم ينظرون . ثم نتجت ولداً مثلها فى العظم ، فآمن به جندع فى جماعة . ومنع الباقين من الايمان ذؤاب بن عمرو ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صفر كاهنهم . فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا - يوما بعد يوم - فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تنفج (١) فيحلبون ماشاءوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدخرون .

وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها انعامهم إلى بطنه . وتشتوا ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم ، وزينت عقرها لهم عنيزة أم غنم ، وصدقة بنت المختار ، فعقروها واقتسموا لحمها ، فرقى سقبها جبلا اسمه « قارة » فرغا ثلاثا ، فقال صالح لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب . فلم يقدروا عليه ؛ إذ انفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها . فقال لهم صالح : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، ثم يصبحكم العذاب . فلما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه ، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين ، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فقطعت قلوبهم فهلكوا .

هذه قصة أخرى زاد عليها المفسرون ، وكانت الناقة وابنها أوضح شىء فى هذه الزيادة . ولا أدرى مصدرها الأول . ومن المستبعد أن تكون

---

(١) تمشى مباعدة بين رجليها

www.ibtesamh.com/vb

من عمل الاسرائيلين ؛ إذ أن صالحا عليه السلام نبي عربي وليس من بني اسرائيل . ويقول « رودويل » Rodwell فى تعليقه على القصة فى سورة الأعراف: « إنه نبي عربي لم يذكر إلا فى كتاب محمد » ـ عليه الصلاة السلام .

على أن نسبته إلى اليهود أو النصارى كانت ظنا ظنه « موير » Muir وحسبه مبشرا يهوديا أو مسيحيا ـ وقيل إنه Shelah المذكور فى سفر التكوين (أصحاح ١١ آية ١٣) لأن أعماله ومخاطراته تشبه ماذكره القرآن .

وقد ظن « رودويل » أيضا أن الاسم « ربما كان مأخوذا من اسم ميتو شالح Methushaleh الذى جاء عن صلاحه كلام فى مدراش » .

تلك خلاصة ما قاله « رودويل » فى تعليقه على القصة (١) . وليس فى نفى الجنسية العربية عنه إلا شبهة جاءت من تشابه اسمه مع هذين الاسمين . لكن نسبة شيلاه إلى أرفخشاذ فى التوراة تختلف عما قاله البيضاوى فى صالح إذ قال عنه أنه صالح بن عبيد بن آسف . ومكان بعثته فى بلاد الحجر وإرساله إلى قبيلة ثمود العربية يبعد أن يكون غير عربى . وأرجح أن تكون قصة ناقته عربية مثله أيضا .

٣ ـ قصة الفيل والطير الأبابيل :

ظهر الفيل فى تاريخ العرب والإسلام . وكانت له حادثة أرخوا بها . وولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل « ٥٧١ م » . ونزلت فى أصحاب الفيل سورة من سور القرآن الكريم ، « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . »

وقصة الفيل لها أصل تاريخى ، لم يأت القرآن به ولا بتفصيلها ، واكتفى بموضع

---

(١) يرى بعض المفسرين آراء أخرى فى هذه القصة

www.ibtesamh.com/vb

العبرة ، ثم إن المشركين كانوا قريبي عهد بها ، وكان بعض من عاصرها لا يزال حيا . والحق أنها قصة لطيفة [١] كان للفيل فيها بطولة ظاهرة ، وأثر في طرافتها عظيم ، وخلاصتها : أن أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة ، بنى كنيسة في صنعاء وأنفق عليها كثيرا ، وأراد أن يصرف العرب إليها عن مكة . وقيل إن بعض العرب فعل فيها ما أغضب أبرهة فخلف ليهدمن الكعبة . فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود واثنا عشر فيلا غيره ، وقيل كان معه الف فيل . فلما بلغ « المغمس » [٢] أرسل جماعة من جيشه فساقوا إبلا فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم . ورأت قريش وكنانة وهذيل أنهم لا طاقة لهم بحرب أبرهة . وبعث أبرهة إلى سيد هذا البلد وشريفه يخبره أنه لم يأت محاربا ، وأنه جاء لهدم الكعبة . وأمر أن يحضر إليه . فانطلق عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى أبرهة ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم واعظمهم . فأجله أبرهة وأكرمه وأعظمه وقال لترجمانه قل له : ماحاجتك ؟ فقال عبد المطلب : أن ترد الإبل . فأنكر ذلك أبرهة وقال له : تكلمني في الإبل وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ! فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . فرد عليه الإبل ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة الباب :

لاهم إن المرء يمنع حله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

---

(١) الكشاف ج ٢ سورة الفيل . بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٥١
(٢) اسم مكان قريب من مكة على طريق الطائف

www.ibtesamh.com/vb

جروا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
فانصر على آل الصليـــب وعابديه اليوم آلك

وترك عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعث الجبال فتحرزوا فيها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبى جيشه وكان اسم الفيل محمودا ، فلما وجهوه إلى مكة قام إلى جانبه رجل من خثعم فأخذ بأذنه وقال له : ابرك محمود ، وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، فضربوه ليقوم فأبى ، وألحوا عليه بالضرب فلم يتجه إلى مكة ، وكلما وجهوه إلى جهة أخرى سار مسرعا .

وقد أرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس لاتصيب أحدا منهم إلا هلك . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفيز ، مخططة بحمرة كالجزع الظفارى ، فكان الحجر يسقط على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه . ففروا ، وهلكوا فى كل طريق ومنهل . وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . وانفلت وزيره أبو يكسوم ، وطائره يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشى ، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه .

وأعظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم ! وقيل فى ذلك أشعار كثيرة . فقال أمية بن أبى الصلت :

إن آيات ربنا ثاقبات لايمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

وقال أبو قيس صيفى بن الأسلت :

www.ibtesamh.com/vb

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمو منه بلاء مصدق غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهم تمشى ورجله على القاذفات فى رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب إلى أهله ملحبش غير عصائب .

والحق أن الطير الأبابيل لا تقل بطولة عن الفيل فى هذه القصة ، ولكنه استأثر بنسبة القصة إليه لضخامة جثته وعظيم مروءته ، واحتماله الأذى عندما أبى أن يتقدم إلى مكة .

٤ — النملة والهدهد .

وننتقل بعد ذلك إلى قصة حيوانين وردا فى سورة النمل فى قصة سليمان عليه السلام : أولها النملة ، وثانيهما الهدهد ، جاء عن منطق الطير والنملة والهدهد حوالى صفحة فى القرآن الكريم من الآية (١٦ إلى الآية ٢٩) فى سورة النمل ، وهى موجزة تكتفى بما يؤدى إلى الغاية . فان سليمان عليه السلام علم منطق الطير ، وقال « إن هذا لهو الفضل المبين » . ولما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والانس والطير خافت النملة أن يحطمهم هو وجنوده ، فدعت النمل أن يدخلوا مساكنهم . فتبسم سليمان عليه السلام ضاحكا من قولها وسأل ربه أن يلهمه شكر النعمة ، وأن يوفقه إلى العمل الصالح ، وأن يدخله برحمته فى عباده الصالحين

وتفقد الطير ، فلما لم ير الهدهد توعده ، إلا أن يأتيه بسلطان مبين . فجاءه بخبر ملكة سبأ وعظمتها ، وأنها تعبد الشمس من دون الله هى وقومها ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم ؛ والأجدر بهم أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . فأرسله سليمان عليه السلام بكتاب إلى ملكة سبأ ؛ قال له « اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » .

هنا يكثر التفسير من الحديث عن منطق الطير الذى علمه سليمان :

www.ibtesamh.com/vb

جاء فى الكشاف : « والذى علمه سليمان من منطق الطير هو مايفهم بعضه عن بعض من معانيه وأغراضه . ويحكى أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه : أتدرون مايقول ؟ قالوا الله ونبيه أعلم . قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : يقول : كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين . وصاح طيطوى فقال : يقول . كل حى ميت ، وكل جديد بال . وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه . وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه . وصاح قُمرى فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى . وقال: الحدأ يقول: كل شىء هالك إلا الله ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين . والنسر يقول : يا بن آدم عش ماشئت آخرك الموت . والعُقاب يقول: فى البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس .

ويلاحظ أنه قد جاء من منطق الطير فى هذه الأسطر حكم تشبه حكم سليمان ، فكأن القائلين أدركوا ماعرف به سليمان عليه السلام فأنطقوا الطير بشبيه أمثاله . وقد راعوا فى بعض هذه الأمثال أن يتفق فى صوته مع صوت الطير الذى ينطق به ، كما فى منطق الحدأة والديك ؛ وراعوا فى بعضها أن تكون حكمته من جنس ماعرف عن ذلك الطير من خصائص . فالنسر طويل الأجل يتحدث عن غاية كل حى مهما طال أجله ، والعقاب التى تتخذ مساكنها فى عالى القلل تنصح بالبعد عن الناس .

وأما النملة فلم يكثروا من القول عنها ، ويظهر أنها لم تستحق ذلك لصغرها وإليك بعض ماقيل .

جاء فى روح المعانى للألوسى(١): « وروى أن سليمان عليه السلام لما سمع

(١) ج ١٩ ص ١٧٩

www.ibtesamh.com/vb

قول النملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، إلى آخره فقال إيتونى بها فأتوا بها فقال لم حذرت النمل ظلمى؟ أما علمت أنى نبى عدل ؟ فلم قلت : لا يحطمنكم سليمان وجنوده . فقالت أما سمعت قول : « وهم لا يشعرون » . ومع ذلك إنى لم أرد حطم النفوس . وإنما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم ، فيقعوا فى كفران النعم ، فلا أقل من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح . فقال لها سليمان عظينى . فقالت أعلمت لم سمى أبوك داود ؟ قال لا. قالت لأنه داوى جراحة قلبه . وهل تدرى لم سميت سليمان ؟ قال لا . قالت لأنك سليم القلب والصدر . ثم قالت أتدرى لم سخر الله تعالى لك الريح . قال : لا . قالت أخبرك الله تعالى بذلك أن الدنيا كلها ريح ، فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح . ويعلق الألوسى على ذلك بقوله: « وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى ، وفيه ما يشبه كلام الصوفية ، والله تعالى أعلم بصحة ما روى من أنها أهدت اليه نبقة فدعا للنمل بالبركة »

أما أن هذه القصة ظاهرة الوضع فواضح من سؤال النملة له عن الأسماء، واشتقاقها من هذه الاسماء العبرية أفعالا عربية ، وصفات فيها مدح لداود عليه السلام وابنه سليمان . والقصة كلها تدل على أن ذلك من باب الصناعة اللفظية وظهر فى عصر يسود فيه البديع، فإذا ذكر داود أو سليمان أسرع الذهن إلى التعليل السابق ؛ فكأنه من عمل الصوفية أو من عمل اللغويين . ثم أن هذه التسمية تكون عند الميلاد . فكيف عرف عند مولد داود أنه سيداوى جراحة قلبه . وكيف عرف مثل ذلك عند مولد سليمان؟[1] وتعليل تسخير الريح غريب حقا .

وقد رأيت قصة النملة فى دائرة المعارف اليهودية [2] . وجاء فيها، وفى يوم

---

(١) قد يكون ذلك للتفاؤل والرجاء ولكن النملة تقول ذلك على سبيل التقرير

(٢) Solomon ج ١١ ص ٤٣٩ The gewish Ency.

www.ibtesamh.com/vb

من الأيام امتلأ سليمان عجبا بعظمته وحكمته ، وعوقب على ذلك بأن هز الريح البساط فوقع من فوقه أربعون ألف رجل ، فوبخ سليمان الريح لما فعلت ، لكن الريح وعظته قائلة : إن الملك يجب أن يعمل صالحا ويتجه إلى الله ، ويبتعد عن العجب فخجل سليمان من قولها جدا .

وفى يوم آخر كان يمر فوق واد مملوء بالنمل فسمع نملة تقول : ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم جنود سليمان . فسألها سليمان عن السبب فى قولها ، فقالت إنها خافت أن ينظر النمل إلى جنود سليمان، وقد يصرفهم ذلك عن شكر الله فيهلكهم . ثم قالت إنها ملكة النمل . لهذا أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم فأراد سليمان أن يسألها سؤالا فقالت له : لا يليق بالسائل أن يكون أعلى والمسئول أسفل ؛ فرفعها من بطن الوادى عندئذ ؛ فقالت له : ليس من اللائق أن يجلس هو على بساط وهى على الأرض . فجعلها على يده . ثم سألها: أهناك على الأرض من هو أعظم منى؟ فقالت له : إنها أعظم منه كثيرا ؛ وإلا ما أرسله الله اليها ليحملها على يده . فغضب عندئذ غضبا شديدا وألقاها قائلا : ألا تعلمين من أنا ! فأجابته : أعلم أنك مخلوق من نطفة مذرة فليس من اللائق أن تكون معجبا . فامتلأ سليمان خجلا وخر على وجهه .

ونلاحظ أن القصة المنقولة عن كتب التفسير ترفع من شأن سليمان وتتحدث عنه بما يليق برسول .

والقصة اليهودية قد جعلت النملة واعظة تهديه الى التواضع وتبعده من الكبر ، وقد أفلحت فيما أرادت . وليس هناك فرق كبير بينهما بعد ذلك.

وأما الهدهد فله عند المفسرين حديث طويل. يقول الزمخشرى[1] وذكر من قصة الهدهد أن سليمان عليه السلام حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره ، فوافى الحرم وأقام به ماشاء . وكان يقرب كل يوم طول مقامه

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٤١

www.ibtesamh.com/vb

بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغذى ويصلى ، فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه ـ القناقن البصير بالماء فى حفر القنى ـ وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة ، فيجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ، ويستخرجون الماء ؛ فتفقده لذلك » .

وحين نزل سليمان ، حلق الهدهد ، فرأى هدهدا واقعا ، فانحط اليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف ، وذهب معه لينظر ، فما رجع الا بعد العصر . وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان ، فنظر فاذا موضع الهدهد خال ، فدعا عفريت الطير وهو النسر ، فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب ، على به: فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته ، فناشدها الله ، وقال :بحق الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتني ! فتركته وقالت : ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف ليعذبنك ! قال : وما استثنى ؟ قالت بلى ، قال : أو ليأتينى بعذر مبين. فلما قرب من سليمان أرخى ذيله وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له . فما دنا منه أخذ برأسه ، فمده اليه؛فقال يانبى الله: اذكر وقوفك بين يدى الله، فارتعد سليمان وعفا عنه .

ثم أخبره الهدهد بما سمع من صاحبه،فكتب اليه سليمان عليه السلام كتابا يدعو بلقيس إلى الإسلام .

يروى أن نسخة الكتاب : من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ .

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين .

وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون .

www.ibtesamh.com/vb

وطبع الكتاب بالمسك ، وختمه بخاتمه ، فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب ؛ وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة الباب، وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية ، وقيل نقرها فانتبهت فزعة ، وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها . وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تُبع بن شراحيل الحميرى ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ماقالت .

إن القرآن خال من التفاصيل التى جاءت فى الشرح . وفيها أشياء ينكرها العقل كالمبالغة فى ملك بلقيس . ولو أحصينا جنودها لضاقت بهم جزيرة العرب جميعها (١٢٠٠٠٠٠ فى ١٠٠٠٠٠ = ١٢٠٠ مليون جندى وأين النساء والأطفال ؟ وأين طعام هؤلاء جميعا ؟ ومساكنهم ؟ الى آخره)

ويظهر أن الناحية الدينية حملت ناقلى القصة على أن يجعلوا سليمان يحج البيت الحرام .

لكنها قصة جميلة من قصص المبالغات والعجائب . ويعلق البيضاوى على ذلك فيقول « ولعل فى عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها » .

٥ ـ غراب ابنى آدم

وهذه قصة من قصص الحيران جاءها القرآن الكريم عن ابنى آدم ؛ فقد قربا قربانا فتقبل من احدهما زرعه وهو هابيل ؛ ولم يتقبل من أحدهما ضرعه وهو قابيل . فحسد أخاه وقتله « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ! فأصبح من النادمين » .

أى أنه لما قتله تحير فى أمره . ولم يدر مايصنع به إذ كان أول ميت من بنى آدم ؛ فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره

www.ibtesamh.com/vb

ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة .

وظاهر من القصة فى القرآن وفى التفسير أن الحيوان كان فيها معلما ومرشداً، وقد نقلها ابن الطفيل فى حى بن يقظان عندما عجز «حى» عن دفن الظبية واهتدى بغرابين .

٦ - حية آدم :

وتأتى قصة لم يشر إليها القرآن أية إشارة وهى قصة الحية التى قيل إن ابليس تشكل بشكلها، أو دخل فى جوفها إلى الجنة ليغوى آدم عليه السلام . وقد جاء فى كتب التفسير كثير من الأقوال يهمنا منها قصة الحية . وإليك ما يقوله محمد بن جرير الطبرى عنها (١) قال بسنده عن وهب بن منبه : -

« لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة متشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم . وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته . فلما أراد ابليس أن يستنزلها دخل فى جوف الحية، وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها ابليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته ، فجاء به إلى حواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ؛ ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ! فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فأكل منها ،فبدت لهما سوءاتهما . فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه يا آدم : أين أنت ؟ قال أنا هنا يارب . قال ألا تخرج، قال أستحيي منك يارب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكا - قال ولم يكن فى الجنة ولا فى الأرض شجر كان أفضل من الطلح والسدر - ثم قال ياحواء أنت التى غررت عبدى ؛ فانك لا تحملين

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٨٦

www.ibtesamh.com/vb

حملا إلا حملته كرها ، فإذ أردت أن تضعى مافى بطنك أشرفت على الموت مرارا . وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى جوفك حتى غر عبدى ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك فى بطنك ولا يكن لك رزق إلا التراب ، أنت عدوة بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسك .

والذى يرجع الى التوراة فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين (١) يرى أن الله خلق الحيوان وأسكنه الجنة مع آدم ، وأن آدم هو الذى سمى كل حيوان باسمه ، ثم خلق له حواء من أحد اضلاعه ، وأنه أباح له اشجار الجنة يأكل منها الا شجرة معرفة الخير والشر ، نهاه عنها . وكانت الحية أمهر الحيوان فقالت لحواء : إنك ان أكلت من شجرة المعرفة فلن تموتى ؛ والله يعلم أنك فى اليوم الذى تأكلين فيه منها تتفتح عيناك ، وتعرفين الخير والشر ، فلما رأت حواء جمال الشجرة وحسن منظرها ، وأن عاقبة الأكل منها حكمة ومعرفة ، أكلت من ثمرها ، وأعطت زوجها ، فتفتحت أعينهما وأدركا أنهما عاريان ، فخاطا بعض أوراق التين لتسترهما ، ونادى الله آدم فاستخفى منه ، واستحيا لأنه عار . فقال الله وكيف عرفت أنك عار ؟ أأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها ؟ فأجابه آدم بأن المرأة التى خلقها له هى التى أطعمته من ثمر هذه الشجرة . وقالت حواء ان الحية هى التى خدعتها حتى أكلت . فقال الله للحية : عليك اللعنة من بين البهائم والوحوش ، وقضيت عليك أن تمشى على بطنك ، وأن يكون طعامك التراب طول عمرك ؛ وسأجعل العداوة دائمة بينك وبين المرأة وبين ذريتكما ، وقضيت أن يشدخ رأسك ابن آدم وأن تلدغى عقبه ؛ وقضى على المرأة أن تكثر أحزانها وحملها وان تضع حملها فى ألم ، وأن يكون الرجل سيدا عليها .

---

(١) من ١ - ١٩ .

www.ibtesamh.com/vb

وقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية (١) « ان الشيطان أراد بآدم الشر واختار الحية أداة له ؛ لا لأنها أمهر الحيوانات فقط بل لأنها شبيهة جدا بالإنسان . وكان لها يدان ورجلان مثله » . ولما اقنع الحية بالدخول فى جوفها وأغرى آدم وحواء « عوقبت الحية بأن فقدت يديها ورجليها » (٢)

وقد نقل الفخر الرازى (٣) قصة شبيهة بالتى نقلها الطبرى وعلق عليها بقوله « وأعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألا يلتفت اليه ، لأن ابليس لو قدر على الدخول فى فم الحية ، فلمَ لمْ يقدر أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة ! ولأنه لما فعل ذلك بالحية ، فلم عوقبت مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة » !

وليس أدل على أن هذه القصة إسرائيلية من عباراتها كما رواها الطبرى حتى لتكاد تلمح فيها الترجمة الحرفية .

وقد كانت قصة الحية معروفة قبل الاسلام ونقلها عدى بن زيد شعراً . وذكر الجاحظ عن أمية أنه ذكر رطوبة الحجارة وأن كل شىء قد كان ينطق . ثم خبر عن منادمة الديك الغراب واشتراط الحمامة على نوح وغير ذلك مما يؤيد ما قلناه ، ثم ذكر الحية وشأن ابليس وشأنها ثم قال :

فان قلت إن أمية كان أعرابيا وكان بدويا وهذا من خرافات أعراب الجاهلية ؛ وزعمت أن أمية لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب ، فانى سأنشدك لعدى ابن زيد (٤) وكان نصرانيا ديانا وترجمانا وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر .

قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه الشيطان

---

(١) ج ١ ص ١٧٩ Book of Adam

(٢) كتاب آدم المرجع نفسه

(٣) ج ١ ص ٤٦٥ .

(٤) ترجمته فى الأغانى ج ٢ طبعة دار الكتب

www.ibtesamh.com/vb

وكيف دخل فى الحية، وأن الحية كانت فى صورة جمل فسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه ، فقال :

قضى لستة أيام خليقته ... وكان آخرها أن صور الرجلا
دعاه آدم صوتا فاستجاب له ... بنفخة الروح فى الجسم الذى جبلا(١)
ثمت أورثه الفردوس يعمرها ... وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة ... من شجر طيب ان شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت ... كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا
فعمدا للتى عن أكلها نُهيا ... بأمر حواء لم تأخذ له الدُغلا(٢)
كلاهما خاط إذ بُزا لبوسهما ... من ورق التين ثوبا لم يكن غُزلا
فلاطها(٣) الله إذ أغوت خليفته ... طول الليالى ولم يجعل لها أجلا(٤)
تمشى على بطنها فى الدهر ماعمرت ... والترب تأكله حزناً وإن سهلا

وأورد أبياتا عما أصاب آدم وحواء من الجوع والأوصاب والعلل ، وانهما أوتيا الملك والانجيل، ثم جاء بما روى كعب الاحبار من أنه مكتوب فى التوراة أن حواء عوقبت عند ذلك بعشر خصال وأن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه عوقب بعشر خصال وأن الحية التى دخل فيها إبليس عوقبت بعشر خصال .

وأورد هذه الخصال العشرة فى حالة كل من هؤلاء الثلاثة .

طابع قصص الحيوان عند مفسرى القرآن :

نزل القرآن باسان عربى مبين ليبين للناس أصول دينهم ويبصرهم بما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة . وكانت القصة بعض ما اشتمل عليه . وماورد

---

(١) جبل أى خلق (٢) لم تأخذ حذرها
(٣) ألصقها (٤) إشارة الى مايزعمون من ان الحية لاتموت الا بما يعرض لها من قتل ونحوه .

www.ibtesamh.com/vb

من هذه القصص فى القرآن ترك للأسئلة مجالا . ذلك أن القرآن كان يكتفى من هذه القصص بما سيقت من أجله كالموعظة والعبرة . أما التفاصيل فلم يكن يوردها . ولكن حب الاستطلاع غريزة ، والرغبة فى الاستقصاء كثيرا ماتدعو إلى التساؤل عند سماع هذه القصص أو قراءتها . فاذا سمعوا « ناقة صالح » رغبوا فى معرفة نوعها ، وإذا سمعوا « وادى النمل » أرادوا أن يعرفوا مكان هذا الوادى - وكذلك هدية بلقيس إلى سليمان ومنطق الطير وبساط الريح ، وهكذا فى بقية القصص التى تثير الأسئلة . وكان الذى يستطيع الإجابة على أسئلتهم أهل الكتاب ؛ لما فى التوراة من قصص شبيهة بهذه القصص ؛ ولما للتوراة من شروح وتعليقات . ولما أضيف اليها من أساطير . وقد أسلم بعض أهل الكتاب ووجدوا فى التوراة وشروحها وما أضيف اليها معينا يستطيعون أن يرجعوا إليه للاجابة على مثل الأسئلة المتقدمة . ولم يكن هؤلاء اليهود على حظ كبير من التحرى والدقة وتمحيص ما يروون . فسرى إلى المفسرين عن طريقهم كثير من الاسرائيليات التى امتلأت بها كتب التفاسير فى مثل هذه القصص التى جاء بها القرآن . وقد ذكر ابن خلدون (١) فى المقدمة

« إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا بقوا على ماكان عندهم ، مما

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٣

www.ibtesamh.com/vb

لاتعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم ، وأمثال ذلك . وهؤلاء مثل كعب الأحبار(١) ووهب بن منبه (٢) وعبد الله بن سلام وأمثالهم . فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم . وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الأحكام ، فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل ؛ ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك . وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات . واصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية . ولا تحقيق عندهم بمرفة ماينقلونه من ذلك ؛ إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ » .

ويشير بعد ذلك الى عمل المفسرين المحققين من أمثال ابن عطية والقرطبى ، ويمدح تفسير الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم .

ويؤيد كلام ابن خلدون أنى قرأت تفسير قصة سليمان فى سورة النمل ، فى كتاب جامع البيان لابن جرير الطبرى (من ص ٨٩ الى ص ١٠٥ ج ١٩) فوجدت اسم وهب بن منبه يتردد أكثر من خمس عشرة مرة . وجاء فى تفسير القصة أيضا اسم عبد الله بن سلام ، كما تردد اسمهم جميعا فى قصص أخرى ، ويضاف إلى هذا التأييد ماقدمته من موازنة بين قصة آدم فى تفسير الطبرى وفى التوراة ، وما جاء فى دائرة المعارف اليهودية فى وصف الحية . وكذلك قصة النملة فى التفسير وفيما نقلته عن دائرة المعارف اليهودية .

---

(١) كعب الأحبار : هو يهودى من اليمن أسلم بعد وفاة الرسول وتسرب منه كثير من أخبار اليهود الى المسلمين ، مات بالشام سنة ٤٤

(٢) وهب بن منبه : من أهل الكتاب كان له معرفة بأخبار الأوائل وقصة الخلق والأنبياء . وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وثلاثين كتابا ! الخ ، مات سنة ١١٠ بعد ماعمر تسعين عاما .

www.ibtesamh.com/vb

بل إن من هذه القصص التي أوردوها مالا يليق بكرامة الرسل ، ومنها قصص أوردها الزمخشري في تفسير سورة « ص » في قصة داود وسليمان وأنكر أن تكون صحيحة . وقد رأيت لهاتين القصتين أصلا نقلته دائرة المعارف اليهودية عن بعض كتب اليهود . ولكنها لاتتصل بالموضوع الذى نحن فيه .

ويظهر أنه كان هناك من القصاص من لايتورع عن نقل هذه القصص وروايتها ، ويحدثون العوام بذلك في المساجد ، فأنكر عليهم المفكرون من الصالحين والعلماء حتى رووا « أن علي بن أبي طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصري لتحريه الصدق »[1]

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

(١) فجر الاسلام ص ١٩٢

www.ibtesamh.com/vb

الفصل السابع

قصص الحيوان فى الأمثال

ليس عندنا دليل على أقدم خرافة عربية لامن شكل الخرافة ولا من معانيها . وإنما عندنا طائفة من الخرافات رويت عن الأدب الجاهلى لاندرى إن كانت من أسلوب الجاهليين ووضعهم أم من عمل الرواة، إذ أنه كان للرواة عمل كبير فى تدوين الأدب الجاهلى حتى ما كان منه عصيا على الوضع وهو الشعر . أما النثر المنسوب إلى الجاهليين فاحتمال الوضع فيه أو روايته بمعناه ، أقوى ، وأسلوب الأخبار غالبا من عمل المتأخرين من الرواة ، والحقائق من عمل الأقدمين . ولا تخلو هذه الأخبار من أمثال تحتفظ بشكلها الأول ؛ أو من محاورة تدعو إلى احتفاظ بترتيب الجمل ، أو من جمل مترابطة تحتم طبيعتها أن تبقى متماسكة على مر العصور .

وقد جاءت فى كتب الأدب العربى طائفة من قصص الحيوان متفرقة فى مواضع مختلفة ، بعضها مع الأمثال لتفسيرها ، وبعضها مستقل وله مغزى أولا مغزى له ، وبعضها عربى ، وبعضها منقول ، ولكنها قليلة لايجمعها كتاب واحد مثل المجموع فى « كليلة » أو الصادح والباغم مثلا .

وكنت أود أن أكتبها تحت عنوان « طائفة من قصص الحيوان » ولكنى آثرت العنوان السابق لأن القصص المتصلة بأمثال أكثر من غيرها فى هذا الباب ، وهى جميعا خرافات ذات مغزى . فاذا استثنينا قصة الضبع التى حاورها أبو زياد الكلابى ، وقصة أبى العنبس وحماره ، كان العنوان شاملا .

وهـــذ هي :

www.ibtesamh.com/vb

١ — قصة الضبع والثعلب والضب .

أو قصة المثل « فى بيته يؤتى الحكم »

يقول الميدانى [١] : هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم ، قالوا : « إن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب . فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل [٢] فقال : سميعا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك . قال : عادلا حكمتما . قالت : فاخرج إلينا . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت : إنى وجدت ثمرة . قال : حلوة فكليها . قالت : فاختلسها الثعلب . قال : لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى . قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . »

« فذهبت أقواله كلها أمثالا . »

وهذه القصة موضوعة لغاية خلقية ، فهى من قصص المواعظ وليس من الضرورى أن تكون الأخلاق التى فيها مسلمة أو عامة . فإن الثعلب عندما بغى لنفسه الخير كان معتديا ، ولكنها فى الوقت نفسه تشير إلى نوع من الأخلاق أشبه بأخلاق البادية فيه شىء من استخدام القوة والايمان بها . ثم إنها تجرى على نمط من الايجاز يمثل حكم أكثم بن صيفى . ونستطيع عندئذ أن ننسبها إلى الجاهليين ويمكن أن تنقل من عصر إلى عصر من غير أن يدخلها كثير من التغيير .

وقد رأيتها فى أمثال الميدانى (٣) غير منسوبة إلى عصر ، لكن روايته لها تفهم أنها جاهلية عندما قدم لها بقوله : « هذا مما زعمت العرب عن

---

(١) ج ٢ صفحة ١٣

(٢) الحسل : ولد الضب حين يخرج من بيضه .

(٣) ج ٢ صفحة ١٣

www.ibtesamh.com/vb

ألسن البهائم » . وقد أورد بعدها قصة تشبهها فى الحوار والايجاز لا فى المغزى الخلقى - عن خالد بن الوليد، وتشبيه قصة خالد بن الوليد بهذه القصة يرجح أن هذه أصل ، وقصة خالد بعدها . وخالد من أبطال المسلمين فى الصدر الأول .

ثم ان هذه القصة تروى فى الوسيط [1] فى الكلام عن تاريخ الأدب الجاهلى . وهى منقولة هناك عن الميدانى ، وذكرها فى الأدب الجاهلى يدل على أن صاحبي الكتاب رحمهما الله رأيا فيها مايرجح نسبتها إلى الجاهليين . وقد رويت فى كتاب العقد الفريد فى كتاب « الجوهرة فى الأمثال » تحت عنوان : « أمثال رويتها العلماء » كما يأتى :

« خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة فقال : « يا أهل الكوفة انى وجدت مثلى ومثلكم كالضبع والثعلب : أتيا الضب فى جحره فقالا : أباجميل قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختصم . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت الضبع : فتحت عينى . قال : فعل النساء فعلت . قالت : فلقطت تمرة . قال : حلوا جنيت . قالت : فاختطفها ثعالة . قال على نفسه بغى . قالت : فلطمته لطمة . قال : حقا قضيت . قالت : فلطمنى أخرى . قال : كان حرا فانتصر قالت : فاحكم الآن بيننا . قال : حدث امرأة حديثين وإن لم تفهم فأربعة . »[2]

والذى يوازن بين ماروى فى العقد الفريد على لسان النعمان بن بشير ، وما روى فى الأمثال « مما زعمته العرب عن ألسن البهائم » يرى اختلافا قليلا بينهما . فالضبع هنا ، لا الأرنب ، هى التى خاصمت الثعلب ، وقد ناديا

---

(١) صفحة ١٧ طبعة ٤

(٢) ج ٣ صفحة ٥٩ . رويت فى كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٢١٢ ورويت فى أول فاكهة الخلفاء ص ٤ بالمطبعة البهية بمصر

www.ibtesamh.com/vb

الضب : أبا جيل - لعلها تحريف « أبا حسل » - وقد وجدت تمره - بالتاء المثناه - لا ثمرة - بالمثلثة ولعلها أنسب للجواب لما فى التمر من الحلاوة . وقد نسب « البغى » إلى الثعلب فى قصة النعمان . وختام القصة هنا وهو « حدث امرأة حديثين » الى آخره ، غير موجود هناك ولا مفهوم هنا . (١)

ونحن نعرف أن النعمان كان شاعرا لا حكيما ولا قصصيا ، ونرجح أنه ساقها استشهادا ، ولهذا نرجح أن تكون جاهلية أيضا .

والموازنة بين القصتين فى الأمثال والعقد تؤكد ماقلناه من أن مثل هذه القصص النثرية التى تأتى حوارا ، فى جمل قصيرة يضرب بها المثل ، يلحقها من التغيير أقل مما يلحق غيرها من القصص النثرية المرسلة . ولكنها على كل حال لاتستعصى على هذا التغيير والتحوير . وهى قصة جمعت عناصر الموعظة ففيها حيوان يتكلم ويحتفظ بطباعه ، ولكنه يضرب الأمثال ويضع القواعد الخلقية (٢) .

٢ - قصة ذات الصفا

وهذا مثل آخر له قصة وهو : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » يقول عنه الميدانى : (٣)

« أصل هذا المثل على ما حكته العرب على لسان الحية - أن أخوين كانا فى إبل لهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد

---

(١) نقل ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء عن أبى هلال العسكرى تفسيرا لها وهو « إن لم تفهم حديثين كان ممن لايفهم أربعة أقرب » وهو تفسير لاتؤدى اليه الألفاظ .

(٢) رويت فى الأغانى جـ ٤ صفحة ١٥ رواية مخالفة لهاتين الروايتين قليلا .
(٣) الأمثال جـ ٢ صفحة ٦١

www.ibtesamh.com/vb

فقال أحدهما للآخر : يافلان ، لو أنى أتيت هذا الوادى المكلى، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ! فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لايهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلن. فهبط الوادى ،ورعى به إبله زمانا ، ثم ان الحية نهشته فقتلته . فقال أخوه : والله مافى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبن الحية ، ولأقتلنها أو لأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادى وطلب الحيه ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى ، تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا مابقيت؟ قال:أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا . ثم انه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا انظر الى قاتل أخى ! فعمد إلى فأس فأخذها ، ثم قعدلها فرت به فنبعها ، فضربها فاخطأها ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم . فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» يضرب لمن لا يفى بالعهد . وهذا من مشاهير أمثال العرب .

قال نابغة بنى ذبيان :

وانى لألقى من ذوى الغى منهمو ... وماأصبحت تشكو من الشجو ساهره
كما لقيت ذاتُ الصفا من حليفها ... وكانت تريه المال غبًّا وظاهره[1]
فلما رأى أن ثمَّر الله ماله ... وأثل موجودا ، وسدّ مفاقره[2]
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرةً من المعاول باتره[3]

---

(١) ذات الصفا : الحية .
(٢) المفاقر ، وجوه الفقر ، وسد مفاقره ، أغناه .
(٣) الغراب : الحد . المذكرة :من جيد الحديد .

www.ibtesamh.com/vb

فقام لها من فوق حُجر مشيد ... ليقتلها ، أو تخطىء الكف بادره(١)
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللشرّ عين لاتغمضُ ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على مالنا ، أو تنجزى لىَ آخره
فقالت : يمينُ الله أفعل ، إننى ... رأيتك مشئوما ، يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقرهُ(٢)

وقد رواها الجاحظ وبين سبب قول الشعر (٣)

والقصة شعرا ونثرا ، من قصص المواعظ ؛ فلها غاية خلقية والحيوان بطل من أبطالها، وهى جاهلية . ولست أرى فيها ولا فى الموعظة السابقة أثرا للنقل؛ لأن صورتهما بدوية ومسرحهما بدوى أيضا . وأرى أن النابغة قد عرف هذه القصة بالبادية فنظمها فى عتابه لبنى مُرة .

٣ ــ الذئب والشاة

ومن أمثال العرب أيضا : « أظلم من ذئب »(٤)

يقول الميدانى . قد كثر القول فى أمثال العرب ، وأشعار الشعراء بظلم الذئب فقالوا فى أمثالهم : من استرعى الذئب ظلم ، ومستودع الذئب أظلم . وكافأه مكافأة الذئب

---

(١) البادرة أى اللحمة بين المنكب والعنق .

(٢) فاقرة أى داهية ، أو واصلة الى العظم .

(٣) وقصة هذا الشعر قد وردت فى الخزانة (ص ٥٥٦ بولاق) وخمسة دواوين العرب ٤٧ والشعراء ٢٢ والمحاسن والمساوى (٢ : ١٣٤) والدميرى (١ : ٤١٦) ومروج الذهب (٢ : ١٢٩) وهى مما وضعه العرب على ألسنة الحيوان وقد جاء الأستاذ عبد السلام هارون بالروايات كلها فى تحقيقـــه ، وفى رواية الميدانى للشعر شىء من الاضطراب وغموض المعنى وهى فى الجاحظ أوضح . ج ٤ صفحة ٢٠٣

(٤) أمثال الميدانى ج ١ صفحة ٣٠٢ ، جمهرة الأمثال على هامشه ج ٢ ص ٥٧

وأما ماجاء فى أشعارهم فحكى ابن الأعرابى ، أن أعرابيا ربى بالبادية ذئبا ، فلما شب افترس سخلة له ، فقال الأعرابى :

فرَشْت شويهتى وفجعت طفلا ... ونسوانا وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت طفل ... فما أدراك أن أباك ذيب (١)
إذا كان الطباع طباع سوء ... فليس بمصلح طبعا أديب

وقال آخر :

وأنت كذئب السوء إذ قال مرة ... لعمروسة ، والذئب غرثان مرمل (٢)
أأنت التى من غير جرم سبيتنى ... فقالت: متى ذا ؟ قال : ذا عام أول
فقالت: ولدت العام، بل رمت ظلمنا ... فدونك كفى ، لاهنا لك مأكل

وهاتان قصتان لاقصة واحدة ، إحداهما تبين « مكافأة الذئب » والثانية تبين حجة القوى والتماسه أوهى الأعذار للغدر .

وقد جاء الجاحظ بالقصة الأولى (٣) فقال : « وقد كان بعض الأعراب ربى جرو ذئب حتى شب ، وظن أنه يكون أغنى غناء من الكلب ، وأقوى على الذب عن الماشية ، فلما قوى شيئا وثب على شاة فذبحها وكذلك يصنع الذئب ، ثم أكل منها . فلما أبصر الرجل أمره قال :

أكلت شويهتى وربيت فينا ... فمن أنباك أن أباك ذيب

« وقد أنكر أناس من أصحابنا هذا الحديث ، وقال : لم يكن ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتد عظمه ، ولم يذهب مع الذئاب والضباع ، ولم تكن البادية أحب اليه من الحاضرة ، والقفار أحب اليه من المواضع المأنوسة » .

وقصة الجاحظ أطول شيئا ما . وهى تبين اختلاف الرواة فى القصة

---

(١) السخال : جمع سخل وهو ولد الشاة .
(٢) عمروسه : نعجه . غرثان : جائع . مرمل : نافد الزاد .
(٣) الحيوان ج ٦ صفحه ٧ طبعه السامي

www.ibtesamh.com/vb

الواحدة ، وقد لحق التغيير فيها كلا من الشعر والنثر ، مع الاحتفاظ بمحور القصة وهو : « الطبع يغلب التطبع » .

ولكن الشعر الذى رواه الميدانى ، وروى الجاحظ بيتا واحدا منه تبدو عليه الجدة والحداثة ؛ فختام القصة بالمغزى الشعرى عمل لا نعهده فى الجاهلية وكلمة «أديب» أحدث من هذا العصر ، وكلمة « الطبع والطباع » لم يكثر استعمالها إلا فى العصر العباسى . ولا ينفى هذا أن تكون الفكرة معروفة عند العرب ، فنحن نبنى الشك فى جاهليتها على الألفاظ والصياغة لا على المعنى

أما القصة الثانية فظاهر من الشعر أنها جاءت فى معرض التدليل أو التشبيه ، ولكنها استوفت أجزاءها ، وهى أيضا قصة وعظية ، وان كان الوعظ فيها مضمنا لا مستقلا .

وهاتان القصتان من القصص الشائعة فى الأمم المختلفة فى القديم والحديث ولا يعرف مصدرهما الأول .

٤ — بجير أم عامر

وشبيه بهذه الخرافة ما يحكى عند ذكر المثل « كبجير أم عامر » (١)

« كان من حديثه أن قوما خرجوا إلى الصيد فى يوم حار ، فانهم لكذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهى الضبع ، فطردوها ، وأتعبتهم حتى ألجئوها إلى خباء أعرابى فاقتحمته ، فخرج إليهم الأعرابى وقال : ماشأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا . فقال : كلا ، والذى نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفى بيدى . قال ، فرجعوا وتركوه . وقام إلى لقحة فحلبها ، وماء فقرب منها ، فأقبلت تلغ مرة فى هذا ، ومرة فى هذا : حتى عاشت واستراحت . فبينا الأعرابى نائم فى جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه ، وشربت دمه ، وتركته . فجاء ابن عم له يطلبه ، فاذا هو بقير فى بيته ، فالتفت إلى موضع

---

(١) أمثال الميدانى ج ٢ ص ٦

www.ibtesamh.com/vb

الضبع فلم يرها ، فقال : صاحبتى والله! فأخذ قوسه وكنانته واتبعها ،فلم يزل حتى أدركها فقتلها ، وأنشأ يقول :

ومن يصنع المعروف مع غير أهله ... يلاق الذى لاقى مجير أمّ عامر
أدام لها حين استجارت بقربه ... لها : محض ألبان اللقاح الدرائر (١)
وأسمنها ، حتى إذا ماتكاملت ... فرته بأنياب لهـا وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من ... بدا يصنع المعروف فى غير شاكر

ولم يذكر الميدانى الزمن الذى قيلت فيه ، وإن دل سياق القصة على أنها بدوية جاهلية ، وفيها من أخلاق العرب حماية الجار ، واكرم الضيف والأخذ بالثأر وترى المغزى الخلقى مضمنا فى ثنايا القصة مصرحا به فى البيت الأخير

أما الشعر فأرجح أنه مصنوع ، وأنه عباسى ، فهو ضعيف ، لتكرار كلمة «لها» فى البيت الثانى ؛ و«هذا جزاء من بدا يصنع المعروف» ليس فيه روح الشعر ولا نظمه ، وكلمة « بدا » قلقة فى موضعها ، يحس قارئها أنها جاءت لتكملة الوزن ، وكلمة « من » فى آخر الشطر الأول قلقة فى هذا الموضع غير مألوفة فى الشعر القوى ، وهى خالية من موسيقى الشعر أيضا .

ثم إن انتهاء الأبيات بالمغزى صورة من العمل العلمى الذى يصل إلى النتيجة العامة من الأمثلة الجزئية ، وقد عرف العرب ذلك فى عصور متأخرة عن الجاهلية .

(٥) قصة الثعلب والعنقود .

ومن أمثالهم أيضا : « أعجز من ثعالة عن العنقود » ؛ وأعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود .

فأصل ذلك أن العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم يناله فقال هذا حامض .

---

(١) اللقاح «جمع لقحة» الدرائر «جمع درور، وهى الناقة كثيرة الدر وهو اللبن

www.ibtesamh.com/vb

وحكى الشاعر ذلك فقال :

أيهـا العائب سلمى أنت عندى كثعاله
رام عنقودا فلما أبصر العنقود طاله
قال هـذا حامض لما رأى ألا يناله

أما المثل فظاهر أنه جاهلى . وأما الشعر فإسلامى ؛ وربما رجح ذلك قول الميدانى : « وحكى الشاعر ذلك » . ثم أن النظم نفسه شبيه بنظم الحكايات الذى بدأه أبان اللاحقى . ونحو هـذه القصص عرف فى مرحلة متأخرة ، زمن العباسيين الذين أكثروا من الأبحر القصيرة ، كمجزوء الخفيف واستخدموها فى نظم الحكايات والمواعظ .

وأحس من قراءة هـذه القصص أن الأصل فيها هى الأمثال ، وأن القصص ثانوية بالنسبة لها ، ثم أن هذه بعض القصص شعرٌ ونثرٌ معا . وقد يكون مؤلفهما واحدا ، وقد يختلف كما فى قصة المثل « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » فصاحب الأبيات هناك هو النابغة الذبيانى » . ولا شك فى جاهلية هذه القصص ولـكن الصيغة الأدبية التى بدت فيها تأثرت فى خلال الزمن حتى ظفرت بالتدوين ، فاستقرت على النحو الذى وصلت به الينا .

وتلك عادة فيما يعتمد فى نقله على الحافظة ، إلا إذا اجتمع على نقله جماعة يؤمن تواطؤهم على الـكذب . وقل أن يظفر بذلك أثر أدبى خال من صبغة الدين .

أمثال لقمان

وفى أمثال لقمان قصص حيوانية ذات مغزى ـ وقد جاءت فى القرآن الـكريم سـورة باسم « لقمان » ، وتحدث المفسرون عنه كما تحدثت كتب الأمثال أيضا ، وأشير اليه وإلى نسوره فى الشعر والنثر .

www.ibtesamh.com/vb

أما الشخصية التى يشير إليها القرآن فشخصية كريمة [١] فقد آتاه الله الحكمة ، وكانت موعظته لابنه ، مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالحساب وعلى صالح الأعمال .

وفى التفسير إضافات كثيرة إلى شخصيته ، وتجمع كلها على أنه كان حكيما وان اختلفت فى نسبه ؛ وفى عمره ، وفى رسالته ؛ وفى جنسيته ، ويغلب على أقوال المفسرين أنه كان عبداً ، وأنه كان حكيما لانبيا ، وأنه كان من بنى اسرائيل فى زمن داود عليه السلام .

ومما نسب إليه من الحكم قوله : « الصمت حكمة وقليل فاعله » . ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى مادة طبرية : وفى شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه ، وله فى اليمن قبر ، والله أعلم بالصحيح منهما » . ويروى بعضهم حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سادة السودان أربعة . لقمان والنجاشى وبلال ومهجع » .

وقد جاء فى سيرة ابن هشام [٢] أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى سويد ابن صامت ودعاه إلى الله وإلى السلام : فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ، قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ فعرضها عليه ، فقال له : ان هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الاسلام فلم يبعد منه وقال : إن هذا لقول حسن . »

وكل ماجاء عن لقمان فيما تقدم يكبره ويرفع من شأنه كما رفع الله من قدره فى القرآن . ولكن بعض الأمثال التى وردت فى الميدانى تشير إلى لقمان بما يخالف ماتقدم .

---

(١) سورة لقمان آيات (١٢ ، ١٣ ، ١٦ — ١٩)

(٢) ج ١ ص ٢٦٥ من شرح الروض الأنف .

www.ibtesamh.com/vb

جاء عنه : « آكل من لقمان » .

يعنون لقمان العادى - من عاد - زعموا أنه كان يتغدى بجزور ويتعشى بجزور ، وهذا من أكاذيب العرب (١)

وجاء عنه أيضا عند المثل : « احدى حظيات لقمان » أنه لقمان بن عاد ، وتصوره القصة طامعا معتديا (٢) .

أما قصته عند المثل : « صُغراهنّ شراهن » (٣) والمثل « طال الأبد على لبد » (٤). فتقول انه ابن عاد أيضا والقصة عند هذا المثل عن الميدانى : أن « لبد » آخر نسور لقمان بن عاد ، وكان لقمان قد عُمِّر عمر سبعة أنسر ، وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله فى جوبة - نقرة - فى الجبل الذى هو فى أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر ، فاذا مات أخذ آخر مكانه ، حتى هلكت كلها إلا السابع ، أخذه فوضعه فى ذلك الموضع وسماه « لبد » ، وكان أطولها عمرا . فضربت العرب به المثل .

ويتبين مما تقدم أن هناك لقمانين : أحدهما الذى يتصل بالقرآن وهو الحكيم ، والثانى العربى ، وهو ابن عاد .

ولعل الأول منهما هو المقصود فى كتب الأمثال التى نسبت الى هذا الاسم. أما اسمه فيقول عنه « دير نبورج Derenbourg » فى كتابه خرافات لقمان الحكيم (١٨٥٠) إنه هو « بلعام Balaam » (٥) ومعنى الكلمتين الملتهم » - أصلهما لقم وبلع - ويقول ان الخرافات المنسوبة اليه متأخرة وأنها من أصل يونانى .

وقد طبعت الأمثال المنسوبة اليه فى باريس سنة ١٨٤٧ باللغة العربية

---

(١) الميدانى ج١ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٣

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٩ (٤) شراهن أى شرهن

(٥) بلعام : نبي أو شخصية دينية في الكتاب المقدس

www.ibtesamh.com/vb

وجاء فى المقدمة : انها كتبت لغرض تعليمى وأنه ليس لها قيمة أدبية كبيرة، وليست عينا من عيون الأدب العربى القديم ، وانما تعد كتابا ابتدائيا لتعليم الفرنسيين لغة العرب .

وهى إحدى وأربعون خرافة قصيرة جدا ، والمغزى فى آخرها ،وبعضها فيه ضعف ، ومن قصصها : (أسد وثعلب ص ١٠)

« أسد مرة ، اشتد عليه حر الشمس ، فدخل إلى بعض المغائر يتظلل بها فلما ربض أتى إليه جرذ يمشى على ظهره ، فوثب قائما ، فنظر يمينا ويسارا وهو خائف مرعوب ، فنظره الثعلب فتضحك عليه ، فقال له الأسد ، ليس من الجرذ خوفى وانما كبر على احتقارى .

هذا معناه أن الهوان على العاقل أشد من الموت .

وأسلوب هذه القصة واضح العجمة ، كأول كلمتين فيها، وكلمة «تضحك» وقد يصل المغزى الخلقى الى مايقرب من طول القصة ، ككقصة « البطن والرجلان » (ص٢٨) .فالقصة فى أربعة أسطر ونصف والمغزى فى سطرين ونصف وأكثرها عن الحيوان .

وتعتبر خرافات لقمان الحكيم مصدرا من مصادر لافونتين .

قصص منقولة :

رأينا فى بعض الأساطير الحيوانية أثر النقل عن أهل الكتاب ، من ذلك أسطورة « طوق الحمامة » ، «وحذر الغراب» ، وهديل الحمام » و « شبه السنور بالأسد » . وسنرى فيما يأتى أثر هذا النقل فى الخرافات .

نقل ابن عبدربه فى العقد الفريد فى (كتاب الجوهرة فى الامثال)تحت عنوان « مثل فى الرياء » .(١)

« عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بنى إسرائيل فخا ، فجاءت

(١) ج ٢ ص ٥٩

www.ibtesamh.com/vb

عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت . قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مر بى مسكين ناولته إياها . قال : فخذيها فدنت ، فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها . فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره : لاغرنى ناسك مُراءٍ بعدك أبدا . »

وأرجح أنها إسرائيلية من ذكر الراوى وهو ابن منبه ، وأنه أسندنصب الفخ فيها إلى رجل من بنى إسرائيل .

وتلك قصة أخرى رواها ابن عبد ربه (١) عن الشعبى - والشعبى من كبار التابعين، معاصر لعبد الملك بن مروان - جاء فيها : أن رجلا من بنى إسرائيل صاد قُبَّرةَ ، فقالت : ماتريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك فآكلك. فقالت: والله ما أشفى من بَرَم ، ولا أغنى من جوع ، ولكنى أعلمك ثلاث خلال هى خير لك من أكلى :

أما الواحدة فأعلمكها وأنا فى يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل ، فقال : هاتى . قالت : لاتلهفن على ما فاتك . فخَلىَّ عنها . فلما صارت فوق الشجرة قال : هاتى الثانية. قالت: لاتصدقن بما لايكون أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل . فقالت : ياشقى ، لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درة فيها زنة عشرين مثقالا . فعض على شفتيه وتلهف ، ثم قال : هاتى الثالثة . قالت له : قدنسيت الاثنتين فكيف أعلمك الثالثة ؟ ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك . فقد تلهفت على إذ فتك . وقلت لك لاتصدقن بما لا يكون أنه يكون ، فصدقت : أناوعظمى

---

(١) ج ٢ ص ٥٩ العقد الفريد

www.ibtesamh.com/vb

وريشى لا أزن عشرين مثقالا . فكيف يكون فى حوصلتى مايزنها !

وهذه القصة منسوبة إلى رجل من بنى إسرائيل أيضا .

جعل ابن عبد ربه القصتين تحت عنوان « مثل فى الرياء » وقد يكون ذلك منطبقا على القصة الأولى . أما الثانية فلا . ولو جعلهما تحت عنوان « مثل فى الخديعة » أو حسن الحيلة لكان أدق .

وليس فى هاتين القصتين طابع خاص يميزهما عن خرافات العرب أو خرافات غيرهم من الأمم . ولولا إسنادهما إلى رجل من بنى إسرائيل لما عرفنا أصلهما .

وقد نقلت قصة الثيران الثلاثة منسوبة إلى سيدنا على كرم الله وجهه فى كتاب مجمع الأمثال للميدانى[1] بعد المثل « إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » قال الميدانى :

يروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله تعالى عنه قال : إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة : أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد فكان لا يقدر منهن على شىء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة . فقالا دونك فكله ، فأكله . فلما مضت أيام قال الأحمر : لونى على لونك . فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله . ثم قال للأحمر : إنى آكلك لامحالة ، فقال : دعنى أنادى ثلاثا . فقال : افعل . فنادى : ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! ثم قال على رضى الله عنه : ألا إنى هُنْت ويروى « وَهَنْت » يوم قتل عثمان ! يرفع بها صوته .

يضربه الرجل يرزأ بأخيه .

---

(١) ج ١ ص ١٧

www.ibtesamh.com/vb

ولكن أبا هلال العسكرى يورد هذا المثل فى كتابه جمهرة الأمثال»(١) ويقول : «يضرب مثلا للرجل فقد ناصره فلحقه الضيم ، وهو من أمثال كليلة، وتمثل به على عليه السلام حين اختلف عليه ، وعنى قتل عثمان رضى الله عنه» والميدانى متأخر عن ابن المقفع بأربعة قرون تقريبا ، وكان كتاب كليلة معروفا له ، وكذلك كتاب جمهرة الأمثال الذى نص على أنه « من أمثال كليلة » فكيف نسباه إلى سيدنا على ؟ وكيف جمع أبو هلال بين نسبته إلى سيدنا على ، وأنه من أمثال كليلة ؟أهذا المثل عربى أخذه ابن المقفع ؟ هذا احتمال بعيد ، فإنه وارد فى «كليلة» فى باب الأسد والثور . وهذا الباب أقدم من سيدنا على ؛ لأنه مما نقل عن الهند فى « البانجاتانترا » .

أم أنه هندى نقل إلى الفرس وعرفه العرب عنهم ، وتمثل به سيدنا على ، ثم نقله ابن المقفع عن أصله الهندى ؟ وهذا احتمال لادليل عليه إلا الظن ، ولكنه يصح نسبته إلى سيدنا على ، وإلى ابن المقفع .

وهناك نوع غريب من الشعر القصصى ، كنا نظن أن العرب لم يقولوا فيه هو محاورة الحيوان ومساءلته ، فى نظم قائم بنفسه ، وعلى نمط فات المتأخرين الذين عرفوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين وغيرهم ، فإنهم ينظمون ذلك شعرا مزاوجا من الرجز ، يستقل كل بيت منه بقافيتين ، ولكن هذا الشاعر أطلق القوافى فى رجزه فهو يغيرها عند انتقاله من معنى لمعنى مباين ، ولا جرم أن الشعر القصصى لو نظم على هذا النحو ، لأمكن منه ماظنه الأدباء غير ممكن »(٢)

أما الأرجوزة فهى عن أبى زياد الكلابى (٣) قال أكلت الضبع شاة رحل

---

(١) هامش أمثال الميدانى ص ٤٧ ج ١

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ١٥٣

(٣) يعده ابن النديم من الأعراب الذين كانوا يفدون على مدن العراق فيأخذ العلماء عنهم اللغة . وهو من الأعراب الذين كانويكتبون ويؤلفون كتبا . وهذه القصيدة فى الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١

www.ibtesamh.com/vb

من الأعراب فجعل يخاطبها ويقول :

ما أنا ياجعـار [١] من خطابك علىّ دق الأعصل [٢] من أنيابك
على حذا جحرك لا أهابك

ما صنعَـت شـاتى التى أكلت ملأت منهـا البطن ثم جلبت،
وخنتنى وبئس ما فعلت

قالت له : لازلت تلقى الهمـا وأرسـلَ الله عليـك الحمى
لقد رأيت رجلا معتما [٣]

قال لها : كـذبت ياخبـاث قد طال ما أمسيت فى اكتراث
أكلت، شاة صبية غِراث [٤]

قالت له : والقول ذو شجون أسهبت فى قولك كالمجنون
أما ورب المرسـل الأمين لأجعَـن بعـترك [٥] السمين
وأمه وجحشـه القرين حتى تكونَ عقـلة العيون

فتوعدها فسخرت منه ، ولـكنه ظفر بها فقتلها ثم شواها .

ومحاورة الحيوان أومساءلته قد جاءت فى شعر الفرزدق،وأطلس عسال، وفى محاورة الذئب للشاة قبل أن يأكلها ، ومحاورة الحية ذات الصفا ، وفى قصة عدى بن زيد ؛ والجديد فيها هو نوع النظم .

وتلك قصة أخرى من عمل الخيال : للتسلية أو للتهكم والسخرية :

---

(١) جعار ، وأم جعار ، وأم جعور « الضبع » .
(٢) العصل ، جمع أعصل ، وعصلاء وهى المعوجة الصلبة .
(٣) المعتم «المكتهل ، ولعلها تعتذر عن أكلها لشاته بأنه رجل عجوز لاحاجة له فى الادخار .
(٤) غراث « جياع » . (٥) العتر : شاة أو خروف أو حمل

www.ibtesamh.com/vb

روى الأغانى (١) عن الرواة قال إن بشارا جاء إلى أصدقائه يوما ، فقال له أحدهم : مالك مغتما ؟ فقال : مات حمارى فرأيته فى النوم فقلت له : لِمَ مت ؟ ألم أكن أحسن اليك ؟ فقال :

سيدى خذ بى أتانا ... عند باب الأصبهانى
تيمتنى ببنان ... وبدل قد شجانى
تيمتنى يوم رحنا ... بثنايا ها الحسان
وبغنج ودلال ... سل جسمى وبرانى
ولها خد أسيل ... مثل خد الشنفران
فلذا مت ولو عشـ ... ـت إذا طال هوانى

فقال له سائله : ما الشنفران ؟ (٢) قال : ما يدرينى ؟ هذا من غريب الحمار فاذا لقيته فاسأله :

وقد رواها المسعودى (٣) لأبى العنبس أحد شعراء المتوكل ، وكان شاعرا يضحك الخليفة ورجال الدولة ، ويغشى مجالسهم فيطربهم ، وقد ينال بفكاهاته أو سخريته ومزاحه بعض الحاضرين ، فيغيظه ويوجعه .

ذكر المسعودى أن البحترى أنشد المتوكل قصيدة فى مدحه مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم

فسخر منها أبو العنبس ، وأنشد قصيدة على رويها ووزنها يهجو فيها البحترى ويسبه ويتهكم بشعره ، فتغيظ البحترى ، وضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وقال : ادفعوا لأبى العنبس عشرة آلاف درهم . وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل حاضرا فقال : ياسيدى ، البحترى الذى هجى

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٢٣١

(٢) « الشنفرانى » فى معاهدة التنصيص جـ ١ ص ٩١ وفى بعض نسخ الأغانى (الشيغران) بالياء والغين (٣) مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٣ .

www.ibtesamh.com/vb

وأسمع المكروه ينصرف خائبا ! فقال المتوكل : ادفعوا للبحترى عشرة آلاف . واستمروا فى هزلهم . ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه . ثم قال المتوكل لأبى العنبس : أخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره والرؤيا التى أريتها . قال : نعم . يا أمير المؤمنين ، كان حمارى أعقل من القضاة ، ولم يكن له جريرة ولا زلة ، فاعتل على غفلة فمات ، فرأيته فى النوم فقلت له : ياحمارى ، ألم أبرد لك الماء ، وأنق لك الشعير ، وأحسن إليك جهدى ؟ فلم مت على غفلة ؟ وما خبرك ؟ قال : لما كان فى اليوم الذى وقفت فيه على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا ، مرت بى أتان حسناء فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها ، فمت كمدا متأسفا . فقلت له : ياحمارى ، فهل قلت فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ، وأنشدنى :

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثنايا ها الحسان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنفرانى
فبها مت ولو عشـ ـت إذا طال هوانى

فقلت : ياحمارى ، ما الشنفرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير . فطرب المتوكل ، وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح فى ذلك اليوم فرحا شديدا لم ير مثله . وزاد فى تكرمة أبى العنبس ، وأحسن جائزته .

والشبه بين شعرهما واضح ، وخلاصة القصة كذلك ، ولكن المسعودى أحسن سبكا من الأغانى وأكثر تفصيلا . وقد خلق للقصة فى روايته جوا مرحا فى مجلس الخليفة ، وكانت مناسبة الشعر وغرام الحمار لهذا المجلس مناسبة ظاهرة .

وقصة أبى العنبس لم تكن بنت ساعتها كقصة بشار ، ويظهر أنها كانت معروفة . إذ أن الخليفة صرفه عن البحترى إليها ، وطلب منه أن يقص عليه

www.ibtesamh.com/vb

خبر حماره ووفاته وشعره . والطلب على هذه الصورة يدل على سابق علم الخليفة بها . وقد أطربته بالرغم من ذلك . وأجاز أبا العنبس عليها .

وأرجح أن قصة الحمار شهيد الغرام واحدة خلط الرواة فى نسبتها، وأرجح نسبتها إلى أبى العنبس ؛ لما أضيف اليها من أنه كان مضحكا للخليفة ، ومثلها يضحك ويليق بمجلس لهو كذلك الذى ذكره المسعودى ، وأما بشار فكان ثقيل الظل حتى فى فكاهته التى كان يتكلفها .

وقد حاول بعض المستشرقين (١) أن يجعل هذه القصة ـ من طريق غير مباشر أثراً من آثار اليونان فى الحب العربى . فيقول : إن العرب قلدوا اليونان فى فهمهم للحب وتصويرهم له ، وإن هذا الهيام الذى كان يستولى على العاشقين فيسلبهم إرادتهم وعقلهم ، ويثير عطف الناس عليهم لما كانوا يلقونه من آلام الحب وتباريخ الهوى ، ليس إلا تقليدا لليونان ، وأن العرب لما نقلوه وبالغوا فيه ظهر فيهم مثل أبى العنبس فوضع هذه القصة الغرامية ، وجعل بطلها حمارا ؛ للسخرية والاستهزاء من أولئك المحبين على الطريقة اليونانية .

من المعقول أن يضع أبو العنبس قصة كهذه للسخرية من المحبين الذين تقتلهم العشق ، وأن تكون لها غاية ومغزى . ولكن من قال إن العرب لم يظهر فيهم من قتله العشق أو تيمه ! إن مثل هذا العشق مازال موجودا . ونحن نراه ونسمع به فى أوساط مختلفه وأعمار مختلفه . وسمعنا به فى الأدب العربى من قبل أن يتصل العرب باليونان ، وروى لنا الكثير من قصص المجنون . وجميل . وكثير . وتوبة الخفاجى . والذين ينكرون هذه الشخصيات ، وحوادثها ، لايستطيعون إنكار هذه العاطفة ونتائجها ، والذى يريد أن يخضع العاطفة للعقل ، ويجعل آثارها مسايرة لأحكامه يخطىء ، ويتجنى على

---

(١) Von Grunbaum, Medieval Islam P. 312-313

www.ibtesamh.com/vb

الواقع ؛فلم لا يكون هذا العشق إلا يونانيا يستحق النقل من بلاد اليونان ؟

« قصة البازى والديك »

وهذه قصة أخرى رواها الجاحظ عن خلاد بن يزيد الأرقط ، أحد الرواة للأخبار والقبائل والأشعار ، قال : (١)

« بينما أبو أيوب الموريانى جالس فى أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبى جعفر فانتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، وأذن بيوم بؤسه ، وذعر ذعرا نقض حبوته ، واستطار فؤاده . ثم عاد طلق الوجه . فتعجبنا من حاله وقلنا له : إنك لطيف الخاصة ، قريب المنزلة ، فلم ذهب بك الذعر ، واستفزعك الوجل؟ فقال : سأضرب لكم مثلا من أمثال الناس :

« زعموا أن البازى قال يوما للديك : ما فى الأرض شيء أقل وفاء منك. قال : وكيف ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم فأطعموك على أكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صار لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا ، وضججت وصحت . وأخذت أنا من الجبال مسنا ، فعلموني وألفوني ، ثم يخلى عنى فآخذ صيدى فى الهواء فأجيء به إلى صاحبي . فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل ما رأيت من الديوك لكنت أنفر منى . »

ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تعجبوا من خوفى ، مع ما ترون من تمكن حالى وقد نقم عليه المنصور بعد ذلك ، ومات سنة ١٥٤ .

كان هذا الوزير فارسيا يخدم ملكا عربيا ، وكان للفرس أثر عظيم فى خدمة الدولة العباسية . وكان اتصالهم بالعرب وبالهند قويا وتلك كلمة عن هذا الاتصال ومدى تأثيره فى الأدب العربى عامة وقصة الحيوان خاصة .

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ٢ ص ٣٦١ . ووفيات الأعيان جـ١ ص ٢١٥ .

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثامن

الفرس بين العرب والهند

اتصل العرب بالفرس فى الجاهلية ، وخضعوا لحكمهم زمنا ، كما جاوروهم من قديم الزمان فى بلاد العراق .

فى عهد سابور الأول « حوالى سنة ٢٤٠ م » أسس الفرس امارة الحيرة على نهر الفرات ، وكان ملك فارس هو الذى يعين على عرب الحيرة أمير من أنفسهم ، وعليهم أن يحموه من كل مغير يأتى من جهتهم . (١)

وكان عرب الحيرة يحملون تجارة فارس إلى أسواق الجزيرة . وفى عهد يزدجرد الأول (٢) أرسل الملك أكبر أبنائه «بهرام» إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء . وكان يعرف العربية . وفى سنة ٦٠٢ م مات النعمان الخامس الملقب بأبى قابوس — وهو صاحب النابغة الذبيانى — فألغت الحكومة الفارسية نظام الامارة ، وولت من قبلها حاكما فارسيا ، وظل الحال كذلك حتى فتح المسلمون هذه البلاد على يد خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

وكان الأمراء العرب مقصد الشعراء من داخل الجزيرة ، لمدحهم وأخذ جوائزهم والاقامة عندهم ، والاستمتاع بنعيمهم ؛ وحديث النابغة الذبيانى مع النعمان معروف مشهور . ووفادة الأعشى على الحيرة مشهورة ، وقد جاءت فى شعره ، ومن أشهر قصائده معلقته التى مطلعها :

« مابكاء الكبير بالأطلال »

---

(١) فجر الاسلام ص ١٨

(٢) من سنة ٣٩٩ — ٤٢٠

www.ibtesamh.com/vb

التى مدح فيها الأسود بن المنذر أخا النعمان . (١)

كما كانت لهم الحكومة بين القبائل العربية التى تجاورهم كبكر وتغلب وكان آخر صلح لهاتين القبيلتين بعد حرب البسوس على يدعمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . وقال الحارث بن حلزة معلقته فى مجلس عمرو هذا ، كما قال عمرو بن كلثوم معلقته التى يتحدى فيها عمرو بن هند ، بل قيل إنه قتله فى ذلك المجلس .

وكان اتصال العرب بالفرس فى الحيرة داعيا إلى معرفتهم لكثير من أخلاق الفرس وعاداتهم وقصصهم وأدبهم .

ومن شعراء العرب من وفد على ملوك فارس كالأعشى . قيل إنه مدح كسرى وأخذ جوائزه . ووفود خطباء العرب على كسرى مشهور . (٢)

ولا يعنينا أن تكون هذه الوفادات على الفرس موضع شك ، وإنما الذى يعنينا هو أن هذا الاتصال كان موجودا ، بحكم الجوار ، وبسط الفرس لسلطانهم على تلك الديار زمنا طويلا ، ومخالطتهم لأهلها ، وقد ترك هذا الاتصال أثرا واضحا فى العرب فى ذلك الوقت ، فنقلوا بعض ألفاظهم كالمتصلة بأدوات الزينة والترف والنعيم ، لما عرفوا عاداتهم وملابسهم وطعامهم الخ

وكان النضر بن الحارث (٣) يعرف قصص ملوكهم وأبطالهم ، وكان يقول فى مكة إنه يستطيع أن يحدث بحديث أولئك الملوك والأبطال ، ليصرف الناس عن الاستماع إلى محمد — عليه السلام — الذى يحدثهم بأحاديث عاد

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٩٢ السندوبى ، الوسيط ص ٨١

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٦٦ ، كتاب الوفود ، وطبقات الشعراء لابن قتيبة ١٣٧

(٣) الكشاف جـ ٢ سورة لقمان : تفسير قوله تعالى ، ومن الناس من يشترى لهو الحديث ،

www.ibtesamh.com/vb

وثمود . وكان أبو زبيد الطائي من زوار الملوك ، وللملوك العجم خاصة ، وكان عالما بسيرها (١)

ولكنى لم أجد من قصص الحيوان شيئا يحتمل أنه نقل عن الفرس فى ذلك الوقت إلا على سبيل الظن ، كبعض القصص التى فيها معنى التناسخ ، كمسخ الماكسين ضبعا وذئبا فيما تقدم (٢) ، ولكنه لا دليل يرجح النقل عنهم ولا عن الهنود .

وفى الإسلام اتصل بهم العرب وحكموهم . وأسروا منهم ، وتزوجوا من نسائهم ، وانتقل الفرس إلى الجزيرة أرقاء أو موالى ، وأقام العرب فى بلاد فارس حكاما ، ثم سكنوها ، واتصلوا بأهلها .

إنه كان للفرس أدبهم ، فى ذلك التاريخ الطويل . وقد نقلت اليهم أقاصيص الهند الحيوانية ، وأشهر ذلك فى أيام كسرى نوشروان العادل المحب للعلم .

ومن الطبيعى أن يعرف العرب شيئا من ذلك بحكم هذا الاتصال المتقدم . فأمهات الأولاد يحكين لأولادهن بعض القصص ، والرجال يحكون لمخالطيهم من العرب بعض هذه القصص ، ويضربون لهم منها الأمثال ؛ ولكن الأدب الأموى خال من هذه القصص ، فما السبب ؟

١ - أرى أن عصبية العرب لأدبهم وإكبارهم له فى عهد بنى أمية ، وتأثرهم آثار أسلافهم من الجاهليين ، وفى الشعر بوجه خاص قد ، صرفتهم عن تقليد الفرس .

٢ — وقد عنى بنو أمية بتوجيه الأدباء ، والشعراء منهم خاصة ، إلى الأدب السياسى والهجاء والمدح ؛ لينتفعوا بذلك فى تثبيت عرشهم ، فلم يتركوا للشعراء فرصة التفكير فيما عند الفرس لو عرفوه .

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٣٣

(٢) ص ٤٧ — ٤٨ من هذا الكتاب

www.ibtesamh.com/vb

٣ والذين قالوا الشعر من الموالى الفرس لم يتجهوا إلى الأدب الفارسى ليأخذوا منه موضوعاتهم ، بل قلدوا الطرق العربية فى الشعر ، وجاروا شعراء العرب فى الأساليب والموضوعات والمعانى . كزياد الأعجم وأيمن بن خريم ، واسماعيل بن يسار

٤ ـ وأما النثر فكان ساذجا ، وكان لخدمة السياسة والإدارة . وكانت الكتابة العربية ضيقة الميدان ، لقلة الكتاب ، واقتصار الموضوعات على الناحية السياسية ، ووضع النظم التى يجب أن يسير عليها الولاة والأمراء .

٥ ـ ولم يكن ظهر فى ذلك الوقت من الكتاب من ينشىء الأدب لذات الأدب ، أو من يختار الناحية الرمزية لإرشاد الملوك والولاة إلى النظام الصالح ، والمثل الأعلى فى سياسة الرعية . وهذه من أهم أغراض الخرافات .

٦ ـ شغل الرواة ـ حتى العجم ـ فى ذلك الوقت برواية الأدب العربى وأخبار الأمة العربية ، مجاراة لروح العصر ، واهتماما بالمهم المربح من الأدب . وذلك لإيثار بنى أمية لكل ماهو عربى .

وإذا كنا رأينا فيما يروى أن معاوية كان يستمع لقوم يقصون عليه كل ليلة « أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها فى رعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، فكم مرة كان ذلك فى تاريخ معاوية ؟ لاندرى . ولا ندرى أيضا طريقة تلك الأخبار ، أكانت رواية أم شرحا وتعليقا ودراسة.

وكان له غلمان مرتبون . « وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسات . »(١)

والظاهر أن الخبر بعيد عن التصديق فقد أورده المسعودى على صورة فيها مبالغة . فقالوا إنه كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٣١ والمسعودى ج ٢ ص ٥٢

www.ibtesamh.com/vb

ثلث الليل ، ثم ينام الثلث الثانى، ثم يأتى أولئك الغلمان فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب» . وهذا قد يحدث مرة أو مرات ، ولكنه لا يمكن أن يكون كل ليلة.

ويرى جورجى زيدان « أن تلك الكتب فى اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان . وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية ».

ربما كان الخبر مقبولا فى جملته ولكنه بعيد عن القصص الحيوانية [1]

والأدب الفارسى كان يستمتع بما نقله عن الهنود فى أيام الملك العادل كسرى أنوشروان ، وكان أهم مانقله عنهم من نوع الخرافات التى اشتهرت الهند بأنها مصدر من مصادرها المهمة ، لكن هذه الخرافات ظلت بعيدة غريبة عن الأدب العربى طول عهد الأمويين ، ثم ترجمت فى أول عهد العباسيين إلى اللغة العربية ترجمة عظيمة ، ونسى أصلها الهندى والفارسى، حتى ألقت الأبحاث الحديثة ضوءا على الأصول القديمة ، وبينت شيئا من فضلها على الخرافات فى القديم والحديث .

وأشهر الكتب التى تأثرت بالهند كتاب « كليلة ودمنة » وقصص « ألف ليلة وليلة » وأهم مصدر للخرافات التى ظهرت فى الأدب العربى هو :

البانجا تانترا « Pacgataatra »

ويسمى المقالات الخمسة أو الكتب الخمسة :

وهى كتاب واحد يضم خمسة فصول كل فصل منها تحت عنوان خاص(٢):

(١) « La Brouille des Amis » أو التفريق بين الأصدقاء

(٢) « L, Aquisition des Amis » أو اكتساب الأصدقاء

(٣) « La Guerre des Corbeaux et des Hiboux » أو حرب البوم والغربان

---

(١) تاريخ آداب اللغه العربيه ج ١ ص ٢٣١

(٢) Aubertin : Fables De La Fontaine P. 20

www.ibtesamh.com/vb

(٤) (La Perte de ce qu,on a Acquis) أو ضياع الحاجة بعد الظفر بها
(٥) (Le Danger des Actions irréfléchies) أوخطر مالاروية فيه من الأعمال .

ويظهر أن قصص « البانجا تانترا أو الكتب الخمسة عن السياسة وفن الحكم، لم تأت إلينا فى شكلها الأصلى (١) وما هو عند الأوربيين من تراجمها الآن قد كتب بعد الأولى ، وعلى نمطها إلى حد ما ، ولعل الأصل كان كتيبا فى السياسة لتعليم صغار الأمراء .

وفى هذا إشارة إلى أنه كان هناك نسخة أولى من هذا الكتاب ضاعت وما بقى كان مجموعة أخرى بعد الأولى بزمن ، ومتأثرة بها إلى حد كبير. يقول « أوبرتان » عن البانجاتانترا التى أشار اليها وسماها المقالات الخمسة ما يأتى :

« وليس هذا إلا جزءا من مؤلف أتم وأوفى فى ثلاثة عشر فصلا » .

ويؤيد ذلك ماجاء فى كتاب « حكمة الهند » (٢) وهو : « هناك مجموعتان مهمتان من قصص الحيوان » (Animal Fables) فى الأدب الهندى هما « البانجاتانترا » (Panchatantra) و « الهيتوبا ديسا Hitopadesa »

والأولى أقدم وأغنى ، وتشمل سبعا وثمانين (٨٧) قصة ، والثانية ثلاثا وأربعين (٤٣) منها خمس وعشرون فى « البانجا » . وقد يكون تاريخ تدوين « البانجا » حوالى القرن الثانى ق . م . فى كشمير كما يقول دكتور هرتل . لكن القصص فيها أقدم كثيرا ، كما تدل الشواهد فى المؤلفات السنسكريتية

وقد جاء فى كتاب « الهند القديمة وحضارتها » (٣) أن للبانجاتانترا الثانية محورا عاما وهو « ملك يائس من تعليم ابنيه الأميرين لغباوتهما . وأخيرا يستخدم حكيما برهميا ليعلم هذين الأميرين أصول المعاملات الانسانية .

---

(١) Ancient India and Indian Civilization P. 323

(٢) The Wisdom of India P. 245

(٣) صفحه ٢٢٣

www.ibtesamh.com/vb

ويستمر فى تعليمها هذه الدروس ويشرح الطبيعة الانسانية بطريق الخرافات، ويدخل قصة فى أخرى بلباقة ، وكثيرا ما يجعل شخصية فى القصة تبدأ قصة أخرى قبل أن تنتهى السابقة . ويختم القصة بالمغزى . وكثير من هذه المواعظ اقتباسات من كتب أقدم مثل « الفيدا » .

ويلاحظ أن تلك الطريقة هى التى سار عليها ابن المقفع فيما نقله وما ألفه من هذه القصص .

واذا جمعنا ما ورد فى هذه الكتب الثلاثة : حكمة الهند ، والهند القديمة وحضارتها ، ومقدمة خرافات لافنتين ، بعضه الى بعض وجدنا ما يأتى :

١ ــ أن هذا الكتاب " Pancha " لم يأت الينا فى شكله الاصلى، وأنه مسبوق بكتاب آخر .

٢ ــ وأن تاريخ تدوين الكتاب هو حوالى القرن الثانى ق. م أى قبل كليلة ودمنة بحوالى عشرة قرون .

٣ ـ وأن المقالات الخمسة تكاد تكون أصلا صريحا للابواب التى تشبهها عند ابن المقفع .

٤ وأن كلا من هذه المقالات الخمسة تشتمل على قصة أصلية ، وقصص فرعية فى كل باب . وبهذا بلغ عددها سبعا وثمانين .

٥ ـ وأنها قد تركت آثارا فى الأدب الهنـــدى نفسه فكتبت « الهيتوباديسا » أو « موعظة الصديق » على نمطها ، واقتبست منها خمسا وعشرين قصة من قصصها الخمس والأربعين .

ولا أدرى ان كان الكتاب الهندى الذى سبق هذا الكتاب عرف بهذا الاسم ام لا . غير ان كتاب « الهند القديمة »[1] يشير الى اسم آخر فيقول : ان « البانجاتانترا » الجديدة مؤلف من بقايا كتاب اسمه « تانترا خايا يكا »

---

(١) ص ٣٢٤

www.ibtesamh.com/vb

Tantra Khyayika . أو مجموعة القصص القصيرة وقصص اخرى . وقد أورد منه قصة «فشنو والنسّاج» Vishnu and The weaver[1] وخلاصتها:

أن نساجا فقيرا رأى أميرة فرض من الحب ، فصنع صديق له من صناع العربات « جارودا » من الخشب ، وهذا الجارودا Garuda هو النسر الاسطورى الذى يركبه الاله فشنو ، ولبس النساج صفات فشنو وركب النسر وطار به حتى دخل جناح الأميرة فى قصرها ، فاعتقدت انه الاله فشنو ، وتضرع اليها فقبلته زوجا ، وأعلنت والديها أنها تزوجت فشنو وأنه صار صهرا لها . فرضيا بعد غضب وثورة ، ورأياه فى الليل قادما من السماء يحمل علامات قوته ، ومنها القرص والصدفة ، ولم يستطيعا ان يكلماه وامتلأ الملك عجبا بهذه المصاهرة . فأثار حربا على جيرانه ، فصمدوا له وحاصروا مدينته ، وأحاطت به المصائب ، غير أن « فشنو » المدعى هدأ الأميرة ، وأعد نفسه للاشتراك فى النزاع ، وآثر أن يموت بطلا فى الدفاع عن صهره ، فأحس « فشنو » الحقيقى أنه تورط ، وأبى أن يرى « فشنو » المدعى يهلك وهو على شكله وصورته ، فساعده وكان له النصر . »

ومن يقرأ ألف ليلة وليلة يجد قصة الحصان الأبنوس وليدة هذه القصة وأن هذه القصة قد انتقلت عن ألف ليلة وليلة إلى أوربا . وكتبها Chaucer تشوسر مع شىء من التعديل ، نقلا عن أسبانيا ، فى قصته The Squire's Tale ،

وفى « البانجا » كثير من القصص الجميلة كالأرنب الذى غلب السبع أو الفيل بذكائه وحيلته ، والفأرة التى صارت قطة وأرادت أن تختار زوجا ، فرأت عيبا فى كل من تقدم لخطبتها من الشمس والسحاب والريح والجبل ، ولم يحل فى عينها إلا الفأر فاختارته[2] .

---

(١) فشنو هو الاله الحافظ عند الهنود .

(٢) مقدمة Eastwick لكتاب أنوار سهيلى P. IX ، وقصة هذه الفتاة فى كليلة فى باب البوم والغربان .

www.ibtesamh.com/vb

وقد صورت الرجل المثالى بأنه الرجل العادى فهو خير زوج ورب بيت . وأهم فضائله الكرم والاخلاص للأصدقاء .

وواجبات الملك واضحة فيها . فعليه أن يقاتل بشجاعة ، وأن يفدى شعبه بنفسه ، وأن يحمى البرىء ، وأن يحكم البلاد بمعرفة الوزراء .

وقد ترجمت البانجاتانترا فى القديم [١] . فترجمت الى الفهلوية فى القرن السادس وكانت ترجمتها أصلا لكليلة ودمنة ثم ضاع هذا الأصل . وترجمت عن هذا الأصل إلى السريانية أيضا حوالى سنة ٧٠٠ م باسم « كيلاج ودمناج » وترجمت فى القرن الثامن الميلادى ترجمة عربية موسعة ترجمها ابن المقفع . باسم كليلة ودمنة . وكانت هذه الترجمة العربية الأصل الذى ترجمت عنه إلى لغات أوربا وغيرها . ومن أهم تراجمها الى الفرنسية الترجمة المعروفة باسم Livre des Lumiéres, ou La Conduite des Roys ترجمها دافيد ساهد David Sahid سنة ١٦٤٤ م .

فاذا جاء ابن المقفع وترجم « كليلة ودمنة » كان عمله جديدا فى اللغة العربية يمتاز بأنه أول مجموعة فى القصص الرمزية الأخلاقية — وأكثرها عن الحيوان — وقدوفق ابن المقفع الى اسلوبه الخاص وبيانه العالى ، فظفر كتابه بالخلود ، وبالترجمة الى أكثر اللغات المعروفة ، وكان فتحا جديدا فى الأدب العربى [٢] .

---

(١) الهند القديمة وحضارتها ص ٣٢٦

(٢) كان أبو الريحان البيرونى يتمنى أن يترجم « كتاب البانجاتانترا » أيضا . وليته فعل ، فقد كان عالما بالهند وباللغة الهندية علما تاما ، « مقدمة كليلة ودمنة تحقيق الدكتور عزام نقلا عن كتاب البيرونى « ما للهند من مقوله منقولة ومعقولة »

www.ibtesamh.com/vb

الفصل التاسع

كليلة ودمنة

« لعبد الله بن المقفع »

أما ابن المقفع فهو أشهر كتّاب القصص الحيوانية فى الشرق ، وهو علم من أعلام البيان العربى . ولد سنة ١٠٦ هـ بالبصرة من أسرة فارسية . وكانت نشأته فى البصرة ، واتصاله برجال الأدب والرواية ، وخاصة بعبد الحميد بن يحيى ، مع حسن استعداده ، وقوة حافظته ، سببا فى أن يكون كاتبا من الطراز الأول .

عرف ابن المقفع بأنه قويم الأخلاق ، فكان كريما بماله ، وفيا لأصحابه ، حريصا على الجهر بآرائه فى إصلاح أحوال الناس جميعا ، وكانت آثاره : « الأدب الصغير » (١) و « الأدب الكبير » (٢) و « رسالة الصحابة » (٣) دليلا على ذلك .

وكانت معرفة ابن المقفع بآداب قومه ونظمهم السياسية وحكمهم الأدبية وأشهر كتبهم فى التاريخ والأخلاق معينا لحكمه ومعانيه . وقد ترجم بعض

---

(١) الأدب الصغير ـ مجموعه من الحكم الموجزة لتهذيب النفس والخلق .

(٢) « الكبير ـ يجمع حكما وكلمات تدور حول السلطان والولاة ، والصداقة والصديق .

(٣) رسالة الصحابة ـ رسالة وجهها الى الخليفه ـ المنصور غالبا ـ يبين فيها ما يجب ان يكون من صفات الكمال في اصحابه ، وخدم دولته ، وما يجب عليه للرعية ايضا .

www.ibtesamh.com/vb

هذه الكتب . ومن أشهر ما ترجمه وأبقاه ، كتابه الخالد « كليلة ودمنة » .

وقد قيل إن ترجمة هذا الكتاب كانت سببا فى قتله سنة ١٤٢ هـ ، لما بينه فيه من حقوق الرعية على الحاكمين . ورأى المنصور فى هذا تنبيها للناس إلى المطالبة بحقوقهم ، فغاظه ذلك ؛ كما غاظه أن يضع ابن المقفع نفسه موضع المرشد للخلفاء الى ما يجب أن يفعلوا . فلما اتهم بالزندقة وقتله عامل البصرة ، لم يعبأ الخليفة بالقصاص من قاتله ، ولا بالتحقيق فى أمر قتله [1] .

ويظهر من اتجاهات ابن المقفع فى تأليفه أنه كان صاحب دعوة أخلاقية سياسية حرص على إذاعتها فى كتبه . وخلاصتها تهذيب النفس وحسن المعاملة .

وكان فارسى النزعة فاتجه إلى آداب قومه وأخلاقهم ونظمهم فنقل عنها. فقد ترجم من الفارسية كتاب « آيين نامه » ، وهو وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم .

وترجم كتاب « خداى نامه » ـ وهو كتاب فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم . سماه « تاريخ ملوك الفرس » ، وترجم كتاب « التاج فى سيرة أنو شروان » ، وغير ذلك .

ونستطيع الآن أن نفهم السبب فى ترجمة ابن المقفع لكتاب كلية ودمنة ، فهو أثر من الآثار القيمة فى اللغة الفارسية ، وهو كتاب أدب وحكمة ، فيه مواعظ وسياسة ، وفيه إرشاد وتعليم ، وفيه آداب سلطانية ، وما يجب على الحاكم أن يتصف به من صفات ؛ وما يجب على المحكومين أن يراعوه عند صلاتهم بهؤلاء الحكام . وابن المقفع الراغب فى الإصلاح ، يلجأ الى ترجمة الكتاب ، ويزيد بعض الأبواب عليه ، لما يرجو أن يكون فيه من الفائدة للخواص وأصحاب السيادة أولا .

---

(١) فى كشف الظنون ج ٢ ص ٣٢٩ أنه « توفى سنة نقله » .

www.ibtesamh.com/vb

كتاب كليلة ودمنة

أهم كتاب فى قصص الحيوان فى الأدب العربى . وأعظم ما خلفه ابن المقفع من آثاره الأدبية ، ومن أكثر الكتب التى ترجمت الى لغات أخرى غير لغتها وتركت أثرا فى اللغات التى نقلت اليها .

وقد رأينا فيما تقدم [1] أن « البانجاتانترا » تشتمل على خمسة أبواب ، وبمقارنتها بالأبواب الآتية من كليلة ودمنة يتضح مدى التشابه بينهما :

١ — باب الأسد والثور ؛ وأوله قول دبشليم الملك لبيدبا : « اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال » .

٢ — باب الحمامة المطوقة ، وفى أوله قول دبشليم للفيلسوف : « فحدثنى إن رأيت ، عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض » .

٣ — باب البوم والغربان ، وأوله قول الملك للفيلسوف « فاضرب لى مثل العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقا » ويلاحظ أن هذا العنوان فى كليلة ودمنة مثله فى البانجاتانترا .

٤ — باب القرد والغيلم ، وقد قال دبشليم للفيلسوف فى أوله : « فاضرب لى مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فاذا ظفر بها أضاعها » .

٥ — باب الناسك وابن عرس ، وأوله قول دبشليم لبيدبا الفيلسوف : « فاضرب لى مثل الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا نظر فى العواقب » .

وتكاد الجمل الأولى من هذه الأبواب من « كليلة ودمنة » تكون مأخوذة بنصها من عناوين الأبواب التى تقدمت فى « البانجاتانترا »

وفى بعض القصص الفرعية أيضا كقصة « المرأة التى باعت سمنا مقشورا بغير مقشور » .

---

(١) ص ١١٤ ، ١١٥ من هذا الكتاب

www.ibtesamh.com/vb

وقصة الحمار الذى بلا قلب ولا أذنين[١] .

وقد قال ابن المقفع فى باب عرض الكتاب انه « مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث[٢] » . وتسمية الكتاب بهذين الحيوانين « كليلة ودمنة » وترجمة الكتاب الى السريانية بهذا الاسم ، قبل ان ينقل الى العربية ، دليل على أنه أجنبي عنا أيضا [٣].

وقد تتبع الباحثون أبوابه وبينوا مانقله ابن المقفع وما وضعه ، كما بينوا ما أخذه الفرس من الهند وما وضعوه .

والنسخ التى بين ايدينا فيها اختلاف . وكذلك المنظومات التى نقلت عنه ، فالأبواب الهندية عدا ما تقدم هى : الجرذ والسنور ، الملك والطائر فنزة ، الأسد وابن آوى ، اللبؤة وبلاذ وايراخت ، السائح والصائغ ، ابن الملك واصحابه .

والفارسية هى مقدمة برزويه وبعثه ، وباب ملك الجرذان .

ويظن ان ابن المقفع هو كاتب الأبواب الباقية ، بعد المقدمة التى كتبها بهنود بن سحوان ، المعروف بعلى بن الشاه الفارسى[٤].

---

(١) قصة التى باعت السمسم فى صفحة ١٨٦ كليلة ودمنة الطبعة الخامسة عشرة . وهى الثانية فى الباب الثانى من البانجا تانترا . وقصة الحمار بلا قلب ولا اذنين فى باب القرد والغيلم ص٢٣٦ « كليلة » هى الثانية من الباب الرابع فى البانجا تانترا ، (مقدمة ترجمة Eastwick لكتاب انوارسهيلى "P. XII.")

(٢) ص ٥٨ باب عرض الكتاب (٣) ترجم من الفارسية الى السريانيه سنه ٥٧٠ ، باسم كليلاج ودمناج (كتاب حكمه الهند ص ٣٤٥)

(٤) وفى كتاب ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٦ فصل عن هذا الكتاب جدير بالتقدير . وللدكتور عبد الوهاب عزام مقدمه قيمه تكلم فيها عن اصول الكتاب وطبعاته المختلفه ، وما فيها من زيادات ونقص وتحريف فى الابواب والعبارات والالفاظ ، واسماء الاشخاص والاماكن ، وذلك فى الطبعه التى نشرها من كليلة ودمنة منذ تسع سنوات (١٩٤١) .

www.ibtesamh.com/vb

وقد عرف كتاب كليلة ودمنة فى الشرق والغرب ، وذاعت شهرته ، وترجم الى كل اللغات المعروفة فى القرون الوسطى . فتأثرت بها خرافاتها . والفرس قد عنوا به ، فنقلوه الى الفارسية مرات ، فى عصور مختلفة ، وقد اشار الى هذه الترجمات كتاب تاريخ الأدب الفارسى لمؤلفه الدكتور رضا زاده شفق ، استاذ الادب الفارسى فى جامعة طهران(١).

وإذا كان الفرس يعتبرون كليلة ودمنة فارسية فإنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغ ابن المقفع فى فصاحته وعلو أسلوبه، كما عجز المقلدون والناظمون لهذا الكتاب فى الأدب العربى عن أن يبلغوا مبلغه .

أبواب الكتاب

أما أبوب الكتاب كما جاءت فى الطبعة الخامسة عشرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٣١ فهى .

١ — خطبة الكتاب ؛ وفيها اشارة الى فضل محمد على باشا على العلوم والكتب العربية ، وطبع القيم منها فى المطبعة الأميرية، ومن ذلك كتاب كليلة ودمنة من نسخة موثوق بها الى حد كبير .

٢ — ثم مقدمة الكتاب ، وهى التى قدمها بهبود بن سحوان المعروف بعلى بن الشاه الفارسى (٢) . ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندى ، لدبشليم ملك الهند . كتابه الذى سماه « كليلة ودمنة » والسبب الذى من أجله أنفذ كسرى أنو شروان ملك فارس ، برزويه رأس الأطباء ، الى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة... وذكر الذى كان من بعثه برزويه الى مملكة الهند لأجل نقل الكتاب . وذكر فيها ما يلزم مطالعه من

---

(١) ترجمة الدكتور هنداوى ص ١٥ ، ٢٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٩٦

(٢) هو ابو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى وكان اديبا مفاكها فى نهاية الظرف والنظافه وتوفى سنه ٣٠٢ هـ (ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٧) .

www.ibtesamh.com/vb

إتقان قراءته ، والقيام بدراسته ، والنظر الى باطن كلامه .. وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرا ، وذكر السبب الذى من أجله وضع بزرجمهر بابا مفردا يسمى باب برزويه المتطبب ؛ وجعله قبل باب الأسد والثور الذى هو أول الكتاب .

٣ — والباب الثالث هو باب بعثة برزويه الى بلاد الهند ؛ أوفده كسرى أبو شروان كى ينسخ هذا الكتاب العظيم ، وقد فعل ، وطلب من الملك أن تكتب سيرته ، وعمله الجليل فى نقل هذا الكتاب وغيره ، وتضاف الى الكتاب ، فكلف وزيره بزرجمهر أن يفعل ذلك ففعل ، وكان من ذلك الباب الخامس .

٤ — باب عرض الكتاب أو غرض الكتاب . وهو من عمل ابن المقفع ؛ بين فيه سبب اختيار العلماء لهذا النوع من القصص الحيوانية وسيلة لتعليم الأخلاق .

ذلك أنهم حين وضعوا هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير وجدوا متصرفا فى القول وشعابا . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه .

٥ — باب برزويه مترجمة بزرجمهر بن البختكان .

وهو تاريخ حياة برزويه ، وكأنه هو الذى يقصه ، وفيه بيان لعمله فى مداواة الناس ، وموقفه من المرضى . وابتغائه الآخرة بعمله ، وسعيه فى طلب دين غير دين آبائه يسعده ، فلم يجد ، فآثر الصلاح والنسك ، والزهادة فى الدنيا ، حتى أرسله الملك الى بلاد الهند وانتسخ الكتاب .

---

(١) من يرجع الى تاريخ كسرى انو شروان ، يرى انه كان مشجعا للحركة العلمية والأدبية وللاصلاح العام ، وقد نقل فى ايامه كثير من كتب اليونان الى الفهلوية .

www.ibtesamh.com/vb

٦ — ثم تأتى أبواب الكتاب ، وأولها باب « الأسد والثور » . وفيه بيان مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال ، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء

٧ — وباب « الفحص عن امر دمنة » ، وهو منسوب الى ابن المقفع . وقد طلب فيه دبشليم من بيدبا أن يحدثه عما آل اليه أمر الواشى الماهر المحتال ، « وهو دمنة » ، الذى أفسد بين الأسد والثور .

٨ — ويليه باب « الحمامة المطوقة » . وفيها حديث عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض .

٩ — ويليه باب « البوم والغربان » ، وفيه مثل العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به ، وان أظهر تضرعا وملقا .

١٠ — باب « القرد والغيلم » ، وفيه مثل الرجل الذى يطلب الحاجة . فاذا ظفر بها أضاعها .

١١ — باب « الناسك وابن عرس » ، وفيه مثل الرجل العجلان فى امره من غير روية ولا نظر فى العواقب .

١٢ — باب « الجرذ والسنور » . وفيه مثل رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب ، فأشرف معهم على الهلاك ، فالتمس النجاة والفرج ، بموالاة بعض اعدائه ومصالحته . فسلم من الخوف وأمن ، ثم وفى لمن صالحه منهم .

١٣ — باب « ابن الملك والطائر فنزة » . وفيه مثل أهل الترات الذين لابد لبعضهم من اتقاء بعض .

١٤ — باب « الاسد والشغبر الناسك » ، وهو ابن آوى . وفيه مثل الملك الذى يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم ، أو جفوة من غير ذنب .

١٥ — باب « ايلاذ وبلاذ وايراخت » . وفيه يضرب بيدبا مثلا فى الأشياء التى يجب على الملك أن يلزم بها نفسه ، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه ويكون ذلك رأس أمره وملاكه ؛ « أبا لحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود »

www.ibtesamh.com/vb

١٦ — باب « اللبوة والاسوار والشغبر » . وضرب فيه مثلا فى شأن من يدع ضر غيره اذا قدر عليه ، لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره .

١٧ — باب « الناسك والضيف » . وضرب فيه مثل الذى يدع صنعه الذى يليق به ويشاكله ، ويطلب غيره فلا يدركه ، فيبقى حيران مترددا .

١٨ — باب « السائح والصائغ » ، وضرب فيه مثلا فى شأن الذى يصنع المعروف فى غير موضعه ويرجو الشكر عليه .

١٩ — باب « ابن الملك وأصحابه » . وقد بدأه دبشليم بقوله لبيدبا : « قد سمعت هذا المثل . فان كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته فى الأمور كما يزعمون ، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير ، والرجل الحكيم قد يصيبه البلاء والضر . قال بيدبا : كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه . كذلك العمل إنما هو بالعلم والعقل والتثبت ، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك . ومثل ذلك ابن الملك وأصحابه » .

٢٠ — وآخر الأبواب باب « الحمامة والثعلب ومالك الحزين » وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

وليس من المؤكد أن هذه النسخة المشهورة التى طبعتها المطبعة الأميرية مرات كثيرة. هى التى كتبها ابن المقفع (١) . فهناك نسخ مختلفة ، وبعض الكتب القديمة تنقل قطعا من كليلة ودمنة تخالف فى عباراتها هذه النسخة ، وترتيب أبواب الكتاب مخالف لكتاب « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » لابن الهبارية . فليس فيه باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . وباب

---

(١) النسخة التى وجدها الدكتور عزام فى ايا صوفيا باسطنبول ونشر عنها نسخة المحققة ترجع إلى سنة ٦١٨ هـ وهى أقدم نسخة .

www.ibtesamh.com/vb

ايلاذ وبلاذ وايراخت سماه ابن الهباريه « هيلاروبيلار وايراخت » وفى بعض الأمثال اختلاف .

والأبواب التى عدها جورجى زيدان تختلف شيئا ما عما فى النسخة المشهورة ؛ فباب ملك الفيران غير موجود فيها مثلا (١)

ويهمنا الآن أن نتحدث عن الكتاب من حيث .

١ ـ قصص الحيوان فيه ـ نرى أن أكثر أبوابه قد سميت بأسماء الحيوان وأن أكثر قصصه وردت على ألسنة الحيوان . وأبطالها من البهائم أو السباع أو الطير . حتى الأبواب التى تعتبر مقدمة كباب غرض الكتاب لاتخلو من كثير من قصص الحيوان ، تساق توضيحا لحكمه أو موعظة وتقرر مبدأ سياسيا أو إصلاحا اجتماعيا ، أو تبين حقا من حقوق الصداقة، أو واجبا من واجبات السلوك الإنسانى ففى « باب الحمامة المطوقة أنها وقعت هى وصاحباتها فى شرك صياد، فأشارت عليهن بالتعاون، فطرن جميعا مرة واحدة فاستطعن أن يحملن الشبكة ويطرن فى الجو ، فتتبعهن الصياد فأشارت عليهن أن يتخذن طريقا فوق العمران بدلا من الفضاء ليخفى طريقهن على الصاد ،ففعلتهن هذه الحيلة وأيس الصياد منهن وانصرف . فذهبت بهن إلى جرذ صديق لها وناديته باسمه ليخرج ويقطع الشبكة، فخرج وسألها عما أوقعها فى هذه الورطة .فأجابته بأن ذلك قدر لا يمتنع منه شىء . واراد ان يبدأ بقطع العقد الذى فيه المطوقة فقالت له: « ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدى فعجب من أمرها لأنها تؤثر غيرها على نفسها . فأخبرته أنها تخشى إن بدأ بتخليصها أن يمل ويكسل عن تخليص ما بقى من الحمام .

وفى هذه القصة الصغيرة فائدة التعاون وإعمال الفكر للخلاص من المأزق ثم فائدة الأصدقاء عند الشدة ؛ وبيان أن الخير والشر مقدران . وفيها مثل

(١) ـ ٢ ص ١٢٢ من تاريخ آداب اللغة العربية . ومقدمة الدكتور عزام

www.ibtesamh.com/vb

للايثار الذى حمل الحمامة على دعوة الجرذ إلى أن يؤخر تخليصها ويبدأ بصاحباتها .

٢ ـ الاستطراد من قصة إلى قصة ، حتى يجتمع من ذلك عدد من القصص قد لا يرتبط بالعنوان منها إلا القليل : ففى باب الحمامة المطوقة قصتها فى الشرك . ولكن أصل القصة غراب رأى صيادا قبيح المنظر بشبكته وعصاه فطار منه وذعر ، ثم تبعه حتى نصب الشبكة ووقع الحمام فيها ، ثم تبع الحمام إلى الجرذ حتى خلصهن ، فرغب فى مصادقة الجرذ ، فأبى عليه هذه الصداقة أولا لما بينهما من العداوة . وبعد جدل طويل تصالحا ، ورأى الغراب ان جحر الجرذ قريب من طريق الناس فنقله ، إلى مكان معتزل ، له فيه صديق من السلاحف ، وهو مخصب من السمك ، فلما بلغ العين التى فيها السلحفاة ذعرت منه ، ثم عرفت أنه صاحبها ، وأخبرها الغراب بقصة الجرذ مع الحمام فعجبت من عقل الجرذ ووفائه . وسألته عما ساقه إلى هذه الأرض ؟ فحدثهما باخباره لما كان فى بيت الناسك وجاءه ضيف ، وكان الفأر يثب إلى سلة الطعام والناسك يصفق بيده ليطرده ، فظن الضيف أن الناسك يسخر منه ، فاخبره أنه إنما يفعل ذلك لينفر جرذا عن سلة الطعام ، وأنه ضاق به ذرعا . فقال له الضيف لقد ذكرتنى قول الذى قال « لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور » فسأله الناسك عن القصة . فقال له : نزلت برجل ضيفا وبت عنده فسمعته يقول لامرأته فى آخر الليل إنه سيدعو رهطا ليأكلوا عنده . فعجبت من ذلك وليس عنده فضل عن عياله ، وهو لا يبقى شيئا ولا يدخره .

فاخبرها زوجها أن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب [1] وقص عليها قصة الرجل القانص الذى رمى ظبيا فاعترضه خنزير برى وهو

---

(١) هذه القصة وقصة السمسم موجودتان فى الباب الثانى من كتاب البانجا تانترا (مقدمة أنوار سهيلى ترجمة Eastwick)

www.ibtesamh.com/vb

راجع به إلى منزله ، فضربه بسهمه لكن الخنزير أدركه فضربه ضربة قاتلة فوقعا ميتين . فاتى عليهم ذئب ، ففكر فى أن يبدأ بوتر القوس ، ويدخر الرجل والظبي والخنزير . فلما انقطع الوتر أصابه طرف القوس فى حلقه فمات .

فعلمت الزوجة أن الجمع والادخار وخيم العاقبة ؛ وكان عندها أرز وسمسم فأخذت تعد العدة للضيوف . وقشرت السمسم ونشرته فى الشمس ليجف فجاء كلب فعاث فيه ، فاستقذرته المرأة وقايضت به سمسما غير مقشور ، مثلا بمثل . فقال رجل رآها تفعل ذلك : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور .

ثم يعود الحديث على لسان الجرذ للسلحفاة والغراب ، فيخبرهما أنه لما حفر ضيف الناسك جحر الفأر وجد كيسا فيه مائة دينار ، فأخذها الضيف وأخبر الناسك أن الجرذ سيصاب بالعجز ؛ لأنه ما كان يقوى على الوثوب إلا بهذه الدنانير ، وكان ما ظنه ضيف الناسك .

وأخبر الجرذ السلحفاة والغراب أن الجرذان التى كانت معه انصرفن عنه ، لما رأين عجزه عن أن يحضر لهن من السلة ما كان يحضر من الطعام . ففكر فى أن يسترد بعض الدنانير عسى أن يراجعه بعض أصدقائه . فشعر به الضيف ، فضربه على رأسه ضربة موجعة ، وكرر المحاولة وتكررت الضربات ، فكره المال كرها شديدا ، وترك بيت الناسك إلى البرية . وفى ذلك المكان جاءت اليه المطوقة ، وصادقه الغراب وحمله إلى السلحفاة .

ولما فرغ الجرذ من كلامه حدثته السلحفاة بكلام رقيق ، وأثنت على كلامه وساقت كثيرا من الأمثال والحكم .

وجاءهم فى هذا المكان ظبي فر من الصيادين فخافوا منه أولا ، ثم أنسوا به وأقام معهم . ثم غاب يوما فأرسلوا الغراب لينظر ، فرآه فى حبائل قانص . فأسرع الجرذ إليه ليقطع الحبائل ، ولحقت بهما السلحفاة . ووافاهم الصياد عند انتهاء الجرذ من قطع الحبائل ، فعدا الظبي ، وطار الغراب ، واختفى الجرذ ، ولم يبق

www.ibtesamh.com/vb

إلا السلحفاة ، فربطها القانص . ففكروا فى تخليصها ، بان يقع الظبي بمنظر القانص كأنه جريح ويحط الغراب عليه ، فإذا طمع القانص فى إدراكه جرى ووقع ثانية والغراب فوقه ، حتى يبعداه عن السلحفاة ، وفى أثناء ذلك يقرض الجرذ حبالة السلحفاة ويهرب بها ، ففعلن ، ثم يئس القانص من الظبي ، فعاد إلى السلحفاة فلم ير إلا حبائله مقطعة ؛ فقال هذه أرض جن أو سحرة ، وخرج منها ، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة فى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .

فبطل الباب شيء غير الحمامة المطوقة ، قد يكون الغراب أو الجرذ ؛ وقد اجتمع من القصص الاستطرادية مايزيد على ست : كالغراب مع الجرذ ، والجرذ فى بيت الناسك ، وقصة الذئب الذى مات بسبب طمعه ورغبته فى الادخار وقصة السمسم المقشور بغير المقشور ، وقصة التجاء الظبي إلى هؤلاء وصداقتهم له الخ ، ثم قصة وقوع السلحفاة فى شرك القانص وقصة تخليصها . وربما كانت القصص أكثر ارتباطا بالفكرة الخلقية فى هذا الباب منها بالعنوان

وإذا رجعنا إلى باب الأسد والثور وجدنا فيه من القصص الاستطرادية ما يزيد على خمس عشرة قصة ، بعضها قصير وبعضها طويل ، وقد لا يرتبط بعضها ببعض إلا برباط الاستطراد . وهذا الاستطراد قد ينسى القارىء القصص الرئيسية . وكثيرا ما يجد نفسه فى حيرة لا يدرى كيف تجمعت هذه القصص ، ولا يستطيع أن يتذكر الصلات التى بينها لضعفها ، ويقلب الصفحات التى مضت ليستعيد أصل الحكاية ويرى كيف تطورت . وقد يمل هذا النوع من الحكايات .

ولولا أسلوب ابن المقفع الذى يرضى الخاصة ومحبي البلاغة لضاق به الخواص أيضا .

وهذا يخرج ابن المقفع عن أن يكون قصصيا من الطراز الذى يملك نفوس سامعيه ، ويحملهم على الاستغراق فى قصصه .

www.ibtesamh.com/vb

ومما يثقل على القارىء أن ابن المقفع جعل نفسه واعظا أو خطيبا أو حكيما فى كل قصصه ،فتحدث ما استطاع عن الأخلاق والفضائل والعيوب الشخصية والعامة ،حتى كان ينسى القصة ويستمر صفحة أو أكثر فى مواعظه.

٣ — النظام الذى بنى عليه القصص فى هذا الكتاب هو أن يبدأ الملك دبشليم — فيما عدا الباب الأول — بقوله للفيلسوف « عرفت هذا المثل » مشيرا إلى ماسبق فى الباب الذى قبله ؛ أو عرفت مثل كذا فاضرب لى مثل كذا ؛فيجيب الفيلسوف أو بيدبا — بقول عام يشبه أن يكون حكمة ، لايخرج فى معناه عما سأل عنه الملك ، ويشير إلى القصة ، فيقول له الملك : « وكيف كان ذلك » . فيقول الفيلسوف : « زعموا » ثم يأخذ فى سرد القصة ؛ ولنأخذ لذلك مثلا أول باب الحمامة المطوقة :

« قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب ، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك . فحدثنى إن رأيت ؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض .

« قال الفيلسوف . إن العاقل لا يعدل بالاخوان شيئا ؛ فالاخوان هم الأعوان على الخير كله ،والمؤاسون عندما ينوب من المكروه . ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا زعموا أنه كان بأرض « سكاوندجين » عند مدينة داهر ، مكان كثير الصيد » ... ويستمر فى قصصه عن الحمامة والغراب والجرذ والسلحفاة والظبى حتى ينتهى كما قدمنا .

٤ - يلاحظ أن الأبواب الاولى طويلة والاستطراد فيها كثير فباب الأسد والثور من صفحة ٩١ إلى ١٥٣ - والحمامة المطوقة ١٧٧ - ٢٠٠ . والقرد والغيلم من ٢٠٠ - ٢٢٢ ثم تأخذ الابواب في الإيجاز بسبب قلة

www.ibtesamh.com/vb

الاستطراد . وبعضها لايتجاوز ثلاث صفحات، كباب الناسك وابن عرس والناسك والضيف .

ولكن ابن المقفع يمتاز بأنه :

١ ـ أول من طرق هذا النوع فى الأدب العربى ونجح فيه نجاحا عظيما .

٢ ـ وأنه قصصى ممتاز فى القصص القصيرة التى يقصها استطرادا .

ولو رأينا قصصه منفصلا بعضها عن بعض . واستقلت بعناوين لكانت خيرا .

٣ ـ وأنه حكيم أوفيلسوف أخلاقى، يجيد الحديث عن الفضائل والرذائل ويحللها ويشرح مضارها أو منافعها للناس بطريقة أدبية عالية ، وقد يزيد على على القدر المناسب للقصة الأصلية ،فينقلب ذلك عيبا فى القصة ، فقدجاء فى باب الاسد والثور . أن كليلة نصح دمنة عندما أرادالاتصال بالاسدفقال له:

« فإنى أخاف عليك من السلطان فان صحبته خطرة ، وقد قالت العلماء:إن أمورا ثلاثة لايجترىء عليهن إلا أهوج . ولا يسلم منهن إلا قليل ؛ وهى صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة . وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى ، الذى فيه الثمار الطيبة ، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة ؛ وهومع ذلك معدن السباع والثور والذئاب وكل ضار مخوف ، فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد » (١)

٤ ـ وهو صاحب أسلوب من الطراز الأول فى الأدب العربى . يعنى بالمعنى ، ويختار من الألفاظ أشرفها وأبعدها من الابتذال ،ويزهدفى الصناعة اللفظية إلا ماجاء عفوا،ويرتب المعانى على طريقة المناطقة،مع العنايه بتوضيحها والوفاء بها ، من غير حشو ولا فضول ؛ ويغلب عليه تنويع العبارة ، وتقطيع

---

(١) ص ١٠١

www.ibtesamh.com/vb

الجمل، والمزاوجة بين الكلمات ، أما الحكم المأثورة والأمثال السائرة فكثيرة فى كتابه هذا . وإذا كان طبع ابن المقفع ميالا الى الحكمة والنصيحة فان كتاب كليلة ودمنة كان أصلح ميدان لبث هذه الحكم والأمثال .

وقد تقرأ الباب الطويل من كليلة ودمنة فلا تعثر فيه على سجعة مستكرهة ، أو ازدواج متكلف ، أو تقفية نابية . وكان يميل الى التقسيم فى التعبير ،ويربط بين اجزاء الفقرة المتعددة الجمل برباط من التسلسل المنطق .

على أن إيثاره للايجاز قد يؤدى به الى الغموض ،حتى تحتاج الفقرة إلى قراءتها أكثر من مرة كى تفهم كقوله (١) « وقد كان يقال :ان من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى ، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط . فاذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا؛ وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء ؛لأن العلة إذا كانت الموجدة فى ورودها كان الرضا مأمولا فى صدورها » .

وقد يميل الى الأسهاب أحيانا كقوله (٢): « وقد قيل لاخير فى القول إلا مع العمل ،ولا فى الفقه إلا مع الورع ولا فى الصدقة الا مع النية ،ولا فى المال إلا مع الجود ، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء ، ولا فى الحياة إلا مع الصحة ، ولا فى الأمن إلا مع السرور » .

كما يستعين على توضيح معانيه بالتشبيه الجيد كقوله (٣): «واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ويزيد الأحمق طيشا ؛ كما أن النهار يزيد كل ذى نظر بصرا ، ويزيد الخفاش سوء نظر على نظره » .

وقوله فى قلة المال (٤): « ما الاخوان ولا الأعوان ولا الاصدقاء إلا بالمال؛ووجدت من لامال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده، كالماء الذى

---

(١) باب الأسد والثور ص ١٢٩

(٢) ص ١٤٤ (٣) ص ١٤٥ (٤) ص ١٩٠

www.ibtesamh.com/vb

يبقى فى الأوديه من مطر الشتاء ، لايمر إلى نهر ولا يجرى إلى مكان ، فتشربه أرضه . ووجدت من لا اخوان له ، لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لامال له لا عقل له ، ولا دنيا ولا آخرة له : لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه ، فان الشجرة النابتة فى السباخ المأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى الناس . ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالبا إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة . ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا ، وأساء الظن به من كان يظن فيه حسنا ؛ فان أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا . وليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم ، فان كان شجاعا قيل أهوج ، وإن كان جوادا سمى مبذرا ، وإن كان حليما سمى ضعيفا ، وإن كان وقورا سمى بليدا » .

٥ — وهو أديب الخاصة : كان ابن المقفع يكتب أدبه للخاصة من الحكماء والعلماء والأعيان . وسبب ذلك انه قد نشأ نشأة أرستقراطية فكان أبوه واليا للخراج ، وهو عمل عظيم عندئذ . وكان هو عالى النفس بعيد الهمة وثابا إلى العلا ؛ وكان ولاؤه وولاء أبيه فى آل الأهتم من أشراف تميم ، كما كان اتصاله بالأعيان فى دولة بنى أمية وفى دولة بنى العباس . فكان ذلك كله سببا فى أن يفهم حسنات الخواص وعيوبهم . وكانت نفسه نزاعة إلى الاصلاح ميالة إلى التعمق فى دراسة الحياة الاجتماعية والنظم السياسية ، ترى ذلك فى اتجاهاته عند اختيار موضوعاته الأدبية للترجمة أو للانشاء [1] . ولا يطعن فى هذا أنه ترجم كليلة ودمنة . وهى قصص ترد على ألسنة الحيوان « فيسارع إلى قراءتها أهل الهزل من الشبان » ؛ إذ أنه قد بين فى باب عرض الكتاب ما يجب على قارئه من تدبر لمعانيه ، واستبطان لقصصه ، وعمل بما ترمى إليه ، ووقوف عند كل مثل وكلمة ، وإعمال الروية فيها ليصل إلى الغرض الرابع من

---

(١) ضحى الاسلام حـ ١ ص ٢١٦

www.ibtesamh.com/vb

الكتاب ، وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

ومن أجل هذا كان أسلوبه عاليا .

ومما يتصل بما قدمناه ما قيل فى سبب ترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب . قيل انه ترجمه وأراد به وعظ المنصور ، لما رأى من شدته وبطشه واحتكامه إلى السيف فى شأن كثير من الناس . ورأى أن رسالة الصحابة التى خاطب فيها أمير المؤمنين - المنصور - لم تؤت ثمرتها ، وأعجبه فى الكتاب أنه يشبه بيدبا مع دبشليم ، فيجب عليه النصح للملوك كما وجب على بيدبا .

كان ابن المقفع أول من أحدث هذا النوع من الأدب فى اللغة العربية وما زال إلى الآن خير من كتب هذا النوع فى اللغات الشرقية ويعتبر واحدا من ثلاثة اشتهروا أكثر من غيرهم فى باب الخرافات ، أولهم أيسوب ، وثانيهم ابن المقفع ، وثالثهم لافونتين .

مقلدوه فى القرن الثانى

وقد أحدث نشاطا فيمن جاءوا بعده من أدباء العصر العباسى ، فاتجهت أنظارهم إلى هذا النوع من القصة ؛ ولكنهم لم يبلغوا مبلغ ابن المقفع ، أو ضاعت آثارهم فلم يسعدوا بما سعد به من الشهرة فى هذا الباب (٢) « ومنهم أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسى وقد خدم المنصور وابنه المهدى » . فاذا صح هذا كان كتاب ابن المقفع سريع الثمرة ؛ إذ الظاهر أن أبا سهل كان معاصرا له . وقد روى ابن النديم فى الفهرست (٢) أنه كان صاحب الفضل فى خزانة الحكمة أيام الرشيد ، وأن له عدة كتب نقلها من الفارسية إلى العربية ليس بينها نظم كليلة ودمنة . ولكن كشف الظنون (٣) فى عرض كلامه عن

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣٢

(٢) ص ١٧٤ (٣) ج ٢ ص ٣٢٩

www.ibtesamh.com/vb

هذا الكتاب يقول : ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن خالد البرمكى فى خلافة « المهدى سنة ١٦٥ هـ ، ونظمه أبوسهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد وزير المهدى أوالرشيد . فلما وقف عليه أجازه بألف دينار » . فاذا صح هذا كان عمله أول نظم لهذا الكتاب عرف فى تاريخ الأدب العربى . ونظمه ابان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا كما نظمه على بن داود ، كاتب زبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد . ونظم بعضه بشر بن المعتمر (١) . وكل هذه المنظومات ضاعت إلا الأخيرة ، فقد رواها الجاحظ وليس فيها شىء من قصص الحيوان ، وكل مافيها إشارات إلى عجائبه وطباعه .

ونظم سهل بن هارون كتابا على مثاله سماه « ثعله وعفراء » (٢) قلده فى أبوابه وأمثاله . وذكره ابن النديم فى البلغاء و ، قال انه شاعر مقل ، وعده فى الشعراء والكتاب ، وقال إنه كان يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، هو وعبد الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده ، وله كتاب « النمر والثعلب » .

وقال المسعودى عنه : « يزيد عليه - أى على كليلة ودمنة — فى حسن نظمه ؛ وقد صنفه للمأمون » . ومن كلام له فى كتاب « ثعله وعفره » :

« اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ؛ فان تقديم النافلة مع الابطاء فى الفريضة شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية مضر بالتدبير ومخل بالاختيار . فليس فى نفع تحمدبه ، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة » (٣) .

---

(١) ج ٦ ص ٩٢ الحيوان للجاحظ . انظر ترجمته فى ذيل ص ١٠٦ من البيان والتبيين شرح السندوبى

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٥

(٣) عصر المأمون ج ٣ ص ٥٢ ، وأخبار سهل فى الأغانى ج ١٨ من ٢٩ - ٦١

www.ibtesamh.com/vb

كانت طريقة «سهل» طريقة سيدنا على، وكذلك، قيل عن ابن المقفع؛ وكان عديم التكلف فيما يترجم، حتى يبدو كأنه من إنشائه، وكان فارسيا مثله، ومن بلدته «خوز» نفسها، وعراقى المنشأ أيضا. أهذا هو السبب فى اتجاهه إلى هذا الأدب الذى بدأه ابن المقفع؟ ربما كان ذلك. (١)

ثم نظمه ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ فى كتاب «نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة».

ونظمه القاضى الأسعد بن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦، لصلاح الدين الأيوبى وضاع نظمه (٢). وجاء بعده عبد المؤمن بن الحسن الصاغانى، من أهل القرن السابع للهجرة، فنظمه أو شيئا منه أو كتابا على مثاله، وسماه «درر الحكم، فى أمثال الهنود والعجم» (٣). ثم نظمه جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع. ومن نظمه نسخة فى مكتبة الآباء اليسوعيين فى بيروت وأخرى فى المتحف البريطانى.

ومن الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية، وكتاب «سلوان المطاع فى عدوان الطباع» لأبى عبد الله محمد بن أبى قاسم، المعروف بابن ظفر. وكتاب «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» وكتاب «مرزبان نامه» لابن عرب شاه. وفى كشف الظنون أن أبا العلاء المعرى ألف كتابا اسمه «القائف» على مثال كليلة ودمنة، وهو فى ستين كراسة، ولم يتم، وأن له كتاب «منار القائف» يتضمن تفسيره فى عشرة كراريس (٤).

---

(١) عصر المأمون ج ٢ ص ٤٨ و ٥٠

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٨٤

(٣) فى ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٢١ ان هذا الكتاب لابن الهبارية وأكمله الصاغانى، ومنه نسخ خطية فى فينا وميونخ.

(٤) ج ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية، وضحى الاسلام ج ١ ص ٢٢١

www.ibtesamh.com/vb

ونظمه ابان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا . وفى كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ترجمة لابان ، اورد فيها كثيرا من أخباره وأشعاره واتصاله بالبرامكة فقال (١) :

« أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفر مولى بنى رقاش من أهل البصرة شاعر مطبوع ، مقدم فى العلم بالشعر والحفظ له . قدم بغداد فاتصل بالبرامكة وانقطع إليهم ، وعمل لهم كتاب كليلة ودمنة فحسن موقعه منهم . ويقال إنه قلب الكتاب فى ثلاثة أشهر إلى الشعر ، وهو أربعة عشر ألف بيت . وذكر حمدان ابنه أنه كان يصلى ولوح موضوع بين يديه ، فاذا صلى أخذ اللوح فملأه من الشعر الذى صنعه ، ثم يعود إلى صلاته .

ويقول الصولى (٢) ... حدثنا حماد بن اسحق قال : ألزم يحيى بن خالد البرمكى أبان بن عبد الحميد دارا لايخرج منها ، حتى ينقل كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر ، فوهب له عشرة آلاف دينار . قال : ويقال : إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة ، فقال له ابان بن عبد الحميد ، أنا أعمله شعرا يخف على الوزير حفظه ، فنقله إلى قصيدة عملها مزدوجة ، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت فى ثلاثة أشهر ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ، وقال له جعفر بن يحيى : ألا ترضى أن أكون راويتك لها ! ولم يعطه شيئا . قال فتصدق بثلث المال الذى أخذه . »

وفى هذا الخبر إشارة إلى اهتمام البرامكة بهذا الكتاب ، وربما كان ذلك راجعا إلى تشجيعهم العام للحركة العلمية والأدبية فى زمنهم ؛ يضاف الى هذا أن الكتاب فارسى الأصل وابن المقفع فارسى . كما كان ابان ، وكما كان البرامكة أيضا . وقد يكون ماذكر عن الفضل بن نوبخت صحيحا ، ويحتمل كذلك أن نقل عبد الله بن هلال الأهوازى للكتاب كان باشارة من يحيى بن خالد ، وكأن

---

(١) ص ١ (٢) ص ٣

www.ibtesamh.com/vb

يحيى جعل نظمه مباراة ، وأجاز عليها هؤلاء الناظمين ، وهم من الفرس ، وقد أورد الصولى منها أكثر من سبعين بيتا (١) بعضها من المقدمة وبعضها من « باب الأسد والثور » وجعلها كلها من هذا الباب ، وقد تتبعت هذه الأبيات وأصولها فى كليلة ، فوجدت أن ما اختاره الصولى لم يكن من موضع واحد ، وانه جمع بين الأبيات مع اختلاف مآخذها من الكتاب . فبدت للقارىء مفككة ؛ وقد أشار إلى شىء من ذلك المستشرق « هيوارث دن » فى ذيل كتاب الأوراق عندما أورد البيت :

قال له السبع لقد سمعت وكل ماتقول قد فهمت

حيث يقول : « فالضمير فى « له » لم يتقدم مرجعه فى هذه الأبيات المختارة » وقد أورد الصولى فى الكتاب نفسه (٢) مايدل على انه اختار هذه الأبيات من أماكن متفرقة ؛ وفى عبارته شىء من الاضطراب ، قال أبو بكر فى ختام هذه الأبيات .

« والله ما أدرى . لا ما اخترت ولا ماتركت ، ولو علمت حقيقة هذه القصيدة ماضمنت ما تضمنت ، لأنها قصص لايحسن بعضه إلا ببعض والاحسان فيها قليل . فقد أضربت عن ذكرها والاختيار منها . وفيما حكينا مما ذكرناه منها غنى وكفاية . »

وأحب أن أورد بعض الأبيات ومآخذها لنرى نوع الشعر الذى نظمه أبان ـ ومقدار تصرفه . ونتخذ هذه الأبيات أساسا للمقارنة عند الكلام على نظم ابن الهبارية لها .

قال أبان :

الأهل والاخوان والأعوان عند ذوى الأموال حيث كانوا

---

(١) والأغانى لم ينقل منها إلا البيتين الأولين فى ترجمة ابان ج ٢٠

(٢) ص ٥٠ كتاب الأوراق .

www.ibtesamh.com/vb

والمال هادى الرأى والمروءه وهو على كل الأمور قوه
والمال فيه العز والجمال والذل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقير فقره إلى التى يحبط فيها أجره
فيخسر الدين كما كان خسر دنياه ، والخسران مالا ينجبر
وليس من شىء يكون مدحا لذى الغنى إلا يكون برحا
على الفقير ، ويكون ذما كذاك يدعى وبه يسمى
فان يكن نجدا يقولوا أهوجُ كذاك عند الحرب لايعرج
وهو إذا كان جوادا سيدا سمى ، للفقر ، مضيعاً مفسدا
أويك ذا حلم يُقل ضعيف أو يك بساما يقل سخيف

هذه الأبيات العشرة من باب الحمامة المطوقة ، وإن كانت موجودة فى كتاب الأوراق مع غيرها من الأبيات تحت عنوان باب الأسد والثور . وليس هناك أبواب باقية من نظم أبان غير هذا الباب . والأصل الذى نقلت عنه هذه الأبيات من كتاب كليلة ودمنة جاء فى كلام الجرذ الذى هجره إخوانه ، لما ضعفت قوته عن الصعود إلى السلة لإحضار الطعام ، وضعفت قوته لأن ضيف الناسك هدم جحره وأخذ منه كيسا من الدنانير ، ظنا منه ان هذه الدنانير كانت مصدر قوته ، وقد صدق ظنه ، قال الفأر لما جفاه إخوانه عندئذ [1] :

« وما الاخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده ؛ كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء ، لا يمر إلى نهر ولا يجرى إلى مكان ، فتشرب به أرضه » .

والذى يوازن بين هذه الفقرة وبين الأبيات الثلاثة الأولى يرى أن البيت الأول كالجملة الأولى ، وربما كان أبان موفقا فى هذا النظم . والبيت الثانى

---

(١) كليلة ص ١٨٩

www.ibtesamh.com/vb

قد تجاوز هذه الفقرة فى الشطر الأول وعاد اليها فى الشطر الثانى . وقوله : « وهو على كل الأمور قوة » عكس قول ابن المقفع « قعد به العدم عما يريده » وهو مفهوم منه .

أما التشبيه — على غموضه — فليس له ذكر فى أبيات أبان .

وليس من العدل أن نتهم أبان بالتقصير إذ أن هذه الأبيات مختارات وقد يكون فيما تركه الصولى ما يساوى الموجود عند ابن المقفع ، أو قد تكون الطبعة التى عندنا مخالفة للتى نقل منها ابان .

ويتضح مما تقدم :

١ — الدقة فى النقل عن ابن المقفع . فهذه الأبيات الخمسة الأخيرة تكاد تساوى النثر عند ابن المقفع وان اختلفت الألفاظ .

٢ — ليس فى النظم تلك القوة التى نحس بها فى نظم الحكم أو القصص إذا كان الشاعر غير مقيد بالنقل عن كتاب . وليس أبان من الضعف فى الشعر الى هذا الحد الذى نراه هنا .

٣ — لا ندرى شيئا كثيرا عمن نظم هذه القصص فى القرن الثانى ، ولم يبق لنا من نظم أبان إلا هذه الأبيات القليلة التى تزيد على السبعين قليلا ، مع أن الصولى يقرر ان منظومة أبان حوالى أربعة عشر الف بيت » .

ولو بقى لنا شىء كثير لاستطعنا الموازنة . غير اننا نستطيع أن نقرر ، مما بقى لنا ، انه التزم فيها طريقة معينة فى البحر والقافية ، فاختار الرجز لسهولته وكثرة ما يدخله من زحافات وعلل تجعل من اليسير على الشاعر أن يجول فى ميدان واسع عند اختيار الكلمات التى يؤلف منها بيته ، بحيث يكون قريبا من المعنى الأصلى . واختار القافية المزدوجة التى يستطيع أن يغيرها من بيت إلى بيت . وفى هذا تيسير على الناظم أيضا ، لانه يستطيع أن يتحرر من قيود القافية الواحدة التى يكون مجال الاختيار فيها محدودا .

٤ — كان أبان أستاذا فى ذلك لابن الهبارية وغيره ممن نظموا — وليس

www.ibtesamh.com/vb

عندنا إلا نظم ابن الهبارية - وربما كانت طريقته هذه توجيها للذين نظموا العلوم : وأبان أول من استخدمها ، فى نظم :

« قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان عن فم الرواة »

وليس من غايتنا أن نحبذ نظم العلوم ، فإن العلوم أبعد الأشياء عن القيود الكلامية ؛ ولكننا نقرر هنا ما حدث ، ونحاول أن نبين فضل السابق إن كان له فضل .

وقد نظم قصص الحيوان فى عصرنا هذا كثير من الشعراء فجاء أرق وألطف من نظم أبان ومن نظم ابن الهبارية . وكتب المحفوظات ، وكتب القصص الحيوانية ؛ كالعيون اليواقظ وآداب العرب وقصص شوقى ، تشهد بأن النظم قد رق على أيدى المحدثين واستطاعوا أن يأتوا بقصائد قصصية من هذا النوع بلغوا فى تجويدها حدا كبيراً .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الفصل العاشر

تداعي الحيوانات على الإنسان

هذه الرسالة ألفتها جماعة « إخوان الصفا » [1] وطبعها « فريدرخ دزيصى [2] فى برلين سنة ١٨٧٩ م » وجعل عنوانها « فى تداعي الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن »

وخلاصتها : أن بنى آدم لما سكنوا الأرض وأمنوا فيها سخروا الحيوان لخدمتهم ، وحبسوه فى ديارهم ، وفر منهم إلى البرارى كثير من الحيوانات فطاردوها فيها واحتالوا لصيدها ، وهم يعتقدون أنها عبيدلهم هربت وطغت .

وبعث محمد صلى الله عليه وسلم فأسلم طائفة من الجن . وبقوا كذلك حتى ولى عليهم ملك منهم اسمه « بيوراسب الحكيم » ولقبه « شاه مردان » . وكان دار مملكته فى جزيرة طيبة الهواء والتربة والأنهار والثمار ، يقال لها « بلاصاغون » فى وسط البحر الأحمر مما يلى خط الاستواء [3] .

---

(١) تألفت هذه الجماعة فى القرن الرابع الهجرى فى البصرة . والمشهور من أمرها أنها كانت جماعة فلسفية من حيث التفكير شيعية من حيث العقيدة ، ثائرة على النظام السياسى القائم ، يريدون أن يستبدلوا به غيره . يعظمون الأنبياء والفلاسفة ورعاة الدين من كل ملة ، ويمزجون فى رسائلهم الفلسفة بالدين ويضمنون هذه الرسائل أكثر ماعرف فى ذلك العصر من مسائل الفلسفة والرياضة والمنطق والطبيعيات والإلهيات ويحاولون نقد المجتمع ونظامه ، والتفكير السائد فيه نقداً لاذعا .

(٢) مستشرق ألمانى (١٨٢١ — ١٨٨٨ م)

(٣) هذا المكان موضع مختار لكثير من كتاب القصص كما فى ألف ليلة وفى حى بن يقظان .

www.ibtesamh.com/vb

وطرحت العاصفة يوما مركبا ، إلى ساحل تلك الجزيرة فخرج من فيه من التجار والصناع وأهل العلم ، واستطابوا الحياة فيها ، وأخذوا يتعرضون لحيوانها ، فنفر منهم ، فجدوا فى طلبه لاعتقادهم أنه عبيد لهم . فهرب منهم الحيوان ، وشكا أمرهم إلى « بيوراسب » ملك الجن ، فدعا بنى الإنسان إلى حضرته وأكرم وفادتهم ؛ ثم سألهم على لسان ترجمانه عما جاء بهم ، فأخبروه أنهم سمعوا بعدله وكرمه ، فجاءوا يطلبون حكومته وعدله ، ويخاصمون عبيدهم الآبقين بين يديه . فسألهم حجتهم ، فقال زعيم الإنس : لنا دلائل شرعية وحجج عقلية . وقام خطيب من الإنس من أولاد العباس رضوان الله عليه فبين تلك الحجج من القرآن ، واستغفر الله ونزل .

ثم دعا الملك البهائم والأنعام للرد ، فقام زعيمها وهو البغل ، فبين أن الله خلق الأكوان آمنة عامرة ، ثم خلق الإنسان فى الأرض لعمارتها ؛ وحفظ الحيوان والانتفاع به . ورد على ما جاء به الإنسى من آيات ، وقال إنه ليس فى شىء منها دلالة على ما زعم الناس من أنهم أرباب والبهائم عبيد . وشكا ما أصابهم من ظلم واستعباد بعد ظهور الناس على الأرض ، ورفض مايقوله الناس عن سيادتهم للحيوان .

ودعا الملك طوائف من قضاة الجن وعدولها وفقهائها ، ومن الجنود والأعوان ، لاستماع رأى كل من الفريقين ، والفصل بينهما . وجاء كل فريق بحجته .

وخلا الملك ببعض وزرائه وقضاته وسألهم رأيهم . ورأى رئيس الفقهاء أن تكتب البهائم قصة ما تلقى من جور بنى آدم ، ويفتى فيها الفقهاء ، وسيحكم القاضى لهم ، إما بالبيع أو بالعتق أو بالتخفيف والإحسان إليهم . فإن لم يفعل بنو آدم ماحكم به القاضى ، وهربت هذه البهائم فلا وزر عليها ، ووافقت جماعة الجن على ماقال ، إلا صاحب العزيمة من آل بهرام فإنه رأى أن يأمر الملك هذه البهائم والأنعام الأسيرة أن تهرب فى ليلة

www.ibtesamh.com/vb

واحدة كما هرب الوحوش . وأن تعاونها الجن فى ذلك ، بفك قيودها وكسر الأبواب المغلقة عليها .

ولكن قائلا منهم حذرهم عداوة الأنس وذكرهم بما جرى بين آدم وبنى الجان فى الدهور السالفة .

فسأله الملك أن يقص شيئا من هذا ، فقص عليه قصة الخلق والعلاقة بين آدم وإبليس ، وإبائه السجود له ، فطرده الله من الجنة ؛ فنشأت العداوة بين بنى آدم وبنى الجن من ذلك الوقت إلى الآن .

واستعرض تاريخ العلاقة بين الجن والأنس إلى ان بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأسلم بعض الجن وصلح الأمر بينهما. ثم قال حكيم الجن لقومه : لاتتعرضوا لهم ولا تفسدوا الحال بينكم وبينهم ولا تحركوا الاحقاد الساكنة ولا تثيروا العداوة القديمة المركوزة فى الطبائع والجبلة ، فإنها كالنار الكامنة فى الاحجار تظهر عند احتكاكها .

وجمع الملك مجلس القضاء أكثر من مرة ، وتحدث فيها الحيوان والناس وبين كل حجته . وعرض لحجة الآخر فدحضها . حتى قال خطيب من الحجاز إن الناس يمتازون على غيرهم بالخلود والبقاء ، وعندئذ سلم الجن والحيوان بالفضل للناس :

« فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعها تحت أوامرهم ونواهيهم ، ويكونوا منقادين للانس . فقبلوا مقالته ، ورضوا بذلك ، وانصرفوا آمنين فى حفظ الله تعالى وأمانه » .

وقد ختمت الرسالة بقول اخوان الصفا :

« ونحن قد بينا فى هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب ، على لسان الحيوانات ، فلا تظن بنا ظن السوء ، ولا تعد مقالتنا لعبة الصبيان ومخرقة الاخوان ، لأن عادتنا جارية على أن نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات ، وتشبيهات على لسان الحيوانات ؛ ومع هذا لانخرج عما

www.ibtesamh.com/vb

لمحن فيه ، عسى أن يتأمل المتأمل فى هذه الرسالة ، ويتنبه من نوم الغفلة ، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم ، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم ، لعله يفوز بالموعظة الحسنة . وفقكم الله ايها الاخوان لاستماعها ، وفهم معانيها ، وفتح قلوبكم ، وشرح صدوركم ، ونور ابصاركم لمعرفة اسرارها ، ويسر لكم العمل كما فعل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو حسبنا ونعم النصير . »

(١) تضمنت هذه الرسالة كثيرا من آراء اخوان الصفاء فى الخلق منها . أن البهائم والجن أقدم من الإنسان . وأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شىء على صورة مخصوصة لحكمة ، كما بين ذلك زعماء الحيوان (١) ، وأن من يعيب الصنعة فقد عاب الصانع ، وقد ورد فى قول زعيم البهائم : « تجد كل حيوان جعل الله له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه ، لجر منفعة أو دفع مضرة ، وإلى هذا المعنى أشار موسى عليه السلام فى سورة طه ، قالَ : رَبُّنَا الذى أعطىَ كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثم هدَى » (٢)

(٢) وفى هذه الرساله صورة من علم إخوان الصفا بطبائع الحيوان وصفاته ومساكنه ، والامثلة على هذا كثيرة منها ماجاء فى حديث ملك النحل إذ يقول (٣) : « وما خصنا به وأنعم به علينا أن جعل خلقة صورتنا وهياكلنا وجميل أخلاقنا ؛ وحسن سيرتنا ، وتصاريف أمورنا ، عبرة لأولى الالباب ، وآية لأولى الابصار ، وذلك أنه خلق لى خلقة لطيفة ، وبنية نحيفة ، وصورة عجيبة . بيان ذلك أنه جعل بنية جسدى ثلاث مفاصل محزوزة فجعل وسط جسدى مربعاً مكعبا ، ومؤخر جسدى مدمجا مخروطا ، ورأسى مدوراً مبسوطا ، وركب فى وسطى أربعة أرجل ويدين ، متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس فى الدائرة ، لاستعين بها على القيام والقعود

---

(١) ص ٥ (٢) ص ٧ ، ٨ ، ٩ (٣) ص ٨٦

www.ibtesamh.com/vb

والوقوع والنهوض ، وأقدر أساس بناء منازلى وبيوتى على أشكال مسدسات مكتنفات كى لايدخلها الهواء فيضر بأولادى أو يفسد شرابى . . . .

ومن الأشياء العجيبة وصفهم للتنين والعنقاء[١]. وعلمهم العظيم بصفات الناس وأعمالهم وصفات بلادهم ، كما جاء فى خطاب الخطباء من بنى آدم فى أكثر من موضع .

(٣) وهم متأثرون بالفلسفة اليونانية ، ومن ذلك ما جاء على لسان فيلسوف من فلاسفة الجن ، إذ قال لملكه[٢] : « واعلم أيها الملك الحكيم أن هذه الصور والأشكال والصفات التى تراها فى عَالمَ الأجسام ، وظواهر الاجرام ، هى مثالات وأشباح وأصنام لتلك الصور التى فى عَالمَ الأرواح غير أن تلك نورانية شفافة ، وهذه ظلمانية كثيفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كمناسبة التصاوير التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والاشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور فى عَالم الارواح محركات وهذه متحركات ... وهذه محسوسات وتلك معقولات ، وتلك باقيات وهذه فانيات باليات ، زائلات فاسدات . » فهذه آراء أفلاطون المعروفة بنظرية « المثل »[٣] .

وفى الكتاب كثير من الشواهد القرآنية ، وكثير من طرق الاستدلال الدينية ، يوردها خطباء الجن والإنس والحيوان تأييداً لرأيهم .

(٤) ومن مظاهر الفلسفة الهندية عندهم فكرة التناسخ ، فإنه لما خاف الجن أن يغلب الناسُ الحيَوانَ بفصاحتهم ، قال ملك الجن . « تصير هذه البهائم فى الاسر والعبودية إلى أن يقتضى دور القرن ، ويتأنف نشء آخر

---

(١) ص ٧٠ ، ٧١ (٢) ص ٥٨

(٣) خلاصتها : عالم الأشياء الذى يحيط بنا انما يصور عالما آخر قوامه افكار عقلية فكل شىء هنا شبح لفكرة هناك . قصة الأدب ج ١ ص ٢٤٦ .

www.ibtesamh.com/vb

ويأتى الله بالفرج والخلاص . . . فان أيام هذه الدنيا دول بين أهلها ، تدور باذن الله وسابق علمه ونفاذ مشيئته ، بموجبات أحكام القرانات والادوار فى كل ألف سنة مرة ، أو فى كل اثنى عشر ألف سنة مرة ، أو فى كل ست وثلاثين ألف سنة مرة ، أو فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة مرة ، أو فى كل يوم مقداره خمسون ألف سنة مرة [١] . »

وهذه شبيهة شبها ما بما قال به البوذيون من انتقال الارواح وترقيها فى الابدان حتى تصل إلى الاندماج فى الله [٢] .

(٥) يرى إخوان الصفاء تفضيل الناس على غيرهم من المخلوقات بالعقل ؛ إذ جاء على لسان رسول التنين « ليس يفتخر بنو آدم بشىء من هذه » — يقصد الضخامة والقوة والغلبة — ولكن برجحان العقول وفنون العلوم وغرائب الآداب ، ولطائف الحيل ، ودقة الصنائع والفكر والتمييز والروية وذكاء النفوس [٣] .

(٦) يرون أن الإنسان ، على الرغم من امتيازه بالعقل والشرائع ، قد حاد عن الصراط المستقيم بسبب سوء انتفاعه بالعقل والشرائع ، وبسبب أنه ترك أخلاق الملائكة ، وتخلق باخلاق الشياطين [٤] .

(٧) وقد عابوا على الناس كثيراً من صفاتهم وأعمالهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الحيوان . وعابوا عامتهم وخاصتهم . فقد عابوا العلماء والفقهاء والقضاة من بنى آدم على لسان النمر إذ قال للأسد [٥] : « ولكن أرى أن العلماء والفقهاء والقضاة من بنى آدم قد تركوا هذه الطريقة التى قلت إنها أخلاق الملائكة ، وأخذوا فى ضروب من الشياطين ، من المكابرة والمغالبة والتعب والبغضاء فيما يتناظرون ويتجادلون ، من الصياح

---

(١) ص ٣٦ . (٢) قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٦٣ .
(٣) ص ٤٨ (٤) ص ٦٥ وغيرها . (٥) ص ٣٣

www.ibtesamh.com/vb

والجلبة والشناعة . وهكذا نجد فى مجالس القضاة والحكام ، يفعلون ماذكرت وتركوا استعمال الأدب والعدل والنصفة . »

ويفسر مساكنة الكلاب لبنى آدم بان ذلك « راجع إلى مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق ، . . . وما فى طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل وماشاكلها من الاخلاق المذمومة الموجودة فى بنى آدم مما السباع عنه بمعزل (١) . »

وشمل نقدهم للانسان طعامه وشرابه ومساكنه وتعدد ملوكه (٢) . وقد عرضوا فى كتابهم لبيان واجبات الملك (٣) وحقوقه على الرعية (٤) .

(٨) أما أسلوب الكتاب فجدلى غالبا ويستخدم براهين الفلاسفة والفاظهم عامة ، كما يستخدم عبارات الدين وأقوال الصالحين وأساليب الواعظين . ويتكلم على لسان الخطباء بأساليب الخطب ، وعلى لسان الحكماء بأساليب الحكم وبراهين العقل والمنطق ، وهو فى كل ذلك صافى العبارة جيد الأسلوب بعيد عن التكلف والزخرف . وما جاء من ذلك فيه مقبول

(٩) أما اختيار الحيوان والجن والانس للمناظرة والجدل والحكومة ؛ فأراه شيئا قصده إخوان الصفا لذاته ، كى يبينوا آراءهم فى هذه المخلوقات ، وأصلها ومنتهاها وصلة بعضها ببعض ، وحكمة الله فى خلقها على صورها التى هى عليها . الخ

ولكنهم بجانب ذلك يلحقون الحيوان والجن بعيوب الناس ، وإساءة بعضهم إلى بعض ؛ كما يسيئون إلى الحيوان والجن . وانهم لو تفكروا فى هذه المخلوقات التى يرونها أقل منهم ، ونظروا فيما يسودها من وئام ، وما تسير عليه فى حياتها من نظام ، وما لها من أخلاق صالحة ، وفوائد عظيمة ، وأتبعوا النظر بالتقليد والعمل ، لصلحت حالهم ورغدت معيشتهم .

---

(١) ص ٣٤ (٢) ص ٧٣ (٣) ص ٧٣ (٤) ص ٧٤

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الحادى عشر

نتائج الفطنة والصادح والباغم

« للشريف بن الهبارية »[1]

ابن الهبارية من أشهر من نظموا قصص الحيوان فى الأدب العربى وله من ذلك ثلاث منظومات هى : « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » ، « كتاب الصادح والباغم » ، وينسب اليه كتاب ثالث هو « درر الحكم فى أمثال الهنود والعجم »

أما الأول والثانى فهما بين أيدينا ، وأما الثالث فمنه نسخ خطية فى فينا وميونيخ ، وقد نسب الى عبد المؤمن بن الحسن الصاغانى ، وقيل انه أكمله وقيل أنه نظمٌ لكليلة ودمنة أو لشىء منه (٢)

---

(١) هو الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح ، المعروف بابن الهبارية ، الملقب نظام الدين البغدادى . من نسل على بن عبد الله بن عباس توفى سنة ٥٠٤ هـ كان شاعرا مجيدا حسن المقاصد ، لكنه كان خبيث اللسان ، كثير الوقوع فى الناس لايكاد يسلم أحد من لسانه ، وكان ملازما لخدمة نظام الملك أبى على الحسن ابن على بن اسحق ، وزير السلطان ألب أرسلان وولده ملك شاه ، وله عليه الانعام التام والادرار المستمر . وكان بين نظام الملك وتاج الملك أبى الغنائم بن دارست شحناء ومنافسة . فقال أبو الغنائم لابن الهبارية ان هجوت نظام الملك فلك عندى كذا وأجزل له الوعد . فقال له كيف أهجو شخصا لا أرى فى بيتى شيئا الا من نعمته فقال لابد من هذا فهجاه فبلغ ذلك نظام الملك فأغضى عنه ولم يقابله على ذلك بالاساءة بل زاد فى أفضاله عليه (ص ١٩ ج ٢ وفيات الاعيان لابن خلكان)

(٢) ج ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية

www.ibtesamh.com/vb

نتائج الفطنة فى نظم كليله ودمنه

طبع هذا الكتاب فى المطبعة اللبنانية ، بعبدا لبنان سنة ١٩٠٠ م، وقد نشره وهذبه الخورى نعمة الله الأسمر الماروني اللبنانى وكتب له مقدمة مختصرة سماها مقدمة المصحح ، وبدأها « باسم الله الأزلى » وقد بين فى هذه المقدمة :

(١) أنه وفق إلى وجود هذا الكتاب مخطوطا بيد الكاتب ألب بن عبد العزيز بن ألب فى شهر ذى الحجة سنة ٧٤٧ هـ

(٢) أن هذه النسخة الخطية كانت فى غاية ما يكون من الاتقان لولا النزر اليسير من أغلاط النسخ

(٣) أنه قابل بين نظم الكتاب ونثره فلم يجد فرقا فى حسن السبك ومتانة التركيب ولكنه وجد اختلافا فى ترتيب الابواب ، واختلافا فى تسمية بعضها ، ووجد الشعر خاليا من مثال الرجل الخائف من الذئب ، وهو أول أمثال باب الاسد والثور ، ومن بعض فقرات من سائر الابواب ، وخاليا من باب الحمامة ومالك الحزين والثعلب ، وهو آخر أبواب الكتاب ، وينسب ذلك لأمرين : سهو الناسخ عن البعض [1] وعدم وجود البعض الآخر فيما أخذ عنه الناظم

(٤) أنه فكر فى طبعه ، لما لكتاب كليله ودمنة من الشهرة ، ومن إقبال الناس عليه ، ولسهولة حفظ الشعر وبقائه فى الذاكرة ، وأنه أحب الى الحافظ من النثر .

(٥) أنه أحجم عن طبعه لصعوبته ثم أقدم لما شجعه الناس وأكدوا له أن التقصير مغفور . وصحح أغلاطه وحذف مافيه من الامثال التى يترفع

---

(١) ليس من المعقول أن يسهو عن باب بأكمله ، والمعقول أنه لم يكن موجودا فى النسخة التى نقل عنها .

www.ibtesamh.com/vb

أهل العصر عن مطالعتها ونظم غيرها مأخوذا من النسخ النثرية المطبوعة ونظم ماخلا منه الكتاب - كتاب ابن الهبارية وأشار إلى مانظمه بأن وضعه بين أقواس وأبقى على ترتيب الابواب وألحق النظم بما يكفل لقارئه تفسير الغريب من ألفاظه

أما عدم الفرق بين نثر ابن المقفع ونظم ابن الهبارية فى حسن السبك ومتانة التركيب فمسألة فيها نظر ،فللنثر أصوله البلاغية وللنظم أصوله أيضا. وقد بلغ ابن المقفع درجة عالية فى النثر العربى . أما ابن الهبارية فأحسن نظمه فى درجة متوسطة من الرجز .

ويكفى فى بيان سبق ابن المقفع واجادته ان أقارن بين النصين الآتيين : قال ابن المقفع :

« وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد . إنه لايرى الا فى مكانين ولا يليق به غيرهما ، إما مع الملوك مكرما ، واما من النساك متعبدا ،كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين . إما ان تراه وحشيا ، واما مركبا للملوك »[1]

وقال ابن الهبارية نظما لهذه الفقرة :

فليكن الحر مع الملوك أو ناسكا فى موضع متروك
كالفيل إما مركب السلطان أو فى مكان ليس ذا ،كان[2]

فابن المقفع قدم لهذه النصيحة بقوله : « وقد قالت العلماء » ، ونسبة هذا القول إلى العلماء يجب فيه من يسمعه . اما ابن الهبارية فقد بدأه بصيغة الأمر ،وهى تحمل معنى الاستعلاء ، فيها شىء من الغلظة ، وكثيرا مايكون الأمر صارفا عن قبول النصيحة .

وقال ابن المقفع ، « إما مع الملوك مكرما ، وإما مع النساك متعبدا» فهو فى حالتيه عزيز المنزلة كريم المثوى . اما ابن الهباريه فجعله « مع الملوك »

---

(١) ص ١٠٢ كليلة ودمنة باب الاسد والثور
(٢) ص ٤٠ نتائج الفطنة « « «

www.ibtesamh.com/vb

لفظ ، ولم يشر الى منزلته معهم ، فاذا لم يكن ، فيصير « ناسكا فى موضع متروك » . وأحس أن « الموضع المتروك » زائدة لتكملة النظم ولا تؤدى الغرض منها ، لما توحى به كلمة « متروك » من معنى الوحشة المنفرة من النسك فى هذا المكان .

وفى التشبيه — يجعل ابن المقفع الفيل جميلا بهيا فى حالتيه ، وليس ذلك عند ابن الهبارية . وكلمة « وحشيا » عند ابن المقفع توحى بالعزة التى يستمتع بها الفيل اذا لم يكن عند الملوك مكرما ، وليس كذلك عند ابن الهبارية لأنه سيعتزل « فى مكان ليس ذا مكان » ، والجناس بين « المكان ومكان » قد أثقله . وكيف يحب مكان لا قيمة له كالذى يريده ابن الهبارية !

وابن المقفع ناثر يقرر حقائق ، وعالم يستعين على توضيح درسه بالأسلوب الجيد ، والتشبيه الجميل ، والتقسيم المنطقى الذى له مكان فى النثر . اما ابن الهبارية فينظم معنى ابن المقفع وهو مقيد بقيود النظم . ويطرق معانى بعيدة عن معنى الشعر وخيال الشعراء ، ويستخدم فى بيانها أساليب العلماء ، فلا يصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

ومن الطبيعى الا يوجد فى نتائج الفطنة باب خطبة الكتاب لأنه وضع فى ايام محمد على . اما باب مقدمة الكتاب الذى وضعه بهنود بن سحوان فلعله لم يكن معروفا لابن الهبارية وان كان بهنود بن سحوان قد توفى سنة ٣٠٢ هـ ، قبله بقرنين من الزمان ، أو أنه كان يعرف هذا الباب وأهمله كما أهمل باب عرض الكتاب لابن المقفع . ويستمر الترتيب من باب برزويه الى باب الناسك وابن عرس ثم يختلف الترتيب فيما بعد وتختلف التسمية فى باب هيلار ملك الهند . ثم تأتى ثلاثة أبواب متفقة ، ثم يختلف الترتيب الى آخر الكتاب .

والاختلاف فى التسمية فى باب هيلار ، والطائر قبرة والملك ، واللبؤة

www.ibtesamh.com/vb

والأسوار والشهر . ليس تصحيفا فى الأولين إذ أن اسم الوزير « بيدبار » ورد قافية فى النظم لما قال له هيلار :

الساعة الساعة يا بيدبار بحق اقتلها كما أختار (١)

وصاحب السر الأمين بيدبار لايكتم الأسرار إلا الأحرار (٢)

وكذلك الحال فى اسم الطائر « قبرة » الذى ورد فى كليلة ودمنة باسم « فنزة » ، والنظم لايترك مجالا للشك فى الاسم ، فقد ورد فى النظم أنه كان عند الملك

طائر يربيه يسمى قبره كدمية فى حائط مصوره

وقد يكون الخطأ من ابن الهبارية عند نقل الاسم ، لتشابه الكلمتين فى الرسم ، أو أنه « قبرة » فى ابن المقفع وأخطأ الذين نقلوه فيما بعد فكتبوه « فنزة » (٣)

أما الحذف والزيادة ، وتحرر الناظم من حرفية الكتاب عند النقل فشىء لابد منه : فالشجرة التى كان يقيم الجرذ عندها فى « باب الجرذ والسنور » مثلا هى من شجر « البيرود » ذات ثمرة

فى أصلها جحر كشدق النون لجرذ سمى بأفريدون

وليس للشجرة نوع ولا ثمر فى كليلة . واسم الجرذ هناك « فريدون » من غير همزة . ونقل بعض أبيات مثل التى نقلناها عن أبان فى الرجل إذا افتقر قال ابن الهبارية (٤)

فكل ما يطرى به الغنى يلحى عليه المقتر الشق

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٩٢

(٣) فى كتاب أنوار سهيلى الفصل الثامن ص ٤٤٥ كلمة Lark وهى تقابل « قبرة » العربية . وقد أشار الدكتور عزام فى تحقيقه ٢٩٩ إلى أن فنزة أقرب كلمة إلى الأصل ولكنه آثر قبرة لاستعمال ابن الهبارية

(٤) ص ١٣٧ نتائج الفطنة

www.ibtesamh.com/vb

إن كان شبها قيل غر أهوج وحاله جميعه معوج
أو كان ذا جود وذا سماح قيل: سفيه ليس ذا صلاح
وحلمه عجز، كما وقاره بلادة يعظم منها عاره

وذلك هو قول ابن المقفع الذى نقلناه قبلا عن باب الحمامة المطوقة.

وأما حذف بعض الأمثال التى يترفع أهل العصر عن مقالعتها، فهو معيب، إذ أن الأمانة فى الطبع تقتضى الابقاء على الكتاب كما هو، وكما أراده صاحبه، ولا عيب عليه فى نظم ماخلا منه الكتاب مادام قد أشار إلى ذلك، وقد رجعت إلى بعض الأبيات التى غيرها فوجدته لم يفق ابن الهبارية فى نظمه. وذلك واضح فى الطبعة المذكورة.

وكثيرا ما أشار إلى أصول أبيات أو أشطر غيرها، أو حذفها. وقد تغفر له هذه الإشارة ما أحدثه من التغيير. وللقارىء أن يحكم على فائدة هذا التغيير ومبلغ حرص كل من ابن الهبارية والخورى على الأصل، عند مقارنتهما بكليله ودمنه. وقد أخذ الخورى نعمة الله حذره لئلا يتعرض لمثل هذا النقد، فسمى عمله فى عنوان الكتاب «تهذيبا»، ولكن الذين يريدون الكتاب كما هو، يرون عيبا فيما فعله من حذف وزيادة، وكانوا يودون الابقاء عليه كما كان.

ويقول ابن الهبارية عن فضل كتابه

وإن لى فى نظم ذا الكتاب فضلا عن الأقران والأضراب
لأنه خير كتاب صنفا وفيه علم مثله ما ألفا
فيه لارباب الرجال عبرة يزيد بالدهر الخبير خبره
سار مسير الشمس فى الآفاق يضىء فى النفوس والأخلاق

وأشار إلى حفظ يحيى بن خالد لنظم أبان بقوله:

أراد يحيى حفظه فما قدر إلا بما قال أبان إذ شعر
لأن حفظ النثر أمر صعب وكلفة يعجز عنها القلب

كلت طباع القوم دون نظمه وعجزوا عن سبكه لعظمه

www.ibtesamh.com/vb

إلا أبان اللاحقى الكاتب فانه فى نظمه لغالب
ثم أبو يعلى ، أنا ، فإنى نظمته بالجهد والتعنى
متبعا فيه أبان اللاحقى وليس - وهو سابقى - بلاحقى
فان يكن أقدم منى عصرا فاننى أحسن منه شعرا
ما قدم العصر مفيد فضلا قد يفضل الفرع الزكى الأصلا
فاعتبروا النظمين ياساداتى فأنتم أعرف بالأبيات

وواضح من هذا أنه أراد معارضة أبان ، وأن كل من حاول نظم الكتاب قد عجز عن ذلك فى نظره ، ولم يستطعه إلا هو وأبان . ولا أدرى إن كان قد جهل المنظومات الأخرى التى نظمها الفضل بن نوبخت ، وعبدالله ابن هلال الأهوازى وعلى بن داود أو تجاهلها .

أما نظمه فلم يفق نظم أبان ، والأبيات التى نقلها الصولى فى كتاب الأوراق لاتقل عن هذه فى الجودة ، إن كانت هذه جيدة .

وقد استخدم كل منهما الرجز لسهولته . وأرى فيما بقى من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ومن نظمه فى العلوم كتاب « الصوم والزكاة » ما يجعل له الفضل على ابن الهبارية . فالساقط من قول هذا الشريف كثير ، وضعف الشعر ، واضح إن سمى هذا شعرا ، وفيه شبه بأقوال العوام ، كقوله بعد أن فضل نفسه على أبان :

فاعتبروا النظمين ياسادتى التى فأنتم أعرف بالأبيات

وقوله عن الإخاء :

وإنما الإخاء للوفى كأنه مغرفة الطباخ
يبقى بها حر الطبيخ كفه صحيحة إذا أراد غرفه
حتى إذا مادهرها أفسدها وأصبحت مكسورة أو قدها

وقوله :

وتعب النسك يفيد راحه نفس اللبيب نحوها مرتاحة

www.ibtesamh.com/vb

والكتاب فيه كثير من هذه الأبيات الضعيفة التركيب ، المهلهلة النسيج فضلا عما يلجأ إليه الشاعر من الضرورات كتسهيل المهموز ، وقصر الممدود وتسكين المتحرك ، وتحريك الساكن ، وأمثال ذلك ؛ ولكنها ضرورات مقبولة ، أما الزحافات والعلل فقد كثرت حتى لا يدرى القارىء أيقرأ نظما أم نثرا .

وأما القافية المزدوجة فقد فتحت أمام الناظمين أبواب التجويد ، ويسرت لهم طول النفس ، والاستمرار فى القصة مهما طالت ، وإن نظم كتاب بتمامه أمر صعب شاق ، فصاحب النظم مقيد بمعانى الكتاب المنثور ، مضطر إلى المحافظة على الأصل ، مرغم على التزام حدود الوزن والقافية ، فإذا عرض شاعر لمثل هذا العمل واستطاع أن يبلغ ما بلغه أبان أو ابن الهبارية ، وسلم له ما سلم لهما من النجاح ، كان له حظ عظيم من التوفيق .

وإذا سلمنا بأن أبان اللاحقى قد نظمه فى ثلاثة أشهر وعجبنا من ذلك ، فالحال أعجب مع ابن الهبارية ، الذى يقول إنه نظمه فى عشر ليال ، ولو أنه وقف عليه نفسه لنظمه فى خمس ، ويرجع ذلك إلى سعد ممدوحه مشيد الدولة سيف الدين ؛ يقول :

تم الكتاب وانقضت أبوابه كالدر إذ يزجى به سحابه
حرزت فى عشر ليال عقده ولم أطق حتى استعنت جده
نعم ، ولو أنى وقفت النفسا عليه لاغير ، لكانت خمسا

وإذا كان قد بلغ هذه الإجادة فى هذا الزمن القصير ، فماذا كان يحدث لو أنه عاد عليه بالتنقيح والتهذيب ، ولو أعطى نفسه فسحة من الزمن ، وتحرر كما تحرر ابن المقفع ومحمد عثمان جلال وشوقى ، لأتى بما هو أجود وأرق وأوفى بالمعانى مما هو عليه الآن .

الصادح والباغم

هذا كتاب آخر نظمه على أسلوب كليلة ودمنة . ولقد أجاد فيه كل

www.ibtesamh.com/vb

الاجادة، وسير الكتاب على يد ولده إلى الأمير أبي الحسن صدقة بن منصور ابن دبيس الأسدى صاحب الحلة (١) . . . فاجزل عطيته وأسنى جائزته . أما عدد أبياته وكذلك مدة النظم فقد أشار إليهما فى قوله (٢)

أنفقت فيه مده عشر سنين عده
بيوته ألفان جميعها معانى
لو ظل كل شاعر وناظم وناثر
كعمر نوح التالد فى نظم بيت واحد
من مثله لما قدر ما كل من قال شعر
أنفذته مع ولدى بل مهجتى وكبدى

ولم ينس طريقته فى الفخر بما يعمل . فقال فى موضع آخر :

وهو كتاب حسن خطير ليس له فى فنه نظير (٣)

وقد بين فى المقدمة أنه نظم هذا الكتاب لينفذه تحفة إلى ممدوحه وقدمه إليه وهو غائب عنه . وقد أسرف فى الثناء على هذا الممدوح فقال إنه لو كان الشباب من هباته لما شاخ الناس ؛

أو اقتدى بفعله الزمان ما خلق الشر ولا الهوان
أو أنه يجير من جور الردى ما علقت كف المنون أحدا

وبدأ الكتاب بباب سماه باب « الناسك والفاتك » وجعل مقدمة هذا الباب أنه خرج للعمرة ؛ وتخلف عن أصحابه ؛ فلقى رجلا شيخا يناجى صاحبا مكتهلا ، وافتخر كل منهما بقومه وما لهم من فضل وامتياز فى الاختراع .

فكان قول الشيخ ، قومى الهند الحكماء العلماء اللد
لو لم يكن من فضلهم إذ يختبر فضل الرجال منصف ويعتبر

---

(١) كان يقال له ملك العرب ، وكان ذا بأس وسطوة وهيبة ، قتل سنة ٥٠١هـ (ابن خلكان حـ ١ ص ٢٨٧)
(٢) ص ١٢٠ (٣) ص ١١

www.ibtesamh.com/vb

إلا الذى أبدوه فى الشطرنج للناس من علم سديد النهج
فيه إشارات إلى مواعظ نافعة لكل واع حافظ
قد رسموها للهدى مثالا إن الحكيم يضرب الأمثالا
يعنون أن العيش فى التدبير وليس بالقسمة والتقدير

قال له الكهل وقومى الفرس الحكماء مابذاك لبس
لهم سياسات وتدبير حسن كالشرع عدلا فى الفروض والسنن

ثم قال

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأى ولا التدبير
وقد وضعنا النرد للمثال لو فطنت بصائر الرجال

واستمر الفخر بينهما فى أبيات كثيرة ، بين كل منهما حجته فى فضل ما اخترعه قومه، وما فيه من اشارات ودلالات ؛ ومايستفيده لاعبه من سياسة وحكمة ، وما كان لاختراعه من أثر فى سياسة الملوك والدول . وهذا آخر حوار بينهما :

قال له الهندى : وهو صادق لكن لنا فضل عليكم سابق
تصنيفنا كليلة ودمنه يقضى لنا بحكمة وفطنه
كم فيه من موعظة وعلم وحكمة تعجب أهل الفهم
قال له الفرسى : فى سواه لو كنت ذا علم به ؛ معناه
قال :وما رأيته ؛ قال : أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل(١)

سمعت بالله حديث الناسك إذ راعه الليل بلص فاتك
فقال : لم أسمعه فاذكر أسمع لاتنفع الأخبار إلا من يعى

وبدأ الفارسى قصة الناسك واللص الفاتك (٢) وخلاصتها : أن هـذا

---

(١) قال الأولى فاعلها الهندى والثانية الفارسى
(٢) الصادح والباغم ص ٢٥

www.ibtesamh.com/vb

الفارسي خرج فى جماعة من التجار ، ومعهم ناسك نزل للصلاة فى طريق غير آمن ، فجاءه لص ، فأخذ الناسك يعظه ، ويعده أن يزوجه ابنته الوحيدة ؛ فحزن اللص وأظهر أنه قد مات متأثراً بقوة وعظه ، فنادى الناسك أصحابه التجار ليعودوا ويشهدوا جهازه . فخاف اللص وقام يريد الفتك به ، فتضرع الناسك إليه وأخبره ألا فائدة فى قتله ، فقال له اللص :

تريد أن تخدعنى لتسلما وأنثنى أعض كفى ندما

أما سمعت قصة الظليم وفتكه بالصياد . فقال الناسك : لا ؛ فأخبرنى بها ؛ فقال له : أخذ صياد ظليما فسأله الظليم لم أخذتنى :

قال له : شيخ مُعيلٌ (١) عائل ولى بنات حالهن حائل
تسعة أطفال صغار ، فبكى الظـ ـلِيمُ مما قاله وضحكا (٢)

فسأله الشيخ : ماالذى يبكيك ويضحكك ؟

قال بكاى لفراخى ، إنهم قد خيبت فِىَّ الليالى ظنهم

فرق لبكاه وذكر أولاده ، ثم سأله عن سبب الضحك . فقال الظليم :

خرجتَ تبغى الرزق للعيال والرزق فى بيتك كالجبال
قال — وما ذلك ؟ قال : كنز فى داركم حيث تُشَدُّ العَنْسُ

ففرح الصياد وهم أن يطلقه ، ولكنه خشى أن تكون هذه حيلة ؛ فلم يطلقه ؛ ففكر فى حيلة أخرى ، فقص عليه قصة البعير والجمال .

أخبره الظليم أن جمالا كان سائراً بحمله وعليه طعام ، فاستقبلا ، سرية مغيرة ، لم يرها الجمال وأبصرها البعير . فأخبره بخبرها فلم يصدقه ، حتى أدركته وشدت ثاقه .

---

(١) معيل كثير العيال . عائل : فقير

(٢) الضرب مخالف للعروض . والنظم مضطرب ولعله أراد أن تكون « فبكى » آخر الشطر الأول فخانه الوزن .

www.ibtesamh.com/vb

وعاد الظليم إلى حديثه مع الصياد ، والصياد فى شك من أمر الكنز الذى فى داره ، وقال للظليم :

من أين تدرى علم ما فى منزلى من الكنوز فى الزمان الأول

فوصف له الظليم داره ، وما زال به حتى صدقه وأطلقه . وعاد إلى أولاده حريصا على إخراج الكنز . . فلم يكلمهم وبات يحفر ، فلم يجد شيئا وخرب الدار ولامه الناس

ونعود للقصة الأصلية : قال اللص للناسك : إنك تريد أن تخدعنى لأتركك فقال له الناسك :

انك ان كففت عن أذاتى أعطيتك المفروض من زكاتى
وقلت للرفقة هـذا طالب وحقه من الزكاة واجب

وكان خيراً لك فى الدارين مما ترى فى موتى وحَيْنِى

فانخدع اللص الفاتك وسار معه ، فلما وصلا إلى الركب أخبرهم الناسك أنه لص خبيث ، فربطوه ربطا محكما ، وقال له الناسك .

وقعت بعد ضربك الأمثالا وذكرك الظليم والجمالا

فضرع إليه اللص وتاب على يديه ، وأعطاه القوم شيئا من الزكاة ، وأطلقوه فغدا يقول خُدعْتَ عن رأيك ياجهول
من نال ماريده فقد غَلَب قد اتفقنا ، واختلفنا فى السبب

وينتهى بهذا باب « الناسك واللص الفاتك »

ويأتى بعده باب « البيان ومفاخر الحيوان »

يقول الفارسى إن شيخا من الأعراب حدثه انه خرج رائداً لأهله ، فجار عن مقصده فوقف حائرا ، فرأى شخصا قريبا فارتاع وظنه الغول ، ثم ظهر له نخل وأثل ، فذهب إلى هناك فوجد عيون ماء ورياضا ، فنزل فربط ناقته

www.ibtesamh.com/vb

وأكل من بعض النخيل ، ثم صعد نخلة لينام فوقها بعيداً عن الأذى .

فجاء ببرٌ وهزبرٌ ونمرٍ والوحش والطير جميعاً تبتدر
وجاءت الأنعام والبهائم والهام والطيور والأراقم
والحشرات جلها ودقها مفتنة فى خلقها وخلقها
وارتفع العنقاء فوق دُلبه وهو أمير الطير، يبغى الخطبه (١)

فخطب فحمد الله واثنى عليه ماخصه به من بديع الحسن ، وأفرده به من صورة شاهدة بقدرته . وان كذب به الطغام ، وشك فى وجوده الأنام لضعف عقولهم . وقال : إن هذا التكذيب ليس عجيبا من الناس .

فانهم قد كذبوا بالصانع وأنكروا البعث ليوم جامع

واستمر العنقاء فى حديثه عن بنى آدم ومزاعمهم وإنكارهم للغيب وأنهم لو فكروا فى ملكوت السموات والأرض لآمنوا بالله ، لما قالوا : إن هذا من عمل الطبائع . أو أنه صنعة من غير صانع ، أو أنه من عمل النجوم ، إلى آخر ما أورده عن الناس ذما لآرائهم وعقائدهم ، وعدم اعتبارهم وتفكيرهم . ثم يختم ذلك بالاستدلال على أن بنى آدم ليسوا أفضل منهم ، وملمحا إلى أن الحيوان خير من بنى آدم لعدم إشراكه ويأسه فيقول :

أسألهم ، ولا يقولوا مينا بأى شىء فضلوا علينا
ونحن لانشرك بالله ولا نقنط من رحمته إذ نبتلى

فقالت الطيور مثل قوله وضجت الوحش به من حوله
وقالت الانعام والسباع لقد أصاب الملك المطاع

ثم يقول الفارسى : إن الأعراب تألم لما سمع هذا الطعن فى بنى جنسه

---

(١) نوع من الشجر الكبير

www.ibtesamh.com/vb

الانسان ، وهم أن يجيب ، ولكنه رأى نفسه وحيدا يخاف الهلاك ، وخشى أن يكون مثله مثل من أضاع المال لطلب الربح : كالتاجر الذى أراد أن يبيع جواهره لملك ، فعابها الدلال لعله يكرهها وقد يبيعها رخيصة. فعاد بها التاجر إلى بيته ليصلح مافيها من العيوب ، على طريقة رآها فى مكتوب .

فدقها فى هاون وبلها بلبن الكلب يريد حلها

ووضعها فى الشمس لعلها تحلها ، فصارت الجواهر برادة ، فندم المسكين، وكذاك من باع الوجود بالعدم .

ورأى الشيخ أنه لابد له من حيلة مع هؤلاء البهائم ، وأن الكيد قد يغنى عن القوة .

فاستعمل الحيلة والكيد مع هؤلاء البهائم ، فنزل إلى عين ماء وغاص فيها إلى رقبته ، وصاح صياحا عظيما أفزعهم ، فكادوا يفرون ، ثم ذهبوا إلى مصدر الصياح وسألوه : من أنت . ؟ . فقال رسول ملك الجن أرسلنى إليكم فى صورة إنسان . وقد سمع ماقلتم فى حق بنى آدم وإنى سأناظركم وكيلا عنه . فدعوا الفيل للمناظرة ، فلم يصلح ، ثم دعوا الأنعام فتكلم منها الجمل فقال : إنها لاتنسى فضل الانسان عليها ، وطول صحبتها له .

فغضب النعام مما قال الجمل . واتهمه بالحمق ، وأخبره أن سبب إكرام الناس لهم هو انتفاعهم بالحيوان . وأنهم يفعلون ذلك كالضرغام الذى أكرم حمارا وأنقذه من الطين وسمنه ثم أكله ، أو كالذئب الذى مر بغزالة مريضة هزيلة فأخذها وأحسن طعامها حتى سمنت ثم أكلها . وهكذا الانس فى إكرامهم لبعض أنواع الحيوان .

فقال أبو أيوب : إن إكرام الناس أو إيذاءهم للحيوان فيه مصلحة .

ثم تكلمت العنقاء ، وتكلم الحصان ينفى التهم عن بنى آدم وتحدث كثيرا عن فضل هذا النوع من المخلوقات وان الله قد جعلهم سادة لهم ، وسخر لهم مافى الارض جميعا .

www.ibtesamh.com/vb

واستمر الجدل بينهم حتى آمن الجميع بأن الحصان « الصبا » على صواب ، وانقاد العنقاء ملكهم للحق ، ودعا الشيخ الاعرابى فاعتذر اليه وقال له :قل لملك الجن : انى قد تبت عن مقالى ، وبان لى ما كان خفيا عنى .

لكنه عجب من فعال ملك الجن ، مع ما بينهم وبين الانس من عداوة بالطبع ، فنفى الاعرابى هذه العداوة وأثبت أن أصلهما النار والطين ، ولا يمنعان ما بين الثقلين من قرابة التكليف ، وأنهم مخاطبون جميعا بالأوامر والنواهى . وتفرق الجميع وذهب الاعرابى بالفرس الأشقر .

وينتقل بعد ذلك الى الحكم والأمثال ـ فيذكر انه اجتاز فى طريقه بزهر أنيق وروضة أريضة ، فيها طيور صوادح .

وطائر فى شجره ليس يمس الثمره
كأنه مفكر أو واله محير

فأقبلت غزالة فى حسنها مختالة
فربضت قريبا وانتصبت خطيبا

وتكلمت فى غرور الدنيا ، وفى صحبة السلطان .

فردت عليها الايكية «الحمامة» فصلا فى واجبات السلطان ، وآخر فى علو الهمة وطلب المعالى ، وثالثا فى منفعة التجارب ، ورابعا فى هموم الدنيا وغمومها وخامسا فى اجتناب الجهال . وجاءت كل منهما بكثير من الحكم والأمثال فى سياسة الناس ومنافعهم ومضارهم وأخلاقهم وأعمالهم وطغيانهم إذا قدروا ، وذلهم إذا هانوا ، وأشباه ذلك .

ثم جاء بفصول فى الحكم أكثرها صناعة لفظية : منها فصل يبتدى بحكم مع لا الناهية وغيره بحكم مع من الشرطية أو حكم مع ليس ، أو حكم مع ما النافيه أو كل ، ثم حكم مع من الشرطية ، وفصل فى التوقى من كلام الناس ، وفصل فى شروط الصحبة ، وفصل فى الصحبة والقناعة وفصل فى شرف السلطنة

www.ibtesamh.com/vb

وجلالتها ، وفصل فى نصب العمال . وحكم متفرقة ، وفصل فى الكرم والسخاء وحكم مع ما التعجبية ، وحكم متفرقة ، وفصل فى رداءة الاقارب وأقوال أدبية ثم يختم ذلك بأنهما افترقا ، ثم تم الحديث وختم .

ويلى ذلك مدح الأمير صدقة ، ثم فصل فى الكتاب ومدحه - وانه جعله برسم الأمير صدقة .

وإذا نظرنا الى الكتاب وجدناه ينقسم ثلاثة أقسام ، بعد المقدمة .

(١) باب الناسك واللص الفاتك :

وقد تأثر فيه بكليلة ودمنه فى ايراد حكايات على لسان البهائم والطير يقصد بها الحكم والموعظة ، كقصة الصياد والظليم ، وقصة البعير والجمال .

(٢) باب البيان ومفاخرة الحيوان :

وهو متأثر فيه باخوان الصفا فى تداعى الحيوانات على الانسان وذلك من حيث الفكرة الفلسفية التى أودعها فى المناظرة بين الحيوان بعضه وبعض وبينه وبين الاعرابى الذى أخبرهم انه رسول ملك الجن لهم . ومن حيث الاستطراد والخروج من مناظرة إلى مناظرة ، ومتأثر بكليلة ودمنه فى الحكايات الفرعية والمغازى الخلقية

(٣) باب المحاورة بين الحمامة والظبية .

وقد تأثر فيه إلى حد ما ، بأبى العتاهية فى إيراد الحكم والأمثال فى قصيدته الطويلة « ذات الأمثال »

ولكنه مشى فيها على طريقة أكثر نظاما ، إذ جمع فيه الحكم المتشابهة تحت عنوان واحد ، وأخذ العناوين من كتاب كليلة ودمنة ، ومن كتب الآداب السلطانية ، ومن كتب الأخلاق ومن مواعظ الصالحين ، وضمنها آراء قيمة فى أصناف الناس وفى أعوان السلطان وفى سياسة الرعية ... الخ وهذه الحكم خفيفة سهلة ، مع حسن النظم ، وان كانت قد جمعت جمعا فى بعض الأبواب وليس بينها رابط إلا الوزن

www.ibtesamh.com/vb

وتأثر فى نظمه بأبان بن عبد الحميد؛ إذ اختار الرجز والقافية المزدوجة ليسهل عليه مالا يسهل فى غيرهما من الشعر ، كما قلنا فى نظمه لكليله ودمنه .

أما عيوب الكتاب فمنها كثرة القصص الاستطرادية التى نراها فى البابين الأولين . ثم ضعف الربط بين هذه القصص والقصة الأصلية ، حتى أن القارىء ليجد نفسه فى حيرة عندما يحاول معرفة الارتباط ، أو وجه الشبه بين قصة « البعير والجمال » الاستطرادية ، وبين قصة « الفاتك والناسك » الأصلية ، ويصعب عليه أن يجد هذا الارتباط المتين بين قصة « امرأة الراعى » وباب « التفاخر » ولايجد إلا « إعمال الحيلة » للوصول إلى الغاية ، وهذا عيب مشترك بينه وبين كليلة ودمنة .

ومن هذه العيوب فى باب البيان أنه أقام العنقاء والظليم والجمل والحصان خطباء ، ولكنك لا تدرى القائل إلا بشق النفس ، وذلك أنه لا يميزه حين ينتقل الكلام ، بل يمهد بكلمة « قال » فلا تعرف الفاعل لهذا الفعل ؛ وقد كان الجمل والحصان فى صف الانسان ، فاذا كان الكلام كذلك تحيرت فلم تدر أقائله الحصان أم الجمل ، والأمر كذلك مع العنقاء والظليم .

والعناوين التى وردت فى الطبعة الأخيرة سنة ١٩٣٦ ونشرها عزت العطار عناوين ليست ذات أهمية ، فكثيرا ما يهمل العناوين الرئيسية لقصص مهمة ويظهر العناوين التى لاقيمة لها . ولو جاء لكل قصة بعنوان لكان فى هذا مايوضح غموض الكتاب ، ويبين مواطن الاستطراد . وليس فى هذه الطبعة شىء يكشف عن الغموض الذى أشرت إليه سابقا .

والصناعة اللفظية فى الأبواب التى جعل حكمها تمشى على وتيرة واحدة فى أولها أوطريقة نظمها ، قد خفت فى موضعها لأنها مستقلة ، وكل بيت منها حكمة وحده ، أو مثل مستقل

وهذا الكتاب متأخر عن نظم كليلة ودمنة « المسمى نتائج الفطنة » :

(١) لأن هذا الكتاب من عمل ابن الهبارية ؛ والثانى نقل والرجل كان

www.ibtesamh.com/vb

قديرا فى هذا النوع من النظم ، فبدأ بنظم نتائج الفطنة ، ثم رأى نجاحه فيه فأراد أن يجرب حظه فى الاختراع على مثاله .

(٢) وإن نتائج الفطنه قد تم فى عشر ليال كما يقول ابن الهبارية وهذا الصادح والباغم » فى عشر سنين ، والذى سهل عليه نظم كليلة أن معانيها وأبوابها وقصصها معروفة ، فما عليه إلا النظم .

(٣) وإن تأثره بكليلة ودمنة ظاهر فى الاستطراد القصصى ، وفى المبادىء والآراء التى اشتمل عليها كل منهما فى المعاملات والحقوق والواجبات والنظم السياسية وأخلاق الناس ؛ وذلك فى نظرى قد ينهض دليلا على أن نفس ابن الهبارية امتلأت أولا بهذه المعانى من كليلة ودمنة حين نظمه ، ثم أراد تقليده فعمل هذا الكتاب على نمطه فجاء مشبها لكثير من غايات ابن المقفع من كتابه ، بسبب تأثره به حين نظمه .

(٤) ثم أنه قد جاء فى المفاخرة بين الهندى والفارسى أن الهندى افتخر بوضع قومه لكليلة ودمنة ، فرد عليه الفارسى بأن هناك حكما أخرى فى غيره :

قال له الفرسى : فى سواه لو كنت ذا علم به ؛ معناه
قال ، وما رأيته ، قال أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل

سمعت بالله حديث الناسك إذا راعه الليل بلص فاتك
فقال لم أسمعه فاذكر أسمع لاتنفع الأخبار إلا من يعى

فهذا التسليم بأن هناك حكما خارجة عن كليلة ودمنة لايعرفها الهندى ، إشارة إلى الاتيان بجديد ، ويغلب أن يكون ذلك بعد استيعاب كليلة فى النظم . وفيه نوع من التحدى ، وكأن نفس ابن الهبارية هى التى تتحدى الهند بعد أن نظم كليله ودمنه ، فكان « الصادح والباغم » آية ذلك التحدى .

أما باب البيان ومفاخرة الحيوان ، فأثر اخوان الصفا واضح فيه فقد

www.ibtesamh.com/vb

جاء فى رسالة « تداعى الحيوانات على الانسان » :

« فقام خطيب من الانس من بنى العباس رضوان الله عليهم ، وقد دعاه إلى ذلك ملك الجن ليبين بالحجج الشرعية والعقلية أن الحيوان عبيد للناس ، فاذا عرفنا أن ابن الهبارية من نسل العباس أيضا راينا أنه أراد تحقيق ظن اخوان الصفا ، فجاء بهذا الباب ؛ بجانب مافيه من روح رسالتهم ، من حيث النزاع بين الانسان والحيوان ؛ وقد دافع عن الناس على لسان الأعرابى ، كما دافع الخطيب من الأنس من بنى العباس ، فى اخوان الصفا . ولكنهما اختلفا فى الغاية فالجن قد أقروا بفضل الناس عليهم فى اخوان الصفا وبلغوا هنا مرتبة المساواة بسبب اشتراكهما فى التكليف وتشابه الأصل.

وبعد فقد طال الحديث عنه لأنه ابتداع ، وهذا النوع قل فيه الابتداع عندنا فكان له نصيبه من طول الحديث عنه تلخيصا وتعليقا .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثانى عشر

سلوان المطاع

لابن ظفـــر

جاء فى صفحة العنوان أن هذا الكتاب هو « سلوان المطاع فى عدوان الأتباع »

« تأليف الشيخ الامام العالم العلامة حجة الدين أبى هاشم محمد بن احمد ابن ظفر غفر الله له ولنا وللمسلمين أجمعين . »

وفى الصفحة الأولى من هذا الكتاب أن المؤلف كان منتهيا من تأليفه وكتابته بخطه فى شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ وقد قدمه هدية [1] لصديقه « سائد السادة ، وقائد القادة ، أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم القرشى ، » وقد بين فى هذه المقدمة ما اشتمل عليه الكتاب من أبواب ، والطريقة التى سار عليها فى تأليفه ، فقال :

« وهو كتاب عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها ،

---

(١) أهدى ابن الهبارية كتاب « نتائج الفطنة » الى ابن موسى سيد الكفاة ، والصادح والباغم إلى الأمير صدقه بن دبيس ، وكان كليلة ودمنة مقدما من بيدبا إلى دبشليم . وقيل ان ابن المقفع ترجمه موعظة للمنصور ، وترجم ابن عربشاه كتاب « مرزبان نامه » باشارة من مخدومه الذى لا تمكنه مخالفته . وكان عمل هؤلاء تكريما لمن وسم باسمه ، وأهدى اليه ، إلا ترجمة عبد الله بن المقفع لكليلة ودمنة . بل إن من هؤلاء السادة من دعا إلى التأليف أو الترجمة . وفى هذا رد على من يقول إنها تؤلف فى عهود الظلم والاستبداد فقط.

www.ibtesamh.com/vb

وهنعهم الغيرة عليها من إذاعتها ، فتوسعت بالتعبير بألفاظ عليها ، والتخيير بعلى لها ، والتفنن بقوى فطنتى فيها ، توسعا لا يحظره شرع ، ولا ينبو عنه سمع ... وصدرتها بآى من التنزيل المحكم ، وأحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إلى مايلى ذلك من منثور الحكم وموزونها ، وأبكار الآداب وعونها ، فبرزت روضة للقلوب والأسماع ، ورياضة للعقول والطباع ، وسميتها « سلوان المطاع فى عدوان الأتباع » . والسلوان جمع سلوانة وهى خرزة يزعم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا » .

ثم قال : « وهى خمس سلوانات : السلوانة الأولى فى التفويض ، والسلوانة الثانية فى التأسى ، والسلوانة الثالثة فى الصبر ، والسلوانة الرابعة فى الرضى ، والسلوانة الخامسة فى الزهد . وأنا أرغب الى الله سبحانه وتعالى فى الامداد بالسداد ، والارشاد إلى نفع العباد »

وتأتى أبواب الكتاب بعد ذلك جارية على هذه الطريقة التى أشار اليها فى هذه المقدمة .

فالسلوانة الأولى مثلا . تبدأ بقول : « ربنا تقبل منا » ، وقوله تقدس اسمه : فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » ، وقوله تقدس اسمه « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون » ، ويتلو ذلك بيان كيف تؤدى الآيتان إلى التفويض ، ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون وكيف عامله الله وأكرمه حين فوض أمره إليه .

ثم أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم تدعو إلى التفويض ، وآخرها قوله عليه السلام :

« إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ؛ لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك .... » . الخ

www.ibtesamh.com/vb

ثم « أسجاع وأبيات » فى التفويض . ثم « روضة فائقة ورياضة رائقة » وذلك إيذان بإيراد القصة أو القصص التى يقصها . ومغزاها هو عنوان الباب :

وأول قصة أوردها كانت من التاريخ العربى . وهى قصة الوليد بن يزيد ، لما أدبر أمره ، وأرسل خادما يأتيه برجل على هيئة خاصة . فأتاه به . وسأله أن يحدثه ، فأخبره بقصة جده عبد الملك لما خرج عليه عمرو بن سعيد ، فقد برجل لا يعرفه ، وسأله عما يراه فى حروب الخليفة . فقال له الرجل إن حرب ابن سعيد أولى من حرب ابن الزبير : لأن الأول باغ خرج على إمام بايعه . وضرب مثلا لعاقبة الباغى قصة الثعلبين ، ظالم ومفوض ، والحية وهذه أول قصة حيوان يذكرها ، وخلاصتها :

أن ثعلبا اسمه « ظالم » كان يقيم فى جحر ، وعاد إليه يوما فوجد فيه حية استوطنته ، فذهب يطلب لنفسه مأوى ، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر ، حصين الموضع ، فى أرض خصيبة ؛ لثعلب يدعى « مفوضا » ، ورثه عن أبيه ؛ فناداه « ظالم » فرحب به وأدخله جحره ، وسأله عما قصد . فقص عليه خبره وشكا إليه الحية ، فرق له « مفوض » ثم قال له : « إن من أهمة ألا تقصر عن مطالبة عدوك ؛ وأن تستفرغ جهدك فى ابتغاء دفعه وملكه. وإنه كان يقال :

من تهيب عدوه فقد جيش لنفسه جيشا . وكان يقال : رب حيلة أنفع من قبيلة ، وكان يقال : الموت فى طلب الثأر خير من الحياة فى العار .

وكان يقال : إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة ، فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك ، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وان كان عظيما .

والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مأواك الذى انتزع منك غصبا ، فلعلى أنتهى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ، فان أفضل الرأى ما أسس على الروية ولهذا قيل : « يفسد التدبير بثلاثة أسباب ، أحدها أن تكثر الشركاء فيه ،

www.ibtesamh.com/vb

فاذا كان ذلك انتشر التدبير فيه وبطل ؛ والثانى أن يكون الشركاء فى التدبير متنافسين متحاسدين ، فيدخله الهوى والبغى فيفسد . والثالث أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبَّر ، دون من باشره وشاهده ، فاذا كان ذلك كذلك دخله حقد المباشر الحاضر ، وفوت الفرص . ثم إن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر ، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر ،

ثم انطلقا إلى جحر «ظالم» ؛ وعادا ؛ وظل «مفوض» ليلته فى جحره يفكر فى حيلة . أما «ظالم» فقد رأى من سعة جحر «مفوض» وطيب موقعه ما جعله يطمع فى غصبه .

فلما أصبحا عرض عليه «مفوض» أن يبقى معه فى هذا المكان ، وأن يعينه على احتفار مسكن قريب منه ؛ فأظهر شدة الشوق والحنين إلى وطنه ، وأنه لا يستطيع احتمال الغربة ، وأن حروف هذه الكلمة مجموعة من أسماء تدل على معنى الغربة ، فالغين : من غيبة وغرَر وغم وغلة - وهى حرارة الحزن والظمأ - وغرم وغـــول - وهو كل مهلكة ، . والراء ، من روع ورعب ورنق - وهو الكدر - ورزء - وهو الهلاك ، والباء من بلوى وبؤس وبعد وبرح - وهى الداهية - وبوار - وهو الهلاك .

فلما رأى «مفوض» منه شدة اشتياقه إلى وطنه ، قال له : أرى أن نذهب يومنا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين ، وإذا أقبل الليل انطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قبس نار ، واحتملنا القبس والحطب وقصدنا إلى مكنك فجعلنا الحزمتين على بابه ، وأضرمناهما نارا ، فان خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجحر أهلكها الدخان . فقال «ظالم» نعم الرأى :

ثم احتطبا حزمتين وذهب «مفوض» ليجىء بقبس من إحدى الخيام القريبة ، فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين فغيبها فى موضع ، وذهب بالأخرى إلى جحر «مفوض» وسد الباب بها سدا محكما ، ورأى أنه بذلك يستطيع أن يتحصن من «مفوض» إذا حاصره ، وعنده طعام وشراب فى الجحر يقوى

www.ibtesamh.com/vb

بهما على الحصار . وعاد « مفوض » فلم يجده ، فأحسن به الظن ، وقال فى نفسه : لعله لم يرد أن يكلفنى احتمال الحطب معه . وبدا له أن يلق القبس ويلحق « ظالما » ليحمل معه الحطب ، ثم كره أن يطفىء الريح القبس فأدخله فى باب الجحر ، فأصاب الحطب فأضرمه ، فاحترق ظالم ولحق به مكره .

فلما اطلع « مفوض » على أمر « ظالم » قال : ما رأيت كالبغى سلاحا أكثر عملا فى محتمله ! ولما أطفئت النار دخل جحره ، فاستخرج جيفة « ظالم » فألقاه ، وأوطن جحره على حال تحفظ واحتراس واستعداد لكيد الكائدين

ونستطيع أن نقرر شيئا عن قصص « ابن ظفر » من هذه القصة ، وكثير من عباراتها من كتابة سلوان المطاع ، فنقول :

إن القصة لطيفة تشوق القارىء لما فيها من حسن الربط ، والسير فى طريق الغاية الخلقية ولكنها تعنى بهذه الغاية ، وتحرص على الحديث عنها ، بدلا من ترك القصة تشير إليها ، فانقلب أديبا أكثر منه قصصيا ، وانتهز كل فرصة فى القصة كى يؤكد صفة الواعظ ويقويها فى نفس القارىء ، وقد اكتفيت ببعض تلك المواعظ فى هذا المختصر السابق للقصة . وتكاد قصصه كلها تجرى على هذا النمط ولكن هذا لم يذهب بجمالها ، واستيلائها على انتباه القارىء

ومن أظهر ما يمتاز به ابن ظفر فى كتابه :

(١) أن العناوين التى اختارها متصلة بالدين ، والقصص التى ساقها ، على تنوعها ، تدور حول المعنى المفهوم من العنوان .

(٢) وأن قصص الحيوان ، على قلتها ، كانت تأتى استطرادا تبعا لقصة أصلية مقتبسة من التاريخ ، كقصة ظالم ومفوض ؛ فى أثناء حديث الرجل مع عبد الملك . وقصة العجوز عن الحصان الذى لم يرض برعاه ولا بصاحبه وفر بسرجه ولجامه ، وأدركه الليل جائعا ، ومنعه اللجام الطعام . ومنعه الركاب أن ينام ، ومنعه السرج أن يتمرغ ، حتى ساءت حاله جداً .

www.ibtesamh.com/vb

أما العجوز فقد قصت هذه القصة على رجل كان يتطلع إلى امرأة غيره فحبسه زوجها وأذاقه العذاب ووكل به تلك العجوز ،

أما قصة الرجل الذى تطلع إلى امرأة غيره فقد قصها وزير فارسى على سيده «سابور» ليتأسى بها لما وقع فى أسر ملك الروم .

(٣) وأن ابن ظفر كان يتعرض لتفسير بعض الكلمات لغويا كما فسر « السلوانة » (ص٥) « والتأسى » (ص٣٥) : وألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر (ص ٨٩) ، أو عليا « كالحرباء » (ص ١٣) أو تأتى كلمة أعجمية فيفسرها ككلمة « موبذان موبذ » (ومعنى هذا اللقب حفظة الدين ، وهو عند الفرس كالنبى (ص ٢٩) ، وكلمة « البطريك » وتفسير هذا الاسم أبو الآباء (ص ٣٩) . وقد يتعرض لحروف الكلمة فيلمح فيها شيئا كثيرا من المعانى كما سبق فى كلمة « الغربة » .

(٤) وكان تأثر ابن ظفر بالفلسفة والأخلاق واضحا فى عباراته وألفاظه، فقد كان يكثر من التقسيم المنطقى ، ويحاول استقراء النواحى التى يتكلم فيها مستخدما ألفاظ العدد التى تفيد الحصر ، وتدل على الاستقراء ويستخدم أساليب الفلاسفة والأخلاقيين وعباراتهم ومعانيهم كقوله :

« أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدهم التكرمة إلا فسادا : الولد والزوجة والخادم والرعية ، وضربوا لذلك مثلا القوى الأربع المرذولة ، إذا هاجت لتعدى حدودها المصلحة ؛ وهى الغضب إذا تعدى حد الشجاعة ، وحد الأنفة من الرذائل . والشهوة إذا تعدت حد الراحة من اكتساب الفضائل ؛ والحرص إذا تعدى حد الكفاية . والكسل إذا تعدى حد راحة الجسم من اكتساب المصالح ؛ فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا ، وإنما تعنى بحسم موادها . » (ص ٧٥)

(٥) يأتى فى عباراته كثير من المحسنات البديعة ، كالجناس والتورية والطباق إلى آخره . وله بعض الشعر يقوله أو يستشهد به ؛ ولكنه فى صناعته

www.ibtesamh.com/vb

اللفظية بعيد عن التكلف . وقصصه سهلة العبارة جميلة التركيب ، لايعمد فيها إلى البديع إلا إذا خرج عن القصة إلى الوعظ وضرب الأمثال وسوق الحكم .

(٦) وابن ظفر تلميذ « لابن المقفع » ، يجيد تقليده ، فى ضرب الأمثال التى يأتى بها فى أثناء القصة . وفى استخدام الأسلوب المنطقى الذى يكثر فيه الاستنتاج والتفصيل والتقسيم .

ولكنه يخالفه فيما عدا ذلك ، كتسمية الأبواب ، وتصديرها بالقرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر ، وخلوها من المحاورة التى يقدمها ابن المقفع فى أول كل باب . ومجىء قصص الحيوان فيها تابعة لقصص تاريخية ، بعضها عن ملوك العرب كقصة الوليد بن يزيد (ص١١) ؛ أو الفرس كقصة أردشير بن بابك بن ساسان (ص ١٣٠) ، أو يزدجرد بن سابور ذى الأكتاف (ص ٩٣) . ولم تهمل قصص ملوك اليونان أيضا (ص ١٠٣ ، وص١٣٦) .

كان ابن ظفر نحويا لغويا أديبا فى عصر غلب فيه الجدل والفلسفة وكان ابن المقفع أمام عينيه ، فجاء كتابه مطبوعا بكل هذه الطوابع .

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثالث عشر

فاكهة الخلفاء ـ مزربان نامة

مؤلفها ابن عربشاه [1] من أدباء القرن التاسع ؛ وهذه أشهر مولفاته :

١ ـ عجائب المقدور فى نوادر تيمور ، هو تاريخ تيمورلنك الفاتح المغولى ، بسط فيه حال ذلك الطاغية ، وما ارتكبه فى أثناء حروبه من الفظائع. وقد عاصره وسمع به . وهو مسجع العبارة طبع بمصر مرارا ، ونقل الى اللاتينية ، وطبع غير مرة فى لندن وباريس واكسفورد .

٢ ـ التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (جقمق) : فى جزءين

٣ ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء : فى الأدب على السنة الحيوان نحو كتاب كليلة ودمنة ، منقولة عن مزربان نامه ، نثرا مسجعا

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى الرومى ، ويعرف بابن عربشاه وبالعجمى ولد سنة ٧٩١ بدمشق ، ونشأ فيها ، وهرب مع أمه وإخوته إلى بلاد الروم ومنها إلى سمرقند ، وبلاد الخطا ، وأقام فى تركستان ، وتلقى العلوم على شيوخ تلك البلدان وغيرهم ، ثم نزح إلى المملكة العثمانية فى آسيا الصغرى ، وخدم سلطانها محمد الأول (حكم سنة ٨٠٥ ـ ٨٢٤ هـ) ، فنقل له بعض الكتب من الفارسية إلى التركية . وتولى له ديوان الانشاء ، وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربيها وفارسيها وتركيها ، فلما مات السلطان المذكور عاد ابن عربشاه إلى الشام فأقام فى حلب وقد تزايدت معارفه ، وانقطع للمطالعة فى الفقه والبيان ، ونزح الى القاهرة فى زمن الملك الظاهر جقمق (تولى سنة ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) حتى مات سنة ٨٥٤ فى الخانقاه بالصالحية وكان بارعا فى النظم والنثر وسائر العلوم يكتب فى اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وأتقن الخط . (ج٣ ص١٥٥ تاريخ آداب اللغة العربية كشف الظنون ج٢ /١٦٣ الضوء اللامع ج ٢/١٢٦)

www.ibtesamh.com/vb

٤ـ مرزبان نامه ، كأنه مختصر لفاكهة الخلفاء أو متن له .

ويتبين من ترجمة ابن عربشاه أنه كان جوالا : ولد فى الشام ، وتعلم فى بلاد المشرق، وخدم سلطان العثمانيين واتصل بالملك الظاهر جقمق ملك مصر. فسهلت عليه هذه الرحلات أن يتصل بآداب الفرس والترك ، وكان بطبعه أديبا ونقل بعض الكتب الفارسية للسلطان محمد الأول ملك العثمانيين ، ونقل مرزبان نامه إلى العربية أيضا ، وتاريخ تأليفه لفاكهة الخلفاء يدل على أنه كان فى مصر متصلا بالملك الظاهر جقمق فقد جاء فى آخر هذا الكتاب أنه فرغ منه سنة ٨٥٨ هـ والملك الظاهر توفى قبل ذلك بعام . وأشهر كتبه التى عن الحيوان :-

١ ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

ولعل هذا الكتاب آخر كتاب كبير وضع فى الأدب العربى على نمط كليلة ودمنة

وقد بين مؤلفه فى مقدمته أن كثيرا من الأذكياء يقصدون إبراز بعض الحكم والعبر ، على ألسنة الوحوش والبهائم والسباع ، وأصناف الأطيار وحيتان البحار ، وسائر الهوائم ، لتميل لسماعه الأسماع ، وترغب فى مطالعته الطباع ، لأنه أسند إلى مالا يعقل ، فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق ، وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق . أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ؛ ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها ، وتلقتها القلوب بالقبول ، والصدور بالانشراح ، والبصائر بالاستبصار ، وانتفع بها العامة والخاصة ؛ فى السياسة والمعاملات ، لئلا يكونوا أقل من العجماوات ؛ زيادة عما فيه من فكاهة للسامع . وسرور للنفوس .

وقد أشار فى هذه المقدمة إلى كتاب كلية ودمنة ، وسلوان المطاع ، والصادح والباغم ، فى لغة العرب ، وإلى جماعة أخرى وضعت كتبا مثلها فى

www.ibtesamh.com/vb

غير لسان العرب ، وأنه جمع فى هذا الكتاب مجموعة من الأخبار بلغته عن الرواة ، وجعلها على لسان أبى المحاسن حسان ، وجعل الكتاب عشرة أبواب، وسماه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» أما أبواب الكتاب فهى: -

الباب الأول : ذكر ملك العرب ، الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب

الباب الثانى : فى وصايا ملك العجم ، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم

الباب الثالث : فى حكم ملك الأتراك ، مع ختنه الزاهد شيخ النساك .

الباب الرابع : فى مباحث عالم الإنسان ، مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس : فى نوادر ملك السباع ، ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع .

الباب السادس : فى نوادر التيس المشرق ، والكلب الأفرق .

الباب السابع : فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الريال ، وأبى دغفل سلطان الأفيال .

الباب الثامن : فى حكم الأسد الزاهد ، وأمثال الجمل الشارد .

الباب التاسع : فى ذكر ملك الطير العقاب ، والحجلتين الناجيتين من العقاب

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب ، وسياسة الرعايا والأحباب ؛ ونكت وأخبار ، وتواريخ أخيار وأشرار .

وقد بين فى الباب الأول على لسان الشيخ أبى المحاسن أن السبب فى وضع هذا الكتاب أن قيلا من الأقيال ؛ واسع السلطان ، كثير الأعوان ، كان له ستة أولاد ، كل بالسيادة مذكور ، وبالعلم والحلم مشهور وكان أكثرهم فضلا وعقلا ، الحكيم حسيب ،

فلما مات أبوه استولى الأكبر على الملك وأطاعته المملكة ، ثم نفس عليه إخوته ، ونازعوه فى السلطان إلا حسيبا الحكيم ، فقد أراد أن يعتزل الفتن

www.ibtesamh.com/vb

إلى أن تنجلى الأمور ؛ ليؤلف كتابا ، يشتمل على فنون من الحكمة ، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة . ولطائف التهذيب . وأخلاق العباد ، ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد ، وتتوفر به مكارم الأخلاق والشيم ، وعوالى تهذيب النفس وطرائف الفضل والحكم » . وذهب إلى أخيه فأخبره بما استقر عليه رأيه ، فاستشار الملك وزيره ، فخوفه أخاه الحكيم وما عزم عليه ، وسأله أن يجمع بينهما ليبين للسلطان دسائسه . فجمع الملك كبراء الدولة وحكماءها وأدباءها وغيرهم فى مجلس عام ، للاستماع إلى رأى كل منهما. وتكلم الحكيم حسيب فقال إنه فى مثل هذه الحكم يجب حسن الأداء ، ثم حسن الاستماع ؛ ثم الاستفادة ، ثم المرتبة الرابعة وهى درجة العمل ، وأما الغاية القصوى فهى الاخلاص فى العمل ، وطلب الآخرة واتباع رضا المولى.

ثم بين أن النصيحة ثقيلة على النفس والقلب ، لأن النفس مائلة إلى الفساد ، والنصيحة محض خير وبر... والنفس مطبوعة على الأذى والشر ، فبينهما تنافر من أصل الخلقة »

ثم بين أن العقل أفضل شىء حل فى الانسان ، وأن الخلق الحسن أفضل درة فى تاج العقل ، وأن أفضل الناس بعد الرسول الكريم هو الملك الذى يحيى شريعته . وأورد بعد ذلك ما يجب على الملك من العدل والشفقة لتصلح أمور الرعية . وحذره الطيش والخفة ؛ ودعاه إلى اجتناب الإسراف والتبذير وأن يصرف المال فى وجوهه ، من غير سرف ولا تقتير . وأن يتفكر قبل أن يصدر أمرا .

ثم قال إنه أراد الاعتزال لما رأى المملكة مختلة والظلم فاشيا ، فدعاه الملك أن يستمع إلى رأى الوزير فيما قاله وما أراده ، فقال الوزير : إن ما ساد المملكة من الشدة هو بسبب فساد الناس والزمان ، وإعراضهم عن طاعة السلطان ، وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى ، وألبسه من خلع جبروته كمالا ومهابة وجلالا . »

www.ibtesamh.com/vb

فرد الحكيم حسيب بأن صلاح الرعية تابع لصلاح السلطان ، وأن على الحكام أن يعدلوا ، وألا يأخذوا أحدا بجريرة أحد ، وأن يسيروا على سنة أسلافهم ؛ ومن لم يفعل ذلك أصابه ما أصاب الذئب مع الجدى المغنى. وخلاصتها أن ذئبا أراد الاغارة على قطيع فعجز عن أن يصيب منه شيئا ليقظة الراعى وتحفظه، ثم تخلف جدى فأدركه الذئب ، وفكر الجدى فى حيلة يخرج بها من هذه الورطة . فقال للذئب إن الراعى قد أرسلنى هدية إليك لأنك لم تفجعه فى شىء من قطيعه ؛ وأمرنى أن أغنيك قبل أن تأكلنى ، وإن صوتى للذيذ ؛ ألذ للجائع من جدى حنيذ ، وغنى فطرب الذئب ؛ ودعاه أن يرفع صوته ، فغنى بأعلى صوته ؛ فسمعه الراعى فأقبل بعصاه ، فلم يشعر الذئب الذاهل ، وهو لحسن السماع غافل ؛ إلا والراعى بالعصا على قفاه نازل ، فهرب الذئب متألما نادما وهو يقول . (١)

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وانما أوردت هذا النظير ، لمولانا الملك والوزير ، ليعلم أن العدول ؛ عن طرائق الأصول ، ليس إلا داعية الفضول ، ولا يساعده معقول ولا منقول... ومن يشابه أبه فما ظلم ، ويؤخذ من مفهوم هذا الحكم أن من لم يشابه أبه فقد ظلم ، خصوصا الملوك والسلاطين.

ثم يقول : « ومن ترك التأمل والافتكار ، أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار فقال : أفدنا أيها المختار ، كيفية هذه الأخبار.

فقص عليه الحكيم قصة ابن آوى الذى كان يغير على بستان فشعر به صاحبه فسد عليه طرق الخلاص ، وضربه ضربا مميتا وألقى به فى الطريق ، فلما أفاق ترك البستان وقال ؛ لا خير لى فى جواره ، ولا قرب داره ، فإن سلمت هذه المرة ، فما كل مرة ، تسلم الجرة ، والأليق بالحال ، الترحال ...

(١) ص ١٩

www.ibtesamh.com/vb

والذى شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق » . وذهب إلى ذئب كان صديقا لأبيه فأحسن لقائه ، وعزم على الاصطياد ليطعمه ، فقال الثعلب : « لاتتعب فأنا أذهب ، فلى صاحب حمار ، كأنه تيس مستعار » وذهب ليأتيه به « ولما وجه ابن آوى لطلب الزبون ، انتهى فى سيره إلى طاحون ، فرأى حمارا قد آلمه العمل ، ثم تركه أصحابه فذهب إلى المرج يرعى « فتقدم ابن آوى اليه ، وسلم سلام معرفة عليه ، ... وسأله عن الأهل والأولاد ، فقال له : أى أهل وولد ، وأنا فى هذا البؤس والنكد ... هذا يركب وهذا يضرب . . . وهذا يحمل حمله ، وهذا ينخس بالمسلة ... فكانى فى مشاق كما قيل :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد

فاظهر ابن آوى التوجع ، وزين له الفرار إلى أجمة آمنة طيبة المرعى ، فرضى وسار معه مسرعا . فلما قربا من الأجمة أبصر الذئب ففكر فى الحيلة ، فقال للثعلب . لقد جئت قبل أن أودع جيرانى « وأبت مالى من التعلقات ، وأريد أن أرجع لأسوى أمورى هناك ، وأهم مايشغلنى أننى تركت هناك وصية من أبى ، لا أستطيع الهدوء بغيرها فى يقظة ولا منام . وألوى راجعا فرجع معه الثعلب ، وظل الحمار يحدثه حتى وصلا إلى الضيعة ، فرفع الحمار صوته بالنهيق ، فسمعته الكلاب ، فخرجت إلى لقائه فرأت ابن آوى وقد أرد الهرب ، « فاحتوشته وانتوشته ، واختطفته واقتطفته ، ووزعته ومزعته ومرشته وقرشته ، فلم تبق منه عينا ولا أثرا . »

ثم قال الحكيم حسيب . « وإنما أوردت هذا المثال وعرضته على الرأى العال ، ليعلم أن الاغترار بالكلام محال ، والإصغاء إلى الحكايات والقول البطال ، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمل فى مقاصدها ومخاويها ، والاعتماد على القضايا المزخرفة ، والركون إلى الأمور المسفسفة ، لا يفيد سوى الندم ، وزلة القدم ، والأصل فى الولايات والمناصب ، التفكير

www.ibtesamh.com/vb

فى الخواتم والتأمل فى العواقب .

عندئذ أدرك الملك والوزير فضل الحكيم حسيب ، واعترفا له بسداد الرأى ؛ وحكمه الملك فى ولا يته ، وولاه على الحكام والقضاة ، وبسط يده فى الأقاليم وأطلق لسانه فى التعليم ، « فنهض الحكيم من مجتمعه . . . وامتثل المراسيم الشريفة . واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفة ، وترتيبها بالعبارات اللطيفة . »

وتأتى بعد ذلك بقية أبواب الكتاب كما أوردناها فى المقدمة . وهذه خلاصة أحد الأبواب وهو الباب السابع فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الرئبال ، وأبى دغفل سلطان الأفيال .

قال الشيخ أبو المحاسن ، من ليس له فى الفضل مساو ولا مواس » : إن الملك سأل أخاه الحكيم حسيبا أن يقص عليه قصة القتال بين الأسد والفيل فروى له أن ملكا من الافيال كان له رعية وجنود وملك كبير فى جزيرة فى بعض أطراف الهند ، وكان قد رغب فى النزهة ، فعلم بمكان طيب يحميه أسد هصور ، فحبب إليه بعض رعيته أن يذهب إلى هذا المكان ، وأن يجلى الأسد عنه ، وكان للفيل أخوان اسمهما « المقبل والمدبر » وهما وزراه ، فاستشارهما فأشار عليه أخوه « المقبل » ألا يفعل ، فذلك ظلم وسوء جوار ، والأسد مالك صعب وسلطان خطير .

واستشار أخاه الثانى « المدبر » فقال إن الأسد حيوان ظلوم ، ويجب تخليص رعيته منه . وأن نفقات مملكة الفيل تزداد ، وسكان مملكته يكثرون ، ولا بد من مجال حيوى لهم ، يفى بنفقات المملكة التى تكثر يوما بعد يوم ، وضرب مثلا قصة تيمورلنك الأعرج الدجال ، « فسأل أبو مزاحم « الفيل » أخاه عديم المراحم . عن تلك القضية فأخبره بما فعل تيمورلنك من غزو وسلب ونهب ، حتى ظفر بما تطلعت إليه همته العالية .

فمال الفيل إلى رأيه وطلب من أخيه « المقبل » الاستعداد ، فحاول أن

www.ibtesamh.com/vb

بثنيه عن عزمه فلم يفلح ، وجمع الفيل جموعه وأعد عدته ، فاطلع على هذه الأحوال غراب يكنى أبا المرقال كان له وطن وولد ، وسكن فى ممالك الأسد ، لكنه قدم جزيرة الأفيال للتنزه ، على سبيل التفرج والتفكه ، فعاد إلى الملك وأخبره بما رأى، فجمع الاسد مجلسا من رئيس الاسود والنمور والثعالب والذئاب ؛ فأشار رئيس الاسد بالصلح ، وأشار رئيس النمور أبو مرسال بالمراسلة للصلح حتى يستعدوا . فإذا وقعت الحرب لم يؤخذوا على غرة ، وأشار الذئب بالتحف والهدايا ليكف عنهم الافيال، ورأى الثعلب إعمال الفكر والحيلة ، فاقترح أن يرسل رسولا يعرض الصلح ويتجسس، فان تم الصلح .وإلا عاد فأخبر قومه بما أعد الافيال لهم .فرضوا برأيه .واختاروا لذلك ذئبا ، فذهب فخوف الفيلة بطش الأسد وجنوده ، فثار الفيل وهاج ، وأرسل رسولا إلى الأسد يخيره بين التسليم والفرار ، فغضب الأسد غضبا شديدا ، وكاد يقتل الرسول .

واستشار أبا الحصين « الثعلب » فقال له : لاتخش بأسهم ، ولا تغتر بضخامتهم ، فإنهم أهون مما تظن ، وبحسن التدبير ، ومساعدة التقدير ، يتم لنا النصر .

ثم أخبره الثعلب « أن الوهم قتال ، والعاقل المدبر يحتال ، كما بلغ الحمار بعقله ما أراده ، فسأله ملك الأسد عن حكاية أبى زياد « الحمار »

فأخبره أن حماراً كان قد تركه أصحابه بعد ما شاخ ، فعاد إليه شبابه وقوته من طيب المرعى والفراغ ، وعلا صوته ونهيقه ، فخافه أسد كان يقيم قريبا منه . وفى ذات يوم كلمه وطلب منه طعاما ، فدعاه الحمار إلى منزله . فصادفهما نهر ، فقال له الأسد. أنا أحملك فى الذهاب، وتحملنى فى الإياب.وفى عودتهما أنشب الحمار مسامير نعله فى الأسد فآلمه ، وظن به القوة والبطش ووهم أن قوة الحمار أشد من قوته ، فترك له البلاد .

ثم أرسل (الأسد) أبو الضراغم إلى (الفيل) أبى مزاحم برسالة مع

www.ibtesamh.com/vb

الذئب حدثه فيها عن سبب وضع علماء الهند للشطرنج ، وأن صورة الرقعة صورة الممالك ، وأنها قسمت بالسوية ، وجعل لكل قسم جنس من الرعية ونوع من السير لا يتعداه ، ومكان لا يتخطاه ، وحذره أن يجور ويميل فيصيبه ما أصاب أصحاب الفيل ، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

ولكن الفيل لم ينته عما أقدم عليه ، فغلب هو وجنوده ، وانتصر الأسد وأعوانه ، وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام . من آذى جاره ورثة الله داره . والله لا يهدى القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه ، وآله وصحبه وسلم أجمعين »

والطريقة التى اتبعها الحكيم فى تأليف أبواب الكتاب أن أورد حكايات ونوادر عن أشهر ملوك الأمم فى أيامه ، أو الشعوب المعروفة فى زمانه ، فأورد نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك فى الأبواب الثلاثة الأولى ، فلما فرغ منها أورد مباحث زاهد الأنس العالم ، مع شيطان الجن الآثم . فلما فرغ أمره أخوه أن يقوى الطباع ، بذكر نوادر الوحوش والسباع . فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه ، وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ، ومن مباحث الجن والإنس ، استطرد إلى فوائد البهائم والوحوش ، ورقم فى دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ؛ ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النقوش ، فافتخر أخوه القيل بوجوده (١) وقال له : قد أفدت حكم سائر الحيوان ، فكرر علينا من حكم منطق الطير ، ففعل ، وذلك فى الباب التاسع والعاشر .

« فلما انتهى الحكيم فى مقترحه ؛ وما قصده من بيان محاسنه وملحه ، .

(١) ص ١٤٩

www.ibtesamh.com/vb

نهض الوزير وقبل قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ؛ وملك الكلام يصرفه كيف شاء ، ، وأنه شيخ المنقول وأستاذ المعقول . وأما أخوه الملك ففرح به ، واتخذه فى مهام أموره ، مقام أميره ؛ ودعاه أن يسعى فى الصلح بينه وبين إخوته ففعل ؛ وانتهى الكتاب .

وهذا كتاب آخر من وحى كليلة ودمنه ، ألف فى القرن التاسع الهجرى واقتدى مؤلفه بابن المقفع أو بالحكيم بيدبا ، وجعل المواعظ فيه على ألسنة الحيوان والطير ؛ وجعل الحكيم حسيبا يقف من أخيه موقف الموعظة ؛ فلا يرضى الوزير بذلك حتى يسمع ما يرغمه على الاعجاب ؛ كموقف دبشليم من بيدبا ؛ فلما انتهى من مواعظه وآدابه وما رسمه فى كتابه من حكم وسياسة للعامة والخاصة ، رضى عنه الملك وجعله مقدما فى دولته ، ومستشارا فى أموره ؛ فأصلح بينه وبين إخوته ، كما أصلح بيـــدبا بين الملك دبشليم وبين رعيته .

لكن بيدبا كان أشجع من الحكيم حسيب ، فأنه عرض نفسه لغضب دبشليم ، ولم يقصر فى تقديم النصيحة مع علمه ببطش الملك . أما حسيب فقد أراد أن يعتزل ، ولولا أنهم دعوه وناقشوه ما ذاعت آراؤه . ولعل حقوق الاخوة هى التى جعلت الموقف اكثر اعتدالا مما كان بين دبشليم وبيدبا ، ولعل ابن عرب شاه راعى ذلك ؛ فدل به على دقة ملاحظته للموقف ، وما يتطلبه من معاملة .

وقد اقتفى آثار كليلة فى جعله قصصا على ألسنة الحيوان ؛ وفى الاستطراد من قصة إلى قصة ؛ وفى ضرب الامثال ، وايراد القصص لتفسيرها ، لتكون هذه الامثال بمثابة الربط بين القصة الاصلية وفروعها .

ولكنه زاد على ما فى كليلة ودمنه أن رتب ابوابه على النحو الذى أشرنا اليه والذى يمكن أن نقسمه أربعة أقسام : حكايات الملوك ؛ حكايات الانس

www.ibtesamh.com/vb

والجن ، حكايات الوحوش والبهائم ؛ حكايات الطير . وأكثر من الحكايات التاريخية عن ملوك فارس والترك والمغول . ومن الصفات الظاهرة فى هذا الكتاب :

١ — أنه جعل الحكايات على لسان راو ، هو الشيخ أبو المحاسن حسان، تأتى اسمه فى أول كل باب ، فيحدثنا عن الحكيم حسيب وأخيه الملك فى ذلك المجلس ، وتارة يقول لنا أبو المحاسن إن الحكيم هو الذى تكلم ، وتارة يخبرنا أن اخاه هو الذى اقترح عليه الموضوع الجديد . وربما كان متأثرا فى هذا بطريقة المقامات .

٢ أما الغاية الخلقية من الباب فلم يلتزم إيرادها فى كل باب ، وإن التزم ذلك فى كل قصة جزئية ، فقد ختم الباب السادس بقوله : «وفائدة هذه الحكايات» ، والباب الثامن بقوله : «وفائدة هذا المثل الجارى بين الدب والجمل معرفة فضيلة الأمانة ؛ ووخامة المكر والخيانة» . وقد يقول هذه الفائدة ضمنا ، كما ختم الباب السابع بقوله : «وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام : «من آذى جاره ورثه الله داره»

أما الختام الذى التزمه فى آخر كل باب فهو : الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، بصور متعددة ، وإن كانت معانيها متحدة .

٣ - وقد كثر فى كل باب أن يذكر الحيوان بكنيته أو بلقبه : فيسمى الأسد أبا الأشبال ، والرئبال ، وأبا الحارث والحيدرة . ويسمى الفيل أبا دغفل وأبا مزاحم ، والحمار أبا زياد ، والغراب أبا المرقال ، والثعلب أبا الحصين ، والفأرة أبا راشد ؛ والدب أخا نهشل ؛ والنمر أبا مرسال ، والجمل أبا أيوب ، وهكذا . وربما كان ذلك من تأثير العصر الذى كثر فيه استخدام الألقاب والكنى وخلعها على الملوك والوزراء والفقهاء والكتاب . وغيرهم من كل من له عمل فى الدولة ، وليست البهائم والطير أقل قدرا فى

www.ibtesamh.com/vb

هذه الحكايات.

٤ — جعل الكتاب معرضا للعلوم والمعارف المشهورة فى زمانه. فاورد فيه مسائل فلسفية وحكايات تاريخية. ومشكلات فقهية: وأحكاما منطقية، ومناقشات كلامية.

٥ — أما القواعد التى أوردها فى الآداب والأخلاق، والحكم التى جاء بها لاصلاح المحكومين والحاكمين، فى معاملتهم الخاصة والعامة: فمستقاة من الدين، ومن فلسفة الأخلاق، ومن الآداب السلطانية. وقد جاء منها الكثير الذى شمل كل أنواع المعاملات الانسانية تقريبا: كآداب العبد مع ربه وآداب الحاكمين والمحكومين، والأصدقاء والاولاد والزوجة، وتدبير الأموال، وقيادة الجنود وحقوق العلماء ورعاية الجار، وحسن تدبير المال؛ وهكذا.

٦ — أما طباع الحيوان فقد راعاها فى قصصه إلى حد كبير، ولكنه قد يخرج عليها فى بعض القصص، كقصة الحمار الذى غر ابن آوى، والأول مشهور بالجهل والثانى مشهور بالمكر. وجدى الراعى الذى غر الذئب فغنى له حتى سمعه الراعى، والاول مشهور بالغفلة والثانى بالخبث والغدر.

٧ — أما أسلوبه فقد كان صورة صادقة لأسلوب القرن التاسع هـ. الذى ظهر فيه الكتاب، ومن أظهر صفاته الصناعة اللفظية كالسجع والجناس وتكلف التشبيهات والكنايات إلى حد مملول. وقد تقدمت أمثلة ذلك.

وقد استخدم فيه مصطلحات العلوم والفنون بكثرة، واقتبس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأشعار القديمة والحديثة، وترى فيه الأمثال والكلمات العامية المصرية مثل: كل شىء تزرعه ينفعك إلا ابن آدم إذا زرعته، يقلعك. عرف الكلب بيت العميا. ما كل مرة تسلم الجرة. من خرجت قرعته

www.ibtesamh.com/vb

كسرت قرعته . ذهبت السكرة وجاءت الفكرة . الزبون . برطلوا ، عليه ؛ ما كان مستعملا فى زمانه . وما زال بعضه مستعملا إلى اليوم .

وهذا الكتاب اهم الكتب التى ظهرت فى العصور التركية تقليداً لكليلة ودمنة. ولو خلا من القيود اللفظية التى اثقلته، ومن الاستطراد الذى ورثه عن كليلة ودمنة، واستقلت قصصه، لكان من أهم الكتب التى ظهرت فى خرافات الحيوان

كتاب مرزبان نامه

أما كتاب «مرزبان نامه» فيعتبر أصلا لفاكهة الخلفاء . ويقول ابن عربشاه فى مقدمته (ص٥) : « وقد وُضع فى ذلك ـ قصص الوحوش والبهائم وسائر الطير والسباع ـ كتاب يسمى بمرزبان نامه ، مترجم باللسان التركى عن الفارسى ، فأشار إلى المخدوم الذى لا يمكننى مخالفته أن أترجمه باللسان العربى فامتثلت أمره وترجمته ، وقد جعله واضعه ثمانية أبواب .

الباب الأول : فى تسميته وسبب وضعه .
الباب الثانى . فى ذكر العالم والعفريت .
الباب الثالث : فى ذكر أحوال الثعلبين .
الباب الرابع : فى ذكر الكلب المسمى بالذكى والعتر .
الباب الخامس : فى ذكر السبع والأفيال .
الباب السادس : فى ذكر وقائع الجمل والأسد .
الباب السابع : فى ذكر ملك الطير والحجلتين .
الباب الثامن : فى معاملة الأحباب .

وترى من هذه الأبواب أن كتاب فاكهة الخلفاء يزيد بابين هما الثانى والثالث فيه ، أما أسماء هذه الأبواب فتكاد تكون واحدة ، إذا حذفنا مقتضيات السجع فى فاكهة الخلفاء .(انظر ص ١٧٨ من هذا الكتاب)

وأما ماتنطوى عليه هذه الأبواب من المعانى والحكايات والغايات الخلقية

www.ibtesamh.com/vb

فتشابه فى كليهما تشابها كبيرا .

والفرق بين الكتابين شكلى ، وإن كان الراوى أبو المحاسن حسان ، وبعض حكايات فاكهة الخلفاء ليس له نظير فى كتاب « مرزبان نامه » . ويكثر فى فاكهة الخلفاء السجع المتكلف المملول ، والجمل والكلمات والأمثال العامية . ولا تجد إلا قليلا من ذلك فى مرزبان نامه .

ويشتركان فى الصفات العامة ، والمقاصد التى يرمى إليها كل منهما كاصلاح الحاكمين بالمواعظ وضرب الأمثال ، وبيان مالهم وما عليهم ، مع شىء من التلطف والتملق عند الحديث عنهم أو إليهم ، والاكثار من الأمثال والآيات والأحاديث ، وشواهد الشعر والنثر فى القديم والحديث ، واستخدام طرق الفلاسفة والمناطقة والفقهاء والصوفية ، فى أثناء الحديث على لسان الناس والحيوان ، ممن يأتى ذكرهم فى الكتابين ؛ فكثرت المصطلحات العلمية وأساليب العلماء لذلك .

وهذا بعض ماورد فى الباب الأول من مرزبان نامه على لسان مرزبان لأخيه :

« يجب على الملك أن يصغى إلى نصيحة الذى قد جرب منه الصدق والمودة وعلم منه محض النصيحة ، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها ، فان الناصح المشفق مثل الحكيم الحاذق : إذا اشتكى إليه المريض مرارة فمه ، فانه يصف له دواء مرا ، فإنه ما وصف له الدواء المر إلا ليعيد إليه حلاوة فمه . ولا يستحقر النصيحة ولا الناصح ، فان سليمان عليه السلام ، من أجل سادة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، وهو أحد من ملك الدنيا ، وحكم على الجن والأنس والطير والوحش والريح - استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره ، ولما خالف وزيره آصف بن برخيا فى قضية ابتلاه الله تعالى ؛ وسلب ملكه حتى صار أجيرا لسماك على ما قيل .»

www.ibtesamh.com/vb

وهذا ما أتى فى فاكهة الخلفاء فى هذا الموضوع نفسه [١]

« وعلى الملك أن يصغى للنصيحة : ممن مودته صحيحة ، وقد جرب منه الصدق . وعلم منه الاخلاص فى النطق ، لاسيما إذا كان ذا عقل صحيح ، وود صريح .. ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها . . . فان الناصح المشفق كالطبيب الحاذق ؛ فان المريض الكئيب ، إذا شكا إلى الطبيب ، شدة ألمه ، من مرارة فمه ، يصف له دواء مرا . فيزيد حرارته حرا ، فلا يجد بدا من شربه ، وان كان فى الحال ينهض بكربه ؛ لعلمه بصدق الطبيب ، وأنه فى الرأى مصيب ، وما قصد بالدواء المر ، زيادة الضر ، وإنما قصد بألمه ، عودة الحلاوة لفمه . ولا يستحقر النصيحة ، إن كانت صادقة صحيحة ؛ ولا الناصح ، خصوصا الرجل الصالح ، فان سليمان وهو من أجل الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وأحد من ملك الدنيا . وحكم على الجن والانس والطير والوحش والهوام ، استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره . وخالف وزيره آصف برخيا فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك ، وصار كما قيل ، أجيراً لصياد السمك . [٢]

والنصان يوضحان ما تقدم .

أما الكتابان فأرجح أنهما كتبا للسلطان الظاهر « جقمق » ، من مماليك برقوق . فقد كان عهده من خير العهود فى تاريخ المماليك ، وهم الذين كثرت فى أيامهم المظالم ، وسوء أحوال الحكام ، وحوادث القتل والغصب ، وفداحة الضرائب ، ومكايد القصور . ودسائس القواد والولاة .

---

(١) ص ٩ فاكهة الخلفاء

(٢) قصة سليمان واشتغاله أجيرا لسماك أو طباخ ، قصة يهودية أتى بها الكشاف عند تفسير قوله تعالى « ولقد فتنا سليمان » فى صورة (ص) وهى موجودة فى دائرة المعارف اليهودية مادة : سليمان

www.ibtesamh.com/vb

غير أن السلطان جقمق كان حاكما قويا . وقد مدحه موير (Muir) [1] فقال عن حكمه إنه كان « خير حكم » بالنسبة للمماليك ؛ وإنه كان « نموذجا حسنا في إسلامه » وأنه أحب العلماء ورغب في مصاحبتهم . »

كل هذه الظروف ترجح أنه هو المراد بقول ابن عربشاه في مقدمة مرزبان نامه (ص ٥) « فأشار إلى المخدوم الذي لا تمكنني مخالفته أن أترجمه باللسان العربي »

أما فاكهة الخلفاء فقد جاء في ختامه أنه انتهى من تأليفه «سنة ٨٥٨ هـ» بعد موت السلطان جقمق بعام - وقد ألفه على هذه الطريقة الرمزية التي ضرب فيها الأمثال . وأتى بالقصص - وأكثرها من الحيوان - عسى أن يكون في ذكرها مايلين قلوب أولئك الحكام الظالمين، ويهديهم سبيل الرشاد. وكان له في اخلاق السلطان جقمق ؛ وتسامحه ، وحبه للعلماء ، خير مشجع على الجهر بهذه النصائح الرمزية ؛ تعليما للملوك وتأديبا للرعية .

---

(١) ص ١٤٥ تاريخ دولة المماليك في مصر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الرابع عشر

« قصص الحيوان فى ألف ليلة »

« ألف ليلة وليلة » كتاب يشتمل على قصص متنوعة ، بعضها له أصل تاريخى ، وبعضها من عمل الخيال والاختراع ، وبعضها مصرى وبعضها عراقى وبعض حكاياته وارد من الهند ، وبعضه منقول عن الفرس وبعضه من أصل عربى (١)

وقد كان للحيوان فيه قصص مهمة . فقد بدأ الكتاب بالحديث عن بطش الملك « شهر يار » بنسائه وجواريه بسبب خيانة زوجته ، وصار يتزوج كل ليلة امرأة ثم يقتلها ، حتى ضج الناس ، وهربوا من المدينة فأمر وزيره أن يجدله زوجة فلم يجد ، وعاد الوزير إلى بيته محزونا مغتما . وعرفت بنته « شهرزاد » السبب ، فقبلت أن تتزوج من الملك ، فإما أن تعيش ، واما أن تكون فداء لبنات المسلمين ، وسببا لخلاصهن من بين يديه . وأصرت ، فحذرها أبوها ، وقال لها : « أخشى عليك أن يحصل لك ما حصل للحمار والثور مع صاحب الزرع . فقالت له : وما الذى جرى لهما يا أبت ؟ فقص عليها أبوها الحكاية وخلاصتها : أن تاجراً من الريف كان يعرف لغة الحيوان والطير ، وكان عنده فى داره حمار يكرمه ، وثور يرهقه . فسمع الثور يوما يشكو إلى الحمار مشقة العمل ، فنصح له أن يتمارض ويمتنع عن الأكل والشرب حتى يستريح ، ففعل . فلما سمع صاحبهما بمرض الثور — أو تمارضه — أمر أن يحل الحمار محله . فلما ثقل الحمل على الحمار ذهب إلى الثور وقال له: لقد سمعت صاحبنا يفكر فى بيعك للجزار إن لم تقم ، فلما سمع هذا الكلام شكر الحمار

(١) فى أصول الادب للزيات ص ٥٠

www.ibtesamh.com/vb

وقال له فى غد أسرح معهم . ثم أن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المدود بلسانه .كل ذلك وصاحبهما يسمع كلامهما » . وأصبح الثور نشيطا معافى ؛ فضحك صاحبه لما رآه حتى استلقى على قفاه من الضحك . فسألته زوجته عن السبب ، فأخبرها أنه سر ؛ إذا أفشاه مات . فأصرت على أن تعلم السبب ؛ فجمع أولاده والشهود والقاضى ، وجمع أهله وأهلها وأهل حارته، وأخبرهم بأمرها ، وأنها تلح عليه أن يفشى السر ، وفى ذلك هلاكه . فأصرت على أن تعلم السبب . فرضى زوجها وسلم أمره لله .

ثم إن التاجر ترك هذا الجموع وذهب ليتوضأ قبل أن يموت. وكان عنده كلب وديك تحته خمسون دجاجة . فسمع الكلب يلوم الديك على فرحه وسروره فى اليوم الذى سيموت فيه سيده . فسأله « وكيف ذلك الأمر » فأخبره بالقصة . فقال الديك : والله ان صاحبنا قليل العقل . أنا لى خمسون زوجة أرضى هذه وأغضب هذه ، وهو ما له إلا زوجة واحدة ، ولا يعرف صلاح أمره معها ! فما له لا يأخذ بعضا من عيدان التوت ثم يدخل إلى حجرتها ويضربها حتى تموت أو تتوب ، ولا تعود تسأله عن شىء ! » فلما سمع التاجر كلام الديك عاد وقد عزم على ضربها .

ثم قال الوزير لابنته : ربما فعل بك مثلما فعل التاجر بزوجته ، فسألته عما فعل ، فقال : إنه أدخلها حجرة ليقص عليها الخبر ثم يموت ، ولكنه لما خلا بها فى الحجرة ضربها ضرباً شديداً بعيدان من التوت حتى أغمى عليها « فقالت له تبت ، ثم إنها قبلت يديه ورجليه ، وتابت وخرجت هى واياه ، وفرح الجماعة وأهلها ، وقعدوا فى أسر الأحوال إلى الممات .

وهذه الحكاية فى المقدمه ، ويرجح أن هذه المقدمة من أصل هندى وقصة الحمار والثور هذه شبيهة بقصص كليلة ودمنة .

بجانب ما فيها من إخراج قصة من أخرى ومشابهة للأسلوب فى القصص الهندي، فان من لوازم القاص الهندي أن يقول : لاتعمل ذلك ،وإلا أصابك

www.ibtesamh.com/vb

ما أصاب فلانا ، فيسأله السامع : وكيف ذلك . فيجيب القصاص على هذا السؤال برواية القصة .... وقولهم فيها « كيف كان ذلك » ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية « كاثات اثات » (١) .

أما أثر القاص المصرى فى هذه الحكاية فواضح فى أسلوب كتابتها والفاظها العامية فيما تقدم .

ثم أن المغزى فى هاتين الحكايتين ظاهر . فإن الحمار قد آذاه قوله ، ورأى لغيره ولم ير لنفسه (٢) . وأما الديك فقد كان مرشداً إلى صلاح الأحوال الزوجية بطريقته العنيفة التى جاءت بثمرتها مع الزوجة .

وهذه قصة وردت ، فى قصة الملك يونان والحكيم روبان ، فى الليلة الخامسة إذ قال الملك لوزيره : أنت دخلك الحسد من أجل الحكيم فتريد أن أقتله وبعد ذلك أندم ، كما ندم الملك السندباد على قتل البازى ، ثم أخبره بأن السندباد خرج للصيد ومعه هذا البازى : وطارد غزالة حتى ظفر بها فى مكان قفر ، وعطش الملك ، وعطش الحصان ، فلم يجد الملك إلا شجرة ينزل منها ماء مثل السمن ، فأخذ طاسة وملأها منه ؛ فلطش البازى الطاسة فقلبها ، وكرر ذلك . فضربه الملك بالسيف « فرمى أجنحته ، فصار البازى يقيم رأسه ويقول بالإشارة : أنظر الذى فوق الشجرة ، فرفع الملك عينه فرأى فوق الشجرة حية ، والذى يسيل سُمُّها ، فندم الملك على قص أجنحة البازى ؛ ومات فحزن عليه حزناً شديداً ؛ لأنه جازاه على الاحسان بالأساءة وندم حيث لم ينفع الندم .

وفيه من القصص الشبيهة بكليلة ودمنة باب خاص عنوانه « حكاية تتعلق

---

(١) Ancient India and Indian Civilization P. 325
وفى أصول الأدب للزيات .

(٢) ص ٢١٧ كليلة ودمنة باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

www.ibtesamh.com/vb

بالطيور » وقد مهد الكتاب لذلك بقوله « ثم أن الملك قال لشهر زاد : أشتهى أن تحكى لى شيئا من حكاية الطيور ، فقالت حبا وكرامة .

وقصت عليه قصة الطاوس الذى كان يأوى إلى جانب البحر مع زوجته ثم هربا خوفا من الوحوش والسباع . فنزلا بجزيرة وأكلا من ثمرها وشربا من أنهارها . ثم أقبلت عليهما بطة فزعة وحذرتهما ابن آدم ، فنزلت إليها زوجته ، ورحبت بها وأخبرتها أن ابن آدم لايستطيع أن يصل إلى هذه الجزيرة . فأخبرتها البطة أنها رأته فى المنام ، وأن مناديا ناداها فحذرها منه ومن حيله وخداعه ، وأنها قامت من نومها مذعورة ، ولقيت شبلا فاستجارت به فقبل حمايتها ، ثم أخبرها أن والده يحذره ابن آدم . وأقبل عليهما حمار فزع وأخبرهما بما يلقاه من ابن آدم ، وأنه هارب منه ، وقد تركه قبل اشراق الشمس .

ولقوا بعد ذلك حصانا فأخبرهم بما يصيبه من الآدمى وأنه قد فارقه فى نصف النهار . وظهر لهم جمل قص عليهم قصته مع ابن آدم ، وقال أنه فارقه وقت الغروب . وأراد الهرب فاستبقاه الشبل قائلا : تمهل قليلا ياجمل حتى تنظر كيف أفترسه وأطعمك من لحمه ، وأهشم عظمه وأشرب من دمه . قال له الجمل : يا بن السلطان أنا خايف عليك منه .

وقد تحقق ظن الجمل ، فقد جاءهم نجار من بنى آدم ، فصنع صندوقا واحتال على الشبل حتى أدخله فيه ، وألقى به فى حفرة وأحرقه . (١)

وسمعت الطاوسة كلام البطة فسرت عنها وقالت لها « إن كان على جيننا شىء نستوفاه » . (٢)

ثم ظهر لهما غزال وأكرما مثواه . ثم نزل بالجزيرة قوم من بنى آدم

---

(١) ص ٢٤ ج ٢ (٢) ص ٢٦ ج ٢

www.ibtesamh.com/vb

فصادوا البطة وهرب الظبي والطاوسة ، فصاحت البطة قائلة « لم ينفعنى الحذر من القضاء و القدر » .

واجتمع الظبي والطاوسة بعد ذلك لحذرها مكر ابن ادم وخداعه فقالت له: « ما قتل البطة غير تركها التسبيح ولقد قلت لها انى أخاف عليك من تركك التسبيح ، لأن كل ما خلقه الله يسبحه ، فان غفل عن التسبيح عوقب بهلاكه » .

ويقص قصصا أخرى عن الحيوان ، أليفه ووحشيه ، ويفرغ منها بمثل هذه النتيجة « لاينفع الحذر من القدر » ويعرض فى أثناء هذه القصص كثيرا من الحكم والأقوال الوعظية التى فيها رجوع إلى الله ، أو دعوة إلى حسن سياسة ، أو ارشاد إلى خلق قويم ، أو شبه ذلك .

ونعود فى الجزء الرابع فى حكاية « ورد خان » ابن الملك « جليعاد » إلى حكايات كليلة ودمنة معدلة بالزيادة أو النقص ، وموشاة بالحكم والآداب ومتبوعة أو مسبوقة بالعبارات المألوفة عند الانتقال إلى القصص الحيوانية

وهذه القصص الحيوانية تأتى استطرادا فى «ورد خان» وان شغلت الجزء الأكبر منها . ويغلب على الظن أن القصة الرئيسية وضعت لجمع هذه القصص الحيوانية ، وضم بعضها إلى بعض من أجل غاياتها الخلقية .

فى القصة أن جليعاد كان ملكا عقيما من ملوك الهند ، وأن الله رزقه بولد ، وأخبره المنجمون أنه سيحكم بالبطش والقسوة أولا ثم يصلح حاله ، وقد كان .

وإذا رجعنا إلى القصص الحيوانية فى ألف ليلة وجدناها أشكالا منها:

١ - ماهو شبيه بكليلة ودمنة ، كالقصص الأولى فى مقدمة الكتاب ومنها قصة التاجر وحماره وثوره وكلبه وديكه . وقصص الحيوان والطير فى الجزء الثانى . وقصص ورد خان فى الجزء الرابع .

www.ibtesamh.com/vb

٢ - ومنها قصص يخترع فيها الحيوان من اللحم والدم ارضاء لخيال الانسان ورغبته فى أن يصعد الى طبقات الجو ، على بساط الريح أو باجنحة الطير ، أو على مراكب يخترعها وتسبح به فى السماء ، ، كحصان الأبنوس فى « حكاية الحكماء أصحاب الطاوس والبوق والفرس » (ج ٢) ، وهى مأخوذة من قصة فشنو والنساج التى تقدمت (ص ١١٧)

٣ - ومنها حكايات عن عجائب المخلوقات من الحيوان الغريب الشكل فى قصة « حاسب كريم الدين » وقصص السندباد . (ج ٣)

هذا عدا ما اشتملت عليه من قصص السحر التى تحول الانسان فيها حيوانا أو جمادا ، ولا شك أن اختلاف أزمنة هذه القصص ومصادرها ، هو السبب فى هذه المجموعات المتباينة من القصص الحيوانية فى ألف ليلة وليلة . ومن هنا رأينا اختلافها عن قصص الحيوان فى كليلة ودمنة ومقلديه ، وفى قصص اخوان الصفاء وابن الهبارية .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الخامس عشر

الخرافات الحديثة

تأثرت الخرافة الحديثة عندنا بالخرافة الغربية ، وتأثرت بعلوم التربية الحديثة ـ و أكثر رجالها من العلماء الغربيين – وسلسلة نسب هذه الخرافات الغربية ترجع إلى اليونان ، وأشهر رجالها عندهم هو ايسوب الذى سبقت الاشارة اليه (ص ٣٦ من هذا الكتاب) ، وجاء بعده بثلاثة قرون « ديمتريا س، الفاليرى فكتب مجموعة من هذه الخرافات تشمل ما نقل إلى اليونان من مصر، ونسب كل منها إلى إيسوب السابق .

ونظم بابريوس « Babrius » الذى عاش قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة بعض هذه الخرافات فى أسلوب جميل .

أما أشهر من كتب الخرافات اللاتينية ، وكان مقلدا فيها للاغريق كغيره من أبناء قومه ، فهو فيدراس [1] Phedrus وقد نظم القديم منها كما فعل بابريوس . والفرق بينهما أن شعر بابريوس رقيق ، أما الثانى فقوى موجز يطبع الخرافة الاغريقية بطابع الوقار .

ولما طغى البرابرة على الدولة الرومانية لجأت الخرافات اللاتينية والاغريقية إلى الأديرة . فجمعت كتبها هناك وانتفع بها بعض القساوسة فى الوعظ ، ومنهم « القديس سيريل Saint Cyrille » فى القرن التاسع م. الذى جمع منها مجموعة ينتفع بها هؤلاء الوعاظ ، ولكنها كانت ثقيلة ومتكلفة .

---

(١) فيدراس : تاريخ حياته مجهول كغيره . يقال إنه ولد فى مقدونيا وكان رقيقا ثم أعتق وعاش فى عهد تيبير « Tibére » حوالى القرن الأول .

www.ibtesamh.com/vb

وظهرت القوميات فى أواخر القرون الوسطى ، واهتمت كل أمة بلغاتها واتصل الأوربيون بالشرق مرة ثانية ، فى اسبانيا ، وفى الحروب الصليبية ، وفى الرحلات . فعرفوا الخرافات الشرقية ، كما اهتموا بالخرافات المحلية .

وكان من ذلك كله أن تجددت الخرافة وأصبحت تستقى من خيال الشعوب ، ومن الخرافة القديمة المدخرة فى خزائن القساوسة ، ومن الخرافات الشرقية . وقد يضيف اليها بعض الكتاب خرافات مستقلة ، من خيالهم أو مبنية على ماهو شائع فى قومهم .

وتمتاز الخرافات الشرقية الأصل بما فيها من شخصيات وحوادث وعادات أجنبية . وقد تمتزج فى الخرافة صفات الشرق والغرب .

وأشهر من نظم خرافات من مؤلفى العصور الوسطى « ميرى دى فرانس »[1] فقد نقلت إلى الشعر الفرنسى مجموعة من الخرافات ترجمها « هنرى الأول » ملك انجلترا عن اللاتينية الى الانجلوسكسونية .

وإذا كنا نجهل كثيرا من كتاب الخرافات فى هذه العصور التى ازدهرت فيها فقد شاعت خرافاتهم وتحمس لها الجمهور ، وأقبل عليها الشعراء والأخلاقيون ورجال السياسة ، يؤلفون فيها ، أو يقتبسون منها ، فى كل مناسبة . وأكثر من اهتم بها أولئك الذين يخاطبون الجماهير الساذجة ، ذات النفوس الصافية ، التى تسرها هذه التعاليم والأخلاق فى صورة لطيفة تعرف طريقها إلى القلب

وقد اهتم بها مارتن لوثر[2] وظنها خير مرشد إلى الفضائل ، فطبع ونقح إيسوب .

---

(١) ميرى دى فرانس « Marie de France » : ولدت فى كامبين Campiégne فى أواخر القرن الثانى عشر .

(٢) مارتن لوثر « Martin Luther » : (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) . من أشهر رجال الاصلاح الدينى فى ألمانيا ومؤسس المذهب البروتستنتى :

www.ibtesamh.com/vb

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر نصح البابا بيوس الرابع لأحد الشعراء فنظم مائة خرافة شعرا [١] فجاءت نادرة الرقة ، صافية الأسلوب .

أما إسبانيا فكانت تفضل الخرافات الشرقية التى ورثتها عن العرب وتضمنها المقالات والقصص المطولة .

ونشر فى فرنسا كثير من الخرافات فى القرن السادس عشر وتمتاز برقتها وبساطتها وقوة عباراتها .

أما النصف الأول من القرن السابع عشر فكان عصر انحطاط وإهمال لها ، حتى جاء لافونتين فارتفع بها إلى أعلى درجاتها .

لافونتين [٢]

Jean de La Fontaine

مجموعة خرافاته التى نشرها أوبرتان خليط من الخرافات الشرقية والغربية قديمها وحديثها ، وقد أشير فى ذيل الصفحات عند كل خرافة إلى مصدرها ان كان معروفا - وأكثرها معروف - .

وكانت نفس لافنتين ميالة إلى التأمل والدراسة ، والاستغراق أحيانا ، فى ملاحظة الحيوان . كان يجد السرور « فى نزهة خلوية وحيدا ، وفى التأمل وفى ملاحظة طرق الحيوان الأعجم وأخلاقه . وهى دراسة أوحت إليه بفكرة الخرافات التى أهدى فيها إلى قومه ، وإلى الناس جميعا ، خير مجموعة من قصص الحيوان فى الشعر . » [٣]

---

(١) « Aubertin. P. 29. »

(٢) لافونتين : ١٦٢١ — ١٦٩٥ . من أسرة فرنسية عالية . أراد ان يدرس الدين ولكنه عدل عنه إلى القانون . ولم يبدأ الكتابة إلا بعد الثلاثين وبدأ الخرافات بعد ذلك (The Outline of Lit P. 375)

(٣) مقدمة تارفر Tarver عن لافونتين ص ١٨

www.ibtesamh.com/vb

وكان يعتقد أنه يحاول عملا جديدا مهما ، وقد قال فى مقدمته الأولى :
« اننى أخدع نفسى ؛ مؤملا إذا لم أستطع السير فى هذا العمل بنجاح
أن أظفر فضل البدء فيه . »

وكان يستغرق فى ملاحظة الحيوان فينسى كثيرا مما يجب أن يفعل :
« يحكى أنه دعى يوما إلى الغداء عند صديق له ، فنسى ذلك نسيانا تاما .
ولما سئل عما شغله أجاب بأنه كان يحضر جنازة نملة ، وأنه صحبها إلى القبر ،
ثم عاد مع الأسرة الحزينة التى فقدت السلوان » .

على أن دراسته للحيوان لم تكن دراسة علمية ، ولا أراد ذلك فى خرافاته ، ولكنها كانت نوعا من الاستغراق فى الموضوع ظهرت آثاره فى كتابة تلك الخرافات العظيمة .

وتمتاز هذه الخرافات ببساطتها ، ورقة شعرها ، وتنوع أغراضها ، وحسن تصوير شخصياتها .

وتكاد كل خرافة منها تحتوى على قصة قصيرة ، ووصف ، وحديث أو حوار ، وتمثيل ، وتصوير للشخصيات ، وفكرة خلقية . ويظهر فيها حبه للطبيعة ، ومقدرته فى الشعر وفى الملاءمة بين أجزاء القصة .

ومن أظهر ما تتميز به هذه القصص أنه جعل أبطالها من الحيوان صورا لأفراد الجماعات الإنسانية . وقد نشر « هنرى تين » (١) « Taine » كتابا عن خرافات لافونتين ، بين فيه هذا التشابه بين جماعات الحيوان وطبقات الناس فى العصر الذى عاش فيه لافونتين .

ومن ذلك أنه عقد موازنة بين السبع والملك ، فبين أن لافونتين يرى صاحب الجلالة «الأسد» وقورا عظيما دائما ، وأنه يدرك ما يليق بجلالته وبعقيلته . فمخالبه ترفعت عن أن تعاقب الوعل لما اجترأ على عدم البكاء عند موت

---

(١) فيلسوف ناقد مؤرخ فرنسى (١٨٢٨ - ١٨٩٣) ومن أشهر كتبه تاريخ الأدب الانجليزى

www.ibtesamh.com/vb

اللبؤة ، ودعا الذئاب أن تقدم هذا الوعل البائس قربانا إلى روحها المقدس.

وأورد «تين» أمثلة كثيرة أخرى من هذه الموازنة ، فبين أن السبع عظيم فى العادة ، وأنه جدير بالتقدير والاعجاب .

وجاء بموازنات عن بعض الحيوانات وأشباهها من طبقات الناس كالموازنة بين الثعلب والذئب والكلب ... ومن يشبههم من رجال البلاط الخ .

كان لافنتين شاعرا حقا ، وإن حبه للطبيعة ليذكر بفرجيل ، كما يذكر به ما نراه فى لافونتين من رقة وعاطفة قوية ، وهو ممتلىء بالفكاهة الماكرة ، والنكتة الرقيقة ، وهو يشبه هوراس فى أنه يتهكم من غير أن يجرح ، ويدور حول القلوب فيلعب بها ، وهو ملاحظ دقيق للناس ، ويرسم الجماعة كلها فى القرن السابع عشر رسما يعيد إليها الحياة ، بعظمتها ونقط الضعف فيها ، من ترفها إلى فقرها ، ومن الحاكم العظيم الى الرجل الحقير ، ومن صاحب الجلالة الأسد ، إلى رجل الحاشية النسناس » .

ويعتبر لافونتين أشهر من كتب الخرافات الحيوانية فى العصر الحديث

العيون اليواقظ فى الحكم والأمثال والمواعظ

وفى القرن التاسع عشر الميلادى اطلع كثير من المثقفين عندنا على أدب الفرنسيين ونقلوا بعض الآثار القيمة من أدبهم . ومن الذين شاركوا فى هذه الترجمات والنقل قاض له شهرة فى الأدب هو المرحوم « محمد بك عثمان جلال المصرى (توفى سنة ١٨٩٨ م ١٣١٦ هـ) .

ويعنينا من ذلك كتابه « العيون اليواقظ فى الحكم والأمثال والمواعظ » .

وأشار جورجى زيدان إلى أنها هى أمثال لافونتين ، وقد كتب لها المؤلف مقدمة نثرا تحدث فيها عن واضع هذه الحكايات الأول وهو « ايثوب » وجاء بتفصيل تاريخه من أول أمره إلى نهايته ، وبدأ النظم بتقريظ لكتابه فمدحه ، ثم أشار فى قصيدة أخرى بعد التقريظ الى حكاياته التى أوردها ، وأنها

www.ibtesamh.com/vb

مشتهرة الأصول ، ثم مدح الخديوى عباسا ؛ ثم جاء بهذه الحكايات بعد ذلك وورد فى المقدمة :

وانظر فتلك روضة المعانى ... وردحة المنطق والبيان
نظمت فيها مائتى حكايه ... وكلها بالحسن فى نهايه
فيها إشارات إلى مواعظ ... نافعة لكل واع حافظ
ضمنتها أمثالها والحكما ... وربما استعرت قول الحكما

وفى هذه الأبيات القليلة يشير محمد عثمان جلال إلى طريقته فى التأليف ؛ فقد اقتصر على مائتى حكاية ، وهو قدر ليس بالقليل . وضمن كل حكاية مثلا أو حكمة ، من إنشائه ، أو مستعاراً من أقوال الحكماء .

وأما أن هذه الحكايات هى حكايات لافنتين فذلك صحيح إلى حد كبير ، وقد تتبعت هذه الحكايات فى أمثال لافونتين فوجدت كثيراً منها . يعنا وينها وتفاصيلها هناك :

ولكنه لم يتتبع الترتيب الذى جاء به لافونتين فيما أخذه عنه ، وحاول أن يظهر شخصيته واضحة قوية ، فجاء كتابه تعريبا ، مثل كتاب كليلة ودمنة ، لا نقلا حرفيا . ولعله أول من تأثر بالحكايات الغربية فى استقلال القصص ، والايجاز ، والبعد عن الاستطراد ، وذلك من أهم الطوابع التى تميز قصص الحيوان عند الغربيين منذ اليونان ، إذا استثنينا عددا قليلا منها ، مثل قصص الثعلب Romans du Renard ، وقد أشار إلى سبب الاختصار فى الحكاية الثالثة عشرة بعد المائة ، حكاية النسور والحمام ، إذ يقول عما جرى بين النسور :

فلا تسل ياصاحى عما جرى ... بحر دما بين النسور قد جرى
ولاختصار لم أطق تفصيلا ... ولم أرد لشرحها تطويلا
فالطرس لم يصبر على رمى القلم ... كذا من التطويل كلت الهمم

www.ibtesamh.com/vb

كما يقول فى حكاية العجوز وصبيانها والديك : (ص ١٣٤)

عنى اسمعوا حكاية العجوز واصغوا إلى كلامها الوجيز

ولم يكن هذا تكملة للوزن ، فانه قد سار على هذه الطريقة فعلا ، كما أشار اليها قولا ؛ لأن الأصل الذى نقل عنه أكثرها ، وهو لافنتين ، كان كذلك .

(٢) وقد حاول تصيير هذه القصص ، تعريبها بطرق متعدده ، كأن يضيف الحيوان إلى مكان فى مصر . فحكاية الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج[1] تبدأ بقوله :

حمّار بولاق له حمير وفى البلاد شغله كثير

وحكاية الذبابة والنملة أولها :

تشاحنت ذبابة مع نمله[2] إما بين بولاق وبين الرمله

وقد يضيفها إلى بلد شرقى . كحكاية الذئب الذى لبس ملابس الراعى :

إنى سمعت حكاية فى المشرق عما جرى للذئب وهو بحاق[3]

وفى قصته الدرفيل والقرد[4] أن الأول أنقذ الثانى من الغرق لما انكسرت به المركب وسار به الى الشاطىء :

وقال : ذى دمشق ، أنت منها؟ قال : نعم ، سل ماتشاء عنها

قال له : جزيت خيرا ، قل لى : وحمص هل رأيت فيها مثلى؟

قال له : حمص حبيبى ، وله فى عشرتى بين الرجال وله

وظن أن حمص كان رجلا فقال ماقال ، وما تعقلا

فضحك الدرفيل مما قالا وظنه مافهم السؤالا

والتفت الدرفيل للنديم رآه قردا جاء من أبريم

قال له خيبت فيك ظنى رح وانصرف يابن القرود عنى

---

(١) ص ٥٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ٦٨ «دمشق» (٤) ص ٦٦

www.ibtesamh.com/vb

وانظر أيضا إلى الحوار فى هذه القصة ، والى السخرية المضحكة من جهل القرد وتكلمه بما لا يعلم . وفى حكاية الدب والصاحبين (١) :

حكاية رويت دون مَين عمن حكاها قبل فى شخصين
راحا لشخص فى الحجاز فرا وبالدراهم الملاح اغترا
باعاه جلد الدب وهو حى وكيف ذا يدرك يا أخى

وفى حكاية « القوقعة والمتداعيان » يبدؤها بقوله (٢) .

شخصان أقبلا من الحج معى قد لقيا قوقعة فى ينبع

والطريف أن الصورة التى فى الكتاب فوق هذا البيت صورة قسيس ، والشخصان فى ملابس القرون الوسطى ، وبيد كل منهما قبعة ، وهى منقولة عن كتاب لافنتين . وفى حكاية القط والثعلب أنها : (٣)

قد طلبا الرحلة للحجاز واشتغلا فى العفش والجهاز

ويقول فى بدء حكاية التاجر والحاكم : (٤)

سمعت أن أحد الأروام تاجر عاما فى ضواحى الشام

وحكاية شجرة البلوط والسنبلة يضيفها إلى الامام السيوطى فيقول : (٥)

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى

وهى من حكايات لافنتين (٢٢ من الكتاب الأول) نقلها عن الخرافة (٤٣) من إيسوب . ولكن الوزن قد دفعه الى هذا الأسناد فجاء موفقا خفيف الروح .

(٣) وقد يخترع من عنده أوقاتا أو أزمانا لحكاياته . ففى حكاية السبع والأرنب التى أوقع فيها الأرنب بملك الوحوش إذ أخبره أنه كان قادما اليه

---

(١) ١٠٨ «٢» ص ١٥٣ «٣» ص ١٥٥ «٤» ص ١٦٢ «٥» ص ٥٥

www.ibtesamh.com/vb

بأرنب فقابله سبع آخر وأخذه غصبا عنه : (١)

قال له السبع وأين كانا أوضح لى الزمان والمكانا

فقال : كان فى طلوع الشمس فى بلدة تسمى بعين شمس

وفى القصة «فى ميتم السبع» أنه لما ماتت زوجته جاءت الوحوش للتعزية فقال لهم : (٢)

أمرتكم أن تحضروا فى القلعة يوم الخميس مع نهار الجمعة

وكأن الأسد يعرف أيام التعزية والترحم عندنا فدعاهم فى اليوم المحدود.

وفى حكاية الذئب والبطة (٣):

إنى رأيت الذئب يوم العيد أوى إلى البطة من بعيد

وفى حكاية الكلب والذئب :

ذئب ضعيف مر بعد العصر يسعى على القوت بجنب القصر

(٤) وهو يختم كل حكاية بمغزى خلق ، قد يكون من نظمه وقد يكون بيتا عربيا كاملا . فقد ختم حكاية الحمامة والنملة بقول أبى العتاهية

فمن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا (٤)

وفى حكاية «الحكيمان» يختمها بقول معن بن أوس :

لعمرك ما أدرى، وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول(٥)

وفى حكاية «الكنز والرجلين» يختمها بقول ابن الهبارية :

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأى ولا التدبير(٦)

وقد يكون شطر بيت، مثل : «ومن يشابه أبه فما ظلم»(٧)

وفى حكاية «سيء البخت» :

---

(١) ص ٢٢ (٢) ص ٧٧ (٣) ٧٧ (٤) ص ٨

(٥) ص ٥٤ (٦) ص ١٢٦ (٧) ص ١٧١

www.ibtesamh.com/vb

« تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن »(١)

وقد يكون مثلا عاميا كاملا أو مختصرا أو معدلا كما ترى فى ختام حكاية البنت المعجبة بنفسها التى رضيت آخر الأمر بزوج قبيح ،مثل قوله : (٢)

فلقد صح هاهنا قول من قال فى النكت
خطبوها تعززت تركوها تندمت

وفى حكاية الكلب الذى ترك الرغيف واتبع خياله (٣) :

ومثله بين الورى كثير من شانه فى العيشة الغرور
ما حصلوا بالجهل فى أى زمن لاعنب الشام ولا كرم اليمن

وفى حكاية حرب الفيران مع ابن عرس يختمها بقوله (٤) :

هكذا العريان بين القافله فى راحة والناس عنه غافله

والقرآن الكريم كان مددا له أيضا ، يقتبس منه فى المغزى ؛ بشىء من التحوير فقد ختم حكاية المها الذى نظر نفسه فى الماء بقوله (٥) :

وأنتم يا سامعى فانتبهوا لاتكرهوا شيئا عسى أن تكرهوا

وفى حكاية الجنايين وسيده كان ختامها : (٦)

وآية الملوك أوردوها إن دخلوا قرية أفسدوها

وفى حكاية النهى عن الاسراف يقول فى آخرها : (٧)

وورد النهى عن الاسراف فى الذكر والحديث والقوافى
فجاء : « إن الله لايحب » وهو إذاً معرة وذنب
« خير الأمور » من حديث المصطفى والله ربى فهو حسبى وكفى

وفى حكاية الحصان والذئب : (٨)

وهكذا الناس : كل من بدا بالخبث لايخرج الا نكدا

---

(١) ص ٧٢ (٢) ص ١٠٤
(٣) ص ٤٣ (٤) ص ٢٢ (٥) ص ٤٣ (٦) ص ١٥٤
(٧) ص ١٥٢ (٨) ص ١٤

www.ibtesamh.com/vb

كما جاء بالأحاديث الشريفة فى المغزى أيضا فى حكاية الرجل القبيح الزوجة : (١)

ما كذب القائل فى أفكاره ... قد حفت الجنة بالمكاره

وفى حكاية النهى عن الاسراف السابقة : « خير الأمور » من حديث المصطفى . والتاجر الذى أوصى أولاده يقول لهم (٢)

أوصيكم فى العيش أن تتحدوا ... من ينفرد فشمله مبدد
واشتركوا فى الرأى والبضاعة ... إن يد الله مع الجماعة

ورأيته يجعل الدخول على المغزى بتمهيد أحيانا ، وبغير تمهيد أحيانا أخرى.

أما اللغة التى استعملها ، والألفاظ التى استخدمها ، والأمثال والتعابير التى بين بها أفكاره وحكاياته ، فكانت خليطا من الفصيح الراقى ، والعامى المعرب وغير المعرب، ولكنه كان فى كل ذلك يحرص على أن تكون العبارة قوية الأداء للمعنى .

وكانت عباراته وألفاظه العامية خفيفة تضفى على القصة روح المرح وبخاصة إذا أعربها . وهاك قصة الثعلب مقطوع الذنب : (٣)

حكاية فى ذكرها ترى العجب ... عن ثعلب رأيت من غير ذنب
وذاك أنه بفخ وقعا ... وفات فيه ذيله وطلعا
ثم انزوى من خزيه وانكسفا ... ومال بين قومه وانعطفا
وقال لابد أزيع المكرا ... وأن يكون الكل مثلى زعرا
شاهدته جاء إلى الثعالب ... وكان ذا بعد أذان المغرب
وقال : ما منفعة الذيول ؟ ... باردة باسلة فى الطول
تكنس من ورائنا الأراضى ... من منكم بطولهن راضى؟

---

(١) ص ٢٠٥ (٢) ص ٦٩ (٣) ص ٧٩

www.ibtesamh.com/vb

نقطعها ونستريح منها فصدقوا ما قد ذكرت عنها
قال له أحدهم : سمعنا ولكلام قلته أطعنا
لكن زيد أن نراك من ورا كيف تكون إن غدوت أزعرا
فاحمر حالا وجهه من الخجل وراح مكسوفا وولى بالعجل
قال : فردوا مكره إليه وهلكوا من ضحك عليه

لاشك أن هذه الحكاية خفيفة الروح ظريفة فى عباراتها وألفاظها العامية كقوله : وفات فيه ذيله وطلعا . وقولهم له : « لكن زيد أن نراك من ورا كيف تكون إن غدوت أزعرا » وكذلك حاله لما انزوى من خزيه وانكسفا . ولما احمر وجهه من الخجل، وراح مكسوفا وولى بالعجل . وقد كانوا على صواب ، عندما هلكوا من ضحك عليه » .

وأعتقد أن هذه الحكاية لو جاء العامى فيها فصيحا لما استمتع قارئها بما فيها من خفة الروح ، كما يستمتع الآن .

وهو فى الشعر والزجل قوى التصوير . يوضح الشخصيات ، والحوادث حتى يكاد القارىء يلمسها : ففى الحكاية السابقة يظهر واضحا تصويره للثعلب ومكره . ومكر الثعالب وسخريتهم ، وقالب الفكاهة الذى بدا فيه قولهم الساخر .

وقد جاء بحكايات من العامى الصريح ولكنها قليلة ، وهو فيها منطلق متمكن من صناعته ، فليس فيها قلق ولا اضطراب ، ولا تحوير فى الكلمات .

ومنها قصة القطة التى قلبت امرأة وهى :

زى القصة دى ما يمكنشى عن راجل وبيبع الطرشى
كان له قطه جوه بيته مطرح ما كان يمشى تمشى
من حبسه فيها يطعمها روس الضانى ولحم الكرشى
قال يارب تبدلها لى جارية من نسوان الحبشى
حبه ربه غيرها له جارية تسوى ألفين قرشى
راح السوق جاب ناموسيه قبل المغرب ما تأخرشى

www.ibtesamh.com/vb

بعد المغرب جاب يتعشى ... وياها بالقرع المحشى
هما على السفره يتعشوا ... إلا وفار فى القاعه يمشى
نطت دى الست اللى بتاكل ... مسكت دى الفار اللى يعشى
قال يارب اسخطها قطه ... ده اللى فيهش مايخلهش !

ويظهر أن سوق الزجل كانت رائجة ، وكان الشعر العربى غير طيع لكثير من أهل النظم . ونلاحظ أن هذا الوقت هو الذى كان فيه السيد عبد الله النديم والشيخ على الليثى — ماتا سنة ١٨٩٦ — ولهما من الزجل والأشعار الخليط شىء كثير ، يجمع إلى الفكاهة قوة النقد ، كما فعل محمد عثمان جلال ، الذى أثر الطريقة الرمزية على ألسنة البهائم والطير .

وفى كتابه حكايات كثيرة جديدة لم تعرف عند مؤلفى القصص الحيوانية من العرب ، بسبب أصلها الذى نقلت عنه . وقد شاع كثير من حكاياته بمعناه أو بلفظه ، وعرف طريقه إلى كتب الأطفال التى أدرك مؤلفوها قيمة القصص الحيوانية فنثروا قصص محمد عثمان جلال أو نظموها شعرا .

جاء بعد صاحب العيون اليواقظ اثنان من أدباء الخرافات هما المرحومان ابراهيم بك العرب ، وأمير الشعراء شوقى بك

وقد اتجها وجهة غربية فى شكل خرافاتهما ، فجعلاها قصصا مستقلة قصيرة ، وآثرا الشعر على الزجل وشبهه ، عند صاحب العيون اليواقظ .

وقد سمى الأول مجموعة خرافاته « آداب العرب »

وقدم لها بمقدمة يقول فيها :

« أما بعد فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب . وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ليأخذوا منها ما يربى نفوسهم ، ويقوم أخلاقهم ، ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين .

وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابى أقاصيص قريبة التناول ، واضحة

www.ibtesamh.com/vb

المعنى ، سهلة النظم . »

وجعل أكثر تلك الأقاصيص عن الحيوان وختمها بعظات . ومن القصص المشهورة التى يبدو فيها حسن النظم واضح الغاية ، حكاية الطاوس الذى أظهر إعجابه « واختال بين الورد والآس » فبدا فتنة للعين « بحسن ريش الذيل والراس » ، فتصدى له عصفور وذمه . و اب سيقانه العارية :

فقام من حولهما طائر يرميهما بالمنطق القاسى
فقال : كل منكما معجب وغافل عن عيبه ناسى
لو نظر الناس إلى عيبهم ما عاب إنسان على الناس

وشعره عامة فى درجة جيدة وإن كان بعضه ضعيفا . وكان يختم كل قصة بالمغزى كما تقدم. وهو من نظم غيره من الشعراء السابقين فى أكثر هذه القصص ، ويحسن التمهيد له فيمشى مع القصة و وافقها تمام الموافقة .

فاذا كان من نظمه بدا فيه الضعف أحيانا. وقد سمى هذه القصص «العظات» وعددها تسع وتسعون . والخاتمة التى جمع فيها حكما ، ووصف فيها صنوفا من الناس ، شعرها رصين وقور ، يناسب موضوعها .

أما شوقى فقد شاعت خرافاته قبل أن تجمع فى الجزء الرابع من ديوانه وعرفت طريقها إلى كتب التلاميذ « كالحمامة التى كانت بأعلى الشجرة » ، و « الثعلب الذى برز فى شعار الناسكين » ، والعصفورتين اللتين حلتا فى الحجاز على فنن » .

وهى غريبة المظهر أيضا باستقلالها وقصرها ، وهذا المثال منها وهو قصة الثعلب والديك خلاصته : أن الثعلب أراد أن يمكر بالديك ليأكله ، وكان بعيدا عن متناوله فظهر فى شعار الواعظين ليخدعه ، وأرسل إليه رسولا يدعوه ليؤذن لصلاة الصبح ، فاعتذر الديك لما أصاب بنى جنسه من الثعالب

ولقد أحسن شوقى تصوير الثعلب فى مكره، وألبسه ثياب الواعظين حتى كاد يعد منهم .

www.ibtesamh.com/vb

فمضى فى الأرض يهدى ويسب الماكرينا
ويقول : الحمد لله إله العالمينا
ياعباد الله توبوا فهو كهف التائبينا

وما أحسن حيلته حين جعل الأذان لصلاة الصبح مبررا لدعوة الديك، أما الديك فقد أجاب جواب موتور .

. . . . . عذراً يا أضل المهتدينا

وقال لرسول الثعلب :

بلغ الثعلب عنى عن جدودى الصالحينا
عن ذوى التيجان منهم دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا : وخير القول رأى العارفينا
مخطىء من ظن يوما أن للظالم دينا

أليس شوقى قويا فى تصويره للثعلب المخادع والديك الموتور ؟ إن كل لفظ كتبه شوقى فى هذه القصة ينطق بقوة هذا التصوير ، وأما غاية القصة فيجسمها البيت الأخير .

وقد التزم شوقى هذه الطريقة . أما مصادر قصصه فكان منها الشرقى ومنها الغربى . وكان يصبغ قصصه بصبغة محلية كما كان يفعل صاحب العيون اليواقظ . ففى قصة العصفورتين الحجازيتين رى موطنهما فى الحجاز ، وقد مر بهما ريح جاء من اليمن فحز عليه ما هما فيه من ضنك بسبب بؤس البيئة التى يعيشان فيها . ولما دعاهما أن يسيرا معه إلى اليمن :

قالت له إحداهما والطير فيهن الفطن
ياريح أنت ابن السبيل ماعرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن لاشىء يعدل الوطن !

وله كثير من هذه القصائد البديعة التى سما شعرها ، ولطف حوارها ، ودقت عباراتها ، وناسب بين معناها ومبناها .

www.ibtesamh.com/vb

وقد عنى رجال التربية وعلم النفس ببيان قيمة القصص عامة - ومنها الحيوانية - فى تهذيب الأخلاق ، وتربية الخيال ، وتعليم أساليب اللغة . واعتمدوا فى ذلك على دراستهم للطبائع والغرائز وقوة الخيال . ووضعوا الأسس التى يجب أن تسير عليها القصص كى تؤدى إلى غايتها فى تربية أخلاق التلاميذ وأذواقهم ، ووجدانهم وخيالهم ، فتنوعت القصص واختلفت باختلاف أعمار التلاميذ .

كما روعى فيها جانب تعليم اللغة ، فحاول مؤلفوها الترقى فى الأساليب من سنة إلى سنة ، وزيادة الثروة اللغوية والبلاغية عند التلاميذ .

واستخدمت القصة فى غير الخرافات أيضا . وجاءت على شكل حديث الحيوان عن نفسه . وفى أثنائها تأتى المعلومات من التاريخ الطبيعى حقائق لا خيال فيها . كما ورد بعض هذه القصص على شكل محاورات أو مفاخرات بين الحيوان بعضه وبعض ، ولا تخرج المعلومات فيها عن حقائق التاريخ الطبيعى .

وكان من آثار ذلك أن تنوعت قصص الحيوان تنوعا عجيبا ، فكان منها الأسطورى ، وكان منها الحقيقى ، ونقل بعض المؤلفين حكاياتهم فى التهذيب عن الشرقى القديم ، والغربى المترجم ، وكان بعض هذه القصص موضوعا ، وبعضه منقولا نقلا دقيقا أو بتصرف . وجاء بعضه مع غيره من القصص الأخرى فى كتب المطالعة ، وبعضه فى كتب خاصة بقصص الحيوان ، وبعضه مطولا وبعضه مختصرا .

وقد شاعت فى أنحاء العالم قصص حيوانية مصورة تعرضها دور الخيالة من عمل السينمائى المشهور «وولت ديزنى» وغيره ؛ ومن أشهر الحيوانات التى صورها الفنان «ميكى ماوس» ، وكان لعبقريته فى تصويره ، ورسم حكاياته ، وعرض قصصه ، وتلوين هذه القصص بألوان جذابة من الفكاهة والغرابة

www.ibtesamh.com/vb

أكبر أثر فى إقبال الأطفال عليها . فكانت وسيلة لطيفة جدا من وسائل تسلية الأطفال ، وتعليمهم وتربية خيالهم .

والحق أن قصص الحيوان فى القرن العشرين تحتاج إلى دراسة مستقلة تبين أنواعها وغاياتها ، تأثيرها فى الأطفال ، ومناسبتها لأعمارهم ، ومقدار نجاح المؤلفين فى ذلك . وما استعانوا به من وسائل البيان والعلم ، والقواعد النفسية والتربوية ، لكى يصلوا إلى غايتهم .

وقد يكون ذلك جزءا من دراسة عامة لقصص الأطفال . ـ ومنها قصص الحيوان ـ فى القرن العشرين .

حصريات مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

المراجع العربية

الأذكياء لابن الجوزى

الأمالى لأبى على القالى ١ ، ٢ طبع دار الكتب

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى « « « والسامى

ألف ليلة وليلة « صبيح

اخوان الصفا ـ لعمر الدسوقى « الحلبى

أساطير العرب فى الجاهلية ـ عبد الحميد خان .

آداب العرب ـ لابراهيم بك العرب .

الأوراق ـ للصولى (نشره هيوارث دن) . مطبعة الصاوى

أمثال لقمان .

البيان والتبيين للجاحظ « السندوبى » .

بلوغ الأرب للألوسى . الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية

تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعى « المكتبة التجارية»

تاريخ آداب اللغة العربية ١ ، ٤ جورجى زيدان مطبعة الهلال

تاريخ الأدب الفارسى رضا زاده شفق ترجمة دكتور هنداوى

تاريخ الأمم الاسلامية ١ ، ٢ لخضرى

تاريخ دولة المماليك فى مصر « موير » ترجمة محمود عابدين وسليم حسن

تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ، الاسكندرى وسليم حسن .

التاريخ القديم شفيق غربال بك

تداعى الحيوانات على الانسان ، نشر ، ديتريصى طبع برلين

تفسير : الطبرى ، الزمخشرى ، النسفى ، الألوسى ، الفخر الرازى ، البيضاوى طبع السندوبى

جمهرة أشعار العرب

جمهرة الأمثال « للعسكرى » ، هامش أمثال الميدانى .

www.ibtesamh.com/vb

حياة الحيوان الدميرى
الحيوان للجاحظ
حى بن يقظان لابن الطفيل .
خزانة الأدب للبغدادى.
سلوان المطاع لابن ظفر .
سيرة ابن هشام
الشعر والشعراء لابن قتيبة
الشوقيات ج ٤ لشوقى .
شرح شواهد الكشاف .
الصادح والباغم لابن الهبارية .
ضحى الاسلام لأحمد بك أمين .
الضرائر للألوسى .
الضوء اللامع ١ ، ٢ للسخاوى .
طبقات الشعراء لابن سلام.
عصر المأمون لفريد رفاعى .
العقد الفريد لابن عبد ربه .
العيون اليواقظ لمحمد عثمان جلال .
فجر الاسلام لأحمد بك أمين
فى الأدب الجاهلى لطه حسين باشا .
فى أصول الأدب لأحمد حسن الزيات
فاكهة الخلفاء لابن عربشاه .
الفهرست لابن النديم .
القرآن الكريم .
قصص القرآن لجاد المولى .

www.ibtesamh.com/vb

قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .
قصص العرب لجاد المولى وآخرين .
قصة الأدب فى العالم ج ١ ، ٢ .
القاموس المحيط
كليلة ودمنة لابن المقفع .
كليلة ودمنة تحقيق الدكتور عزام .
كشف الظنون لكاتب حلبى .
الكتاب المقدس .
لسان العرب لابن منظور .
مجمع الأمثال للميدانى .
مروج الذهب للمسعودى .
مرزبان نامه لابن عربشاه .
المستشرقون لنجيب العقيقى .
المسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد.
معجم البلدان لياقوت .
منبعا الدين والاخلاق - برجسون تعريب الدروبى وعبد الدايم .
مقدمة ابن خلدون .
معاهد التنصيص للعباسى .
موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس .
نتائج الفطنة لابن الهبارية .
نهاية الارب للنويرى .
النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية لمحمد محمود جمعه
الوسيط للاسكندرى وعنانى .
وفيات الأعيان لابن خلكان .

www.ibtesamh.com/vb

المراجع الأجنبية

Ancient India and Indian civilization.

The Anvar -1- Suhaili, Eastwick

The big Book of animal stories, Mary,S. Lane.

Chamber,s encyclopaedia.

Comus and Lycidas. Milton.

Encyclopaeddia Britannica.

The Jewish Encyclopaedia.

The koran, translation, Rodwell, Everyman,s.

Medieval Islam, Von Grunbaum.

Myths and Legends of ancient Egypt, Lewis Spence.

The story of civilization, Durant.

The Shorter Oxford English Dictionary.

The Squire,s Tale, Chaucer.

The Wisdom of India by Michael Jareth.

Nouveau petit Larousse.

Les Fables de La Fontaine, Tarvèr.

Fables de La fontaion, Charles Aubertin.

www.ibtesamh.com/vb

وردت بعض أخطاء وهذا صوابها

صفحة	سطر	الصواب
١١	٢٣	Ency
٢٥	٦	٢ ـ الخرافات
٣٠	٨	apologue
٣١	٨	أوبرتان
٣٤	٢١	India
٣٥	١٩	السبع
٣٧	١٣	بانيبال
٤٧	٢١	سورة
٤٨	٢٣	الجدالة = الأرض
٥١	١٠	كعادته
٥٦	١	يفحص
٥٦	٢٠	أعضب
٥٨	٢١	العنكث
٦٠	١١	باهلة
٦٢	٨	جزاؤهم
٦٤	٥	بشه
	٦	يأتيه
	٨	لتنظر
٦٥	٢٠	السكباب
٦٦	١٠	لبّه
٧٢	١٠	تتفحج
٧٢	١٢	تشتو
٧٥	٤	شعف
٩٢	١١	فتبعها
٩٧	٨	واكرام
	٩	بالثأر
٩٨	١١	بعض كهذه
١١٢	١١	أنو شروان
١٢٧	١٤	الصياد
١٤٩	٨	الرعية
١٥٦	١٨	ياساداتى
١٥٨	١	يد
١٦١	١٩	مفاخرة
٢٦٧	١٧	إذ
١٧٣	٣	القبس
١٧٤	٢٣	البديعية
١٧٧	١	الخلفاء
	١٥	الهوام
	٢٠	المعاملات
	٢٢	كليلة
١٨١	٩	الأذلان
	١٨	أراد
١٩٥	٢	حكاية

www.ibtesamh.com/vb

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر مارس 2016 **

www.ibtesamh.com

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

www.ibtesamh.com/vb

Exclusive
For
www.ibtesama.com